ويليس بارنستون

مع بورخيس

مساء عادي في بوينس آيس

ترجمة: د.عابد إسماعيل

مذكرات

twitter @baghdad_library

مذكرات

Author: Willis Barnstone
Title: With Borges on an Ordinary Evening in Buenos Aires
Translator: Dr. Abed Ismail
Cover designed by: Roula Majed
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2002
Second Edition: 2014

المؤلف: ويليس بارنستون
عنوان الكتاب: مع بورخيس مساء عادي في بوينس آيرس
ترجمة: د. عابد اسماعيل
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2002
الطبعة الثانية: 2014

copyright©Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

ويليس بارنستون

مع بورخيس

مساء عادي في بوينس آيرس

(مذكرات)

ترجمة : د. عابد اسماعيل

twitter @baghdad_library

المحتويات

١ - صوت الأعمى	7
٢ - في الارجنتين	23
- مساء عادي في بوينس آيرس	25
- درس الإنكليزية القديمة	69
- حادثة مخيفة ومختصرة جداً	95
- قرطبة بعيدة و وحيدة	101
٣ - في أمريكا الشمالية	147
- عندما أصحو، أصحو على ماهو أسوأ	149
- ما قاله سينيكا في تاكسي شيكاغو	175
- بصرٌ ضعيف في كمبردج	195
- لقاء خاطف في نيويورك	227
٤ - في الصين	235
- مع بورخس في الجبل الجنوبي العميق	237
٥ - في بوينس آيرس، ميلان، روما، وجينيف	257
- اسمي "كان يمكن أن يكون"	259

twitter @baghdad_library

صوتُ الأعمى

شبهُ الظلِّ هذا بطيءٌ ولا يسبّب أيّ ألم ؛
إنه ينزلق فوق سفحٍ ناعمٍ
ويبدو كالأزل .

كان بورخس قد فقد بصره في عام ١٩٦٨ عندما التقيته لأول مرّة في (مركز الشعر) في نيويورك وكان يجلس في الصفوف الخلفية لمدرّج كوفمان. كانت القراءات قد انتهت، وكان ثمة جلبة حولنا، ولكن ما إن بدأنا الحديث وجدنا أنفسنا وحيدين. عندما أخذ يدي ومشينا تحدّثتُ إليه بصوتٍ عالٍ قليلاً بسبب الضجّة، لكنه بادرني قائلاً: "مهلاً، مهلاً، أنا لستُ أصمّاً". منذ الطفولة كان بورخس يعاني من ضعف البصر، وفي أوائل الخمسينات أصيب بانفصال للشبكية مما أدى إلى فقدانه البصر في عينه اليسرى التي كانت تبدو طبيعية تقريباً. في عينه اليمنى المشوّهة كان يستطيع رؤية تموّجات اللون الأصفر لمسافة قصيرة تكفي لقراءة ساعته الذهبية.

الآن، وبعد قراءة لغوية مزدوجة للشعر حيث كلّ قصيدة كانت تتُلى بالإنكليزية ومن ثمّ بالإسبانية يعقبها تعليق من الشاعر، كان بورخس

twitter @baghdad_library

يقف في الصفوف الخلفية وحيداً دون عكازه، يتطلّع بعينين هائمتين حوله متشوّقاً للقاءٍ قادم، تعلو شفتيه ابتسامة. بدا الشاعر تائهاً، وهي حالة اعتاد عليها وقبلها برضى.

كان المؤرخ الإسباني جوان ماريشال قد طلب مني تنسيق هذه الأمسية الشعرية. كنتُ أقف على بعد بضعة أمتار من بورخس (والذي لم أكن قد تعرّفتُ عليه بعد إلا عبر المراسلة). كان يتحدّث إلى صديقه نورمان ثوماس دي جيوفاني، أحد قراء الأمسية. التفتَ نورمان إلى بورخس وقال: "هذا هو بارنستون. إنه المذنب الذي بدأ كلَّ هذه الضجّة."

انسجمنا مباشرةً وكأننا رحنا نكمل محادثةً بدأت منذ سنوات. تحدّثنا عن الشبيهَين، وعن كاتبين اسمهما ماتشادو، وعن عدة مؤلفين اسمهم بيسو، وتطرقنا إلى ماحدث للغنوصيين في سوريا والإسكندرية. كان يقول: "تذكّر، لم ينظر القاباليون إلى الكتاب المقدس كعملٍ كلاسيكي، أو كبارجة محكمة كما تدلّ كلمة "frigate" سفينة في اللاتينية، بل نظروا إليه ككتابٍ مطلق يختزن معنىً لانهائياً. أعتقد أنَّ جوهانس سكوتس إريجينا عبّر عن ذلك أفضل تعبير عندما قارن المعنى اللانهائي للكتاب المقدّس بالرّيش المزركش للطاووس."

"إذا كان الكتاب المقدّس ريشَ طاووس، أي نوعٍ من الطيور أنت؟" سألته.

"أنا بيضة طائر ترقدُ في عشّها في بوينس آيرس، وهي لم تفقّس بعد، وغير مرئية بشكل دقيق، وآمل بكل تأكيد أن تبقى على هذه الحال."

الحديث مع بورخس مبارزة من الدفء والحميمية مملوءة بالرّوعة.

في العنوان الشهير "أنا وبورخس" يصف المؤلف كاتباً في طريقه

إلى الشهرة من جهة، ومتأمّلاً حسّاساً ووحيداً من جهة أخرى. المفتاح إلى الشخصيتين هو الإندماج المطلق فيما بينهما. اختلاطهما وتشابههما الظاهري محيّرٌ أحياناً لكنه مقبول على يد شخصٍ وحيدٍ خجول يحبّ الخرائط، وطبوغرافيا القرن الثامن عشر، ومذاق القهوة، والذي يفضّل حياته أن تكون، ليس مجرّد مراحل ومقاطع أدبية مذكورة في الموسوعات، بل طيرانٌ باتجاه النسيان، وتمرينٌ متواصل لأبديةٍ أخرى لاصوت لها. هذا البورخس المنسحب يفضّل صفاء فراي لويس دي ليون في عزلته الفرجيلية وهو يختار "درباً مكتوماً وضوءاً مجهولاً،" عوضاً أن يسكن المدينة الخرافية للرجل العام الذي يؤلّفُ ويصبحُ لاحقاً كتبَه.

غير أنّ الشبيه البورخسي الذي استطعتُ تلمّسه لم يكن الرجل العامّ أو الخاصّ للعنوان الشهير. بل كان مجرّد صوت- صوت مزدوج: الرجل المكتوب (written) المسموع في كلّ كتاباته، والرجل الأعمى المنطوق (spoken) والمسموع في الغرف، صوت الصديق، ذاك الرجل النبيل الذي يلفح بعكّازه شوارعَ بوينس آيرس. وخلال السنين التي عرفته بها كنتُ دائماً اندهش للطريقة التي كان الشاعر بورخس يطلق فيها سراح صوته. بعد أية محاضرة، في السيارة أو المطعم كان يتحدّث بلا كلل لأشخاصٍ لايراهم و لايعرفهم بحميمية عالية ونية صادقة مفعمة بالثقة. سواء كان المتحدث الذي يخاطبه صحفياً أو بواباً أو طالباً أو كاتباً أو موظفاً. هذان الصوتان، كما هو الحال مع الشخصيتين في "أنا وبورخس"، يتحدان أيضاً ويصبحان صوتاً واحداً بالتأكيد. ربما في مكانٍ آخر من عنوانٍ أكثر تناغماً مع هذا البورخس الذي عرفته، ثمة مايسميه بورخس "القلم واللسان" يكشف عن صوتيه المتحدين هذين، أقصد

twitter @baghdad_library

المكتوب والمنطوق. وقطعاً يندمج اللسان بالقلم أيضاً، فالمقطع يجب أن ينتهي حيث "أنني لاأعرف بالضبط فيما إذا كان القلم أم اللسان هو الذي يتفوّه بهذه الكلمات."

هذان الصوتان المتفاعلان ينبثقان من مصدرٍ مولّدٍ واحد. إذ لم يكن حديث بورخس سوى بوح شفوي لنفس الفاعلية الخلاّقة الكامنة في نصوصه المكتوبة. كما أنّ عماه في منتصف العمر برهن على هذا الإندغام بين اللسان والقلم. وعندما دخل بورخس عماه الكامل كان عليه أن يتلو كتاباته. فيما بعد صار يتحدّثُ النصوصَ التي سينشرها بنفس الصوت الذي كانَه في حياته الشخصية، بورخس الصديق المتحدّث.

إذن، سواء أكان مكتئباً أو فرحاً، ضاحكاً أو متعباً، كان بورخس يتحدث الأدب. سواء كنتَ تسامره في مطعم مكسيم في بوينس آيرس، في أعلى شارع مابو، حيث الطعام لذيذ (وتجد عادةً ثلة من العجائز الألمان والنازيين الأستراليين يجلسون حول الطاولات الخلفية) أو كنتَ معه لساعات قليلة على متن طائرة، أو كان يسرّ لك أمراً بعد منتصف الليل في مقهى القديس جيمس في شارع قرطبة، كان حديثه أدباً. لاأقصد أنه كان يتحدث عن الأدب- وهذه واحدة من "عاداته" المفضّلة- بل كان صوته للتوّ كلاماً مطبوعاً. ونادراً ماتتسرّب جملةٌ من بين شفتيه دون أن تجد طريقها إلى صفحةٍ لأحد منا يريد اكتنازها. قال لي إنّ انكليزيته مستوحاة من الكتب، وهي كانت كذلك؛ ولكن هذا ليس بسبب أنها منمّقة أو غير طبيعية، أو أنها وليدة الكتب، ولكنها، مثل حديثه في الإسبانية، تستحقّ دون شكّ أن تجد طريقها إلى الطباعة.

كان كلام بورخس يعطي مصداقيةً لكتابته وكتابته تعطي مصداقية

لكلامه. أن تسمعه يعني أن تقرأه. بعدها أن تقرأه يعني أن نسمعه. حتى في يومه الأخير على فراش الموت عندما قال: "هذا أسعد يوم في حياتي." كانت كلماته عن الحياة والفنّ تنبثق من أصل واحد.

ولأنَ الطالع الحسن أتاح لي سماع أصوات بورخس المتعددة لعقدين من الزمن وافقتُ على تأليف كتاب مذكّرات عندما طُلبَ مني ذلك. كانت ردة فعلي الأولى شبيهة بجبن بورخس العلني. كان شغوفاً في التأكيد على جبنه الفيزيولوجي، وهذه حقيقة أكّدها طبيبه ودكتور أسنانه. هذا ليس حقيقياً تماماً. سبق وكتبتُ مذكّرات مؤلفة من أربعين صفحة تحت عنوان "مع بورخس في الصين" وكانت مقدمة لترجمة اسبانية لكتابي (بورخس في الثمانين)، حيث أعطيتها للناشر، يحدوني الأمل بأن تظلّ النسخة الإنكليزية حيّة. وقد تجلى جبني عندما اقترحتُ الإعداد لكتاب مذكّرات تشارك فيه شخصيات أدبية هامة تربطها صداقات ببورخس عوضاً عن كتابة كتابٍ مستقل بمفردي. بالرغم من ذلك، وفي نفس الإسبوع، ودون سبب أو حسابات، بدأتُ بالكتابة، حيث استحوذ عليَ للتوّ جنونٌ من الذاكرة والمتعة. ومنذ ذلك اللقاء الإعتباطي في الصفوف الخلفية للمسرح قبل عشرين عاماً، وجدتُ نفسي مأخوذاً بحضور وكلمات خورخي لويس بورخس، وبالذكريات.

لو أنني كنتُ قد مُنحتُ قصر الذاكرة لكاردينال ماتيو ريسي أو العقل المدهش الماحي للحبر "لفيونس المتذكّر" في قصة بورخس، لما كنتُ استسلمتُ للشكّ الأوليّ. لكنني سرعان مابدأتُ أغلي ومرَ بعد ذلك أكثر من عشرين يوماً لم أعرف خلالها النوم المنتظم. مع ذلك ربما كان مناسباً أن تكونَ بين الحلم واليقظة عندما تفكَر ببورخس الذي أصبح منذ

twitter @baghdad_library

قصائده الأولى في ديوانه (توهج بوينس آيرس)، ومن ثم في كتبه الشعرية الأخيرة، شوانغ تسو زماننا، مسائلاً نفسه كهذا التاوي القديم فيما إذا كان حَلُمَ بأنه فراشة أو أنه كان حلم فراشة. يروي لنا بورخس هذه اللحظات في قصيدته "حلم":

عندما تدق بسخاء ساعاتُ منتصف الليل
خلال الوقت الذي يتّسع،
أجذّف أبعد من أولئك البحارة في الأوديسّة
عميقاً إلى مياه الحلم التي لاتطالها
الذاكرة البشرية.
في هذه المنطقة المكبوتة أصطاد صوراً
لايمكنني فهمها:
أعشاب تخصّ علم نباتٍ بدائي،
وربما نسل غريب من الحيوانات،
حوارات مع الموتى،
وجوه هي في الحقيقة أقنعة،
كلمات من لغات قديمة،
وأحياناً رعب لانظير له
مما يرميه النهار علينا.
أنا كلّ الآخرين وربما لاأحد. أنا الآخر
الذي لايعرف من أنا، الذي نظرَ
إلى ذاك الحلم الآخر، إلى يقظتي.
يقيّمه -حلمه- مبتسماً

وبزهدٍ.
زاهداً ومبتسماً.

وكما هو حال الحجر والقمر لدى سبينوزا، حيث يتوقان لكي يكونا حجراً وقمراً، كان بورخس يتوق لاكتشاف ميتافيزقيا حلمه أو كابوسه، أو الغبطة الدنيوية لحقيقة الآخر. لقد اخترع شخصيات لتكون حلمه. في (رسالة بالشيفرة) وهو ديوان قصائد منشور في عام ١٩٨١ اخترع بورخس رينيه ديكارت غامضاً يشكّ في الحقيقة، بوجوده. ديكارت الحقيقي في مقولته "أنا أفكّر إذن أنا موجود" كان يلعب لعبةً قياسيةً دائرية لاتقود فقط إلى برهان وجوده بل إلى وجود الله أيضاً، والتي لم يستطع بورخس قبولها إلاّ ضمن سياق وحدة الوجود لدى سبينوزا، قابضاً على كلّ شيء في بوتقة واحدة: الحجارة، الناس وأرواحهم المؤقّته، خريطة النجوم كلها، الله الذي ابتكره اليهود البرتغاليون في هولندا من العدم، خالعين اللانهائي على مخطوطته البيضاء:

بـاروخ سبينوزا،
وهجٌ من الذهب، الغرب الذي يضيء
النافذة. الآن، المخطوطة الدؤوبة
تنتظر، موزونةً باللانهائيّ.
أحدٌ ما يبتكر الله في فنجانٍ داكن.
انسانٌ يبتكر الله. إنه يهودي
بعينين حزينتين وجلدٍ بلون الليمون؛

twitter @baghdad_library

الوقتُ يحمله كما تُحملُ ورقةٌ سقطت
في النهر وراحت تطفو فوق المياه
باتجاه نهايتها. لابأس. الساحر يتحرَك
ويرسم إلهَه بخطوطٍ هندسية متقنة.
من مرضه، من اللاشيء، كان قد بدأ
بابتكار إلهِه، مستخدماً الكلمة. مامن أحدٍ
بورك بهذا الحبِّ الباذخ مثله:
الحب الذي ليس له أمل بأن يُحَبَ.

كان بورخس فضولياً حيال الأزل، وحيال أسماء ووجوه الله، ومن خلال أقنعته الكثيرة التي بحث عنها أوصلنا بشكل قريبٍ جداً إلى الوحي. في النهاية، على أيةَ حال، ترك بورخس جانباً الكلمة التي لا تُقال متَشحة بالغموض. هكذا كان يجب أن يُعدمَ شاعر الإمبراطور الصيني العبد الذي كان على وشك النطق بالكلمة التي تسعُ الكون، وكان يجب أن يموت سلف بورخس فرانسيسكو دي لابيدا في "القصيدة المقترحة" عندما "اكتشف المفتاحَ لجميع سنواته." إنّ شخصيات بورخس تعرف شيئاً ما، ويُتاح لها "أن ترمقَ اللغزَ" لكنها لن تبوح به لنا أو لبورخس. إنّ فكرة صمت الصَوت الذي يسع كلية الكون محتواة في المفارقة التي توحيها هذه الحكمة التاوية القائلة: ذاك الذي يتكلَم لايعرف؛ وذاك الذي يعرف لايتكلم.

من توظيف الحكمة في صمت الصوت، طبيعي أن ننتقل إلى معنىً آخر، وإلى توظيف الرؤية في غياب البصر. إن عمى بورخس، وصبره في

وقت العمى، منحه الخلوة، ومعنىً آخر للوقت، وشوّش التمييز بين مستويات الوعي. هذه المدارات المتقاطعة لكل من الحلم واليقظة تتركّز وتتكثّف في ديكارت الجدّي الذي اخترعه بورخس في قصيدة من قصائده:

ربما لم يكن لدي أمس، ربما لم أولد.
ربما أحلمُ بأني حلمتُ.
أشعر بالبرد قليلاً، قليلا أشعر بالخوف،
إنه الليل على الدانوب،
سوف أستمرّ حالماً بديكارت ...

جدّي، أجل، ولكن في لحظات كهذه تحديداً لايتورّع بورخس عن ابتكار مفارقة غرائبية. فبينما يستوجب ديكارت وجوده الخاص، موحياً بأنه ربما كان حلماً أو أنه ربما لم يولد أبداً، يعرف القارئ بأنّ بورخس، مبتكر ديكارت، هو الذي يثير هذه الأسئلة. إنّه يعقّد المسألة أكثر عندما يؤكّد بأنّ ديكارت التاريخي في القصيدة ربما كان وهماً، أو حلماً. في لحظة ميتا-نثرية ذكية يحضر ديكارت الآخر. إذ بالنسبة لبورخس هذا الديكارت الآخر، الشكّاك، والحالم، ديكارت اللاتاريخي، هو الذي يوجد فحسب. هكذا في عملية قلب نموذجية، يصبح الحقيقيّ مجرّد وهم، في حين أن ابتكار بورخس لحالمٍ برأني يصبح شيئاً حقيقيّاً.

وماذا يحدث لديكارت الحالم؟ يستخدمه بورخس في استعارة مطوّلة ليصف حالماً يحلم بفلاسفةٍ وآلهةٍ ووحوشٍ أزليةٍ. هل بمقدورنا أن

twitter @baghdad_library

نعـــرف عـنه المزيد؟ نريد ذلك. بل يجب علـينا أن نعـــرف. ولـكن من المســتـحــيل أن يقـع بورخس الآخـر فـي فـعل تجلٍّ يعـرّف لنا من خـلاله الحقيقة. بورخس الفيلسوف، مثل بورخس الفنان، لن يسمح بلحظة وحي غير ملائمة. في دأبه، طوال حياته، في سبيل الكلمة، مفتاح الكون ولغزه، لايهبط بورخس أبداً إلى درك الشرح، أو إلى وصولٍ غير متوقّع. سوف لن يصل ولن يريح قلوعه أبداً في إيشاكة. لن يفسد الغموض الضروري بادعاءات كاذبة عن الحقيقة.

وعلى الرغم من أنّ بورخس لن يطرح بديهيات ثابتة، لكنه يعترف بأنه عايش على غرار شخصياته مالا يمكن التعبير عنه: "في معظم الأحيان، في حالات النشوة التي لايمكن التعبير عنها إلاّ من خلال الإستعارات، يصعب الإفصاح عن التجربة بشكل مباشر. يجب أن تُروى من خلال الإستعارات. هذا هو السبب الذي يجعل العرفانيين دائماً يلجأون إلى الإستعارات نفسها. يمكن أن تكون الإستعارة مفهومية أو يمكن أن يتحدث العرفانيّ مستخدماً لغة الكرمة أو الزهور أو الحبّ الشهوانيّ. حتى الغنوصيون الفرس، أي الصوفيون، يفعلون ذلك."

في سعيه الشخصي للخلاص، يعترف بورخس بأنّ هذه التجربة حول حيادية الآخر الكلية حدثت مرتين خلال حياته. كنتُ أتحدثُ إليه عن التجربة العرفانية للقديس يوحنا المعمدان عندما اعترف لي قائلاً: "خلال حياتي كابدتُ تجربتين عرفانيتين ولاأستطيع أن أتحدث عنهما لأنّ ماحدث لايجوز وضعه في كلمات، بما أنّ الكلمات، على أية حال، ترمز لتجربة مشتركة. ... مرتان في حياتي انتابني شعور معيّن. ... كان شعوراً مدهشاً، ومذهلاً. شعور غمرني واجتاح كياني. كنتُ أشعرُ بأنني

لاأعيش في الزمن بل خارجه. لا أعلم كم استمرَّ هذا الشعور، بما أنني كنتُ خارج الزمن".

في هاتين اللحظتين عندما يصل بورخس إلى "الزمن الآخر" يكون التواصل بين العاديّ والخارق ضعيفاً. إنَّ الطبيعة الإستثنائية للتأمّل العرفاني تستفيد أكثر من غياب الذاكرة الواضحة في تلك الحالة أكثر مما تستفيد من الإفتقار لمصطلحات وصفية مناسبة لنقل الرؤية. من هنا فكرة النسيان واستحالة التعبير المترافقة مع التحوّل العرفاني.

يقول بورخس إنّ تلك لحظة النشوة- عندما يكون المرء حقاً في مكانٍ آخر وزمانٍ آخر، وفي كينونةٍ أخرى؛ عندما يكون هو الآخر- ليست تجربة مشتركة. الأحلام، وأيّ دخول إلى منطقة اللاوعي، حالات من الصعب القبض عليها بواسطة آلات تسجيل. لكنه بالتأكيد يجد الإستعارات. إنّ انبهاره بالنشوة وعدم ارتياحه للأبدية يعبّر عنها أفضل تعبير في بضعة أبيات من الشعر. إذ بعدما يرتحل عبر أحلامه بحثاً عن أماكن ومنحوتات قديمة استحضرتها إلى ذهنه أديرة نيويورك- متاهة كنوسوس، أمريكا كما رسمها ليف إريكسون، الفرس الأبيض في زمنه المتوقّف- يشعر بورخس بالإعياء قليلاً وينتابه الشك حيال مغامرات كهذه:

أشعر بالغثيان قليلاً.
لستُ معتاداً على الأزل.

يأخذنا المتكلم إلى حافة الحدس الشعري. وعلى الرغم من أنَ الحدس يكمن في ذلك الحضور الوشيك للوحي الذي لايأتي، إلاّ أنَّ

twitter @baghdad_library

الشاعر يختبر الشروط الرئيسية للإلهام: زمن مخادع وأبدية مقلقة. يصل بورخس إلى الطبيعة المخادعة للزمن من خلال بيركلي وهيوم وشوبنهور، غير أنّ جذور تلاشي الزمن والأبدية المسكِرة تكمن في البوذية. الأبدية، بمعنى راهنية الزمن بكليته، تنزلق إلى اللاشيء. إنه يستخدم مبادئ بوذية كتلك الموجودة في المخطوطة البوذية التي تعود إلى القرن الخامس عشر بعنوان (Visuddhimagga طريق الصفاء) حيث يدحض التواتر الآني للزمن، يدحض الأنا، ويدحض وجودَه نفسَه ووجود الكون الفلكي. في (طريق الصفاء) يتمّ اختصار التواتر الآني للزمن، كما تُختصر الحياة، إلى برهة خاطفة لانهائية، "مثل دولاب عربة يدور أثناء الدوران عند نقطة واحدة من الإطار، ويتوقّف أثناء التوقّف عند نقطة واحدة فحسب". يسوق بورخس هذه الإستعارة البوذية في مقال له بعنوان (دحض جديد للزمن). لكنه ينتقل في النهاية عائداً من التأمّل والبلاغة إلى مصيره المحتوم، الذي يعني تجنّب الأبدية والعيش في الزمن. يعترف في السطور الأخيرة من نفس المقال بأنّ "الزمن هو المادة التي صُنعتُ منها. الزمن نهرٌ يحملني بعيداً، لكنني أنا النهر. إنه النمر الذي يحطّمني، لكنني أنا النمر، هو النار التي تلتهمني، لكنني أنا النار. العالم، لسوء الحظّ حقيقيّ. وأنا، لسوء الحظّ، بورخس."

ربما كان من حسن حظنا أنّ بورخس، بينما يغازل الغنوصيّ الدنيوي، أراد أن يقبض على حدوسات سرابية من أجل أن يستقصي النسيان خارج الزمن، وحسبه أن يعود من رحلته ببضع استعاراتٍ وكناياتٍ موحية. يعود إلى واجبه اليوميّ في أن يكون نفسه، بورخس، في النهر، ذاك النهر المدمّر، لكنه الحيّ، للزمن.

ربما يكون احر بورخس نخاطبه هو الأول: بورخس الذي يتأمل ذاته ككاتب، الصوت الذي يتحدّث إلينا عالياً في قصائده. إنه يظهر في قصيدة أخيرة له بعنوان (ذاك الواحد). وفي النصّ يظهر بورخس على هيئة غريب متخيّل، مثل شخصية أونامونو في رواياته. في البيت الأخير نرى الشاعر منهمكاً في عمله، مستسلماً لأشعاره، وبما أنّ الجمهور غير موجود، فإنه يتحدّث إلى كلّ واحد منا بشكل شخصيّ.

بعد مضي سنواتٍ عديدة فإنّ الشاعر يبدو مريضاً ومتعباً من كونه بورخس، متعباً من النظر إلى الناس الذين ينظرون إليه. إنه واجبه، على أية حال، ورثه عن والده كتعويضٍ لعدم لياقته للخدمة العسكرية، واجبه في أن يصبح مبتكراً. لقد مضى عليه الآن أكثر من ستة عقود كمبتكر، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة ولم يجد نفسَه. لكنه يعرف بشكل جيد تماماً عادات ذاك المبتكر الثانوي من النصف الجنوبي للكرة الأرضية. وكما دائماً فإنه أفضل متآمر يتجسّس على نفسه ويوبّخها. ها هنا، يريد أن يتحدث عن نفسه "كآخر" في قصيدة (ذاك الواحد) وهو يستسلم لمهنته:

آه أيتها الأيام المكرّسة
لمهمةٍ عقيمة في نسيان حياة
شاعرٍ ثانوي من النصف الجنوبي
للأرض، ممن منحته النجوم والقدر
جسداً لم يترك ابناً خلفه
وعمىً هو بمثابة سجنٍ وشبه ظلّ،

twitter @baghdad_library

و شيخوخة، هي فجر الموت،
وشهرة، لايستحقها أحد،
وعادة ابتكار بحورٍ شعرية
والحبّ العتيق للموسوعات
وللخرائط الدقيقة المتشابكة
وللعاج المصقول، وحنين لاعلاج له
للغة اللاتينية والذكريات المتشظية
عن أدنبرة وجنيف
ونسيان التواريخ والأسماء،
وطقوس الشرق التي لايشاطره بها
سكان الشرق المتنوّعين،
ونواقيس الأمل المرتجفة
وظلم أصول الكلمات
وحديد المقاطع الساكسونية
والقمر، الذي يباغتنا دائماً،
وتلك العادة المشؤومة، بوينس آيرس،
ومذاق العنب والماء
والكاكو، ذات الحلاوة المكسيكية،
وبعض النقود وساعة رملية
ومساء يشبه مساءات كثيرة
يستسلم فيها لهذه الأشعار.

إنّ بورخس الذي عرفته كان أعمى. لكنه كان قد فتح كلّ نوافذ

العالم لكي يظهر صباح ضوئه المبتكَر. كان العمى هدية منتصف العمر، والذي تصادف مع تعيينه أميناً للمكتبة الوطنية التي تحوي على أكثر من ٨٠٠٠٠كتاب. وكما فعل ميلتون في قصيدته (عن عماه) يبثّ بورخس شكواه في قصيدته (في مديح ظلّ) معبّراً عن شفافية خلوته وحاجته لأن يملأها بشعره. ولكن، وعلى غرار ميلتون، ثمة اعتراف مشابه بالعمى كهبة حقيقية:

كان دائماً ثمة أشياء كثيرة في حياتي،
ديموقريطس من أبديرا فقأ عينيه من أجل أن يفكّر،
والزمن كان دائماً ديموقريطسي الخاص.

شبهُ الظلِّ هذا بطيءٌ ولايسبّب أيّ ألم
إنه ينزلق فوق سفحٍ ناعم
ويبدو كالأزل.

عندما كان لبورخس عينان تريان، غالباً ماكان يكتب عن شوارع ضبابية مكفهرة، وعن سحب حمراء غامضة وحضوراتٍ لامرئية. وعندما اكفهرّت عيناه، وضع الضبابية جانباً وأعطانا رؤيته الواضحة للحاضر، وبانوراما لماضٍ حقيقي، تاريخي ومتخيل، وأورثنا حفرياتٍ حادّةً لليالٍ عديدة من لياليه: الظلام أمام عينيه الميتتين والليل الداخليّ للمتاهة. في واحدة من قصائده الأخيرة بعنوان "ليل" يحثنا بلهجة آمرة أن نتعرّف على العادة الحلوة لاكتشاف الليل:

نعيش ونكتشف، ناسين

twitter @baghdad_library

تلك العادة الحلوة لليل.
انظر إليه بإمعان. ربما كان هو الليل الأخير.

مع هذه الأبيات عن الرجل الأعمى قلتُ ما لن أقوله لاحقاً: أقصد تطوير خطاب تحليلي نقدي عن حياته وقصائده. من الآن فصاعداً سوف يستولي علينا شخصُ بورخس. البقية هي مذكّرات. وبما أنَ بورخس، في أكثر كلماته بقاءً في الذاكرة، يميل إلى تكرار هواجسه، فإنني في مطارح عدّة أعرض لحادثة أو نقاش ضمن سياقات مختلفة. فأن أقوم بتحرير مستويات حديثه وإعادة صياغتها سيكون هذا أقلّ وفاءً لبورخس. كما أنني تركتُ الذاكرة على سجيتها تملي عليّ شكلَ المذكّرات، وهكذا، وتماشياً مع آليات الذاكرة، فإنني لم أعمد إلى تنظيم ما سيأتي ضمن خطّ زمني صارم.

في الأرجنتين

twitter @baghdad_library

مساءٌ عاديٌ في بوينس آيرس

"هل تعلم ، كان دانتي مخطئاً بخصوص الجحيم ، ومخطئاً بخصوص الكلمات المنقوشة على بوابة جهنّم في الأبيات الأولى من الكانتو الثالث : (اهجر كلّ أمل أنت أيهـــــا الداخل) (Lasciate Ogni Speran za, Voi Ch'entrrate) فالجحيم لا يبدأ هناك . ولا يوجد مدخل للآخرة . يبدأ الجحيم هنا ، وهنا يجب علينا أن نهجر كلّ أمل . إذن ، لدينا مجرد احتمال أو أمل ، ببعض السعادة المؤقّتة ."

كان بورخس ينتظر وراء الباب بجانب الصورة الزيتية لوالدته. إنه يرتدي بذته السوداء المعتادة، وقد بدا أنيقاً. فردة واحدة من حذائه مربوطة. ترنّح قليلاً دون عكازه. دكنةُ ثيابه خلقت مفارقةً واضحة مع شحوبه. وجهه المائل إلى اليمين والأعلى ابتسم كوجه طفل ولكن ببعض القسوة، وعيناه العمياوان شعّتا بوضوح. أخذني من ذراعي وقال: "تعال، واجلس على الأريكة." ووجدتُ نفسي أقوده، ومنقاداً معه، عبر الغرفة باتجاه الأريكة تحت النافذة. وما إن جلست بجانب رفوف مكتبته حتى رحتُ أفكر بالعديد ممن كانوا يسكنون تلك الشقة تحت اسم وعقل وجسد خورخي لويس بورخس. كانت المكتبة- فكرته عن الفردوس أثناء

twitter @baghdad_library

الطفولة- تحوي كتب والده الإنكليزية. غرفة والدته في أعلى البهو تمثل الحديقة الإسبانية لفاتحي القرن السابع عشر وجنرالات القرن السادس عشر الذين كانوا يحاربون فوق السهول خصومهم الديكتاتوريين. وكان هناك بورخس نفسه، مرتدياً ثيابه الرسمية كرجل أدب، وابنٍ لبروفسور في علم النفس نصف أعمى، يكسب عيشه من كدح قلمه. ذاك القلم كان دائماً في مكانٍ آخر، وليس فقط في مكتبة بابل أو حيطان وقصر "شيه هوانغ"، بل في حارات بوينس آيرس الأخرى أيضاً. في باليرمو مكان الطفولة حيث التانغو الذي ولد في بيوت الدعارة ومارسه رقصاً في الشوارع قطاع الطرق، أو رجلان تشابكا بالأيدي استعداداً لألعابهما الجنسية في الداخل. وكان يعني لبورخس فانتازيا مثقف مراهق وعصيان مبارزة بالسكاكين، فانتازيا القابالة وسهول البامبا المعشوشبة. كلّ هذا كان يتملّكه بنفس الطاقة والدقة.

ذات يوم وبعد رحلة إلى الصين، أعطيتُ بورخس سكيناً كنتُ قد حصلتُ عليها في الفلبين من مدينة ميناندو في الجنوب. كانت سكيناً إسلامية معقوفة موضوعة في غمدها، وقطعةً جميلة مزينة بحليٍ رخيصة عتيقة. كانت السكين بالنسبة له، كالفلبين، ترمز للعديد من اهتماماته: آسيا، الإسلام، وأمريكا اللاتينية. لكنها كانت سكيناً، وبالتالي كانت أيضاً بوينس آيرس. عندما ناولته إياها، كان لسان حاله يقول هذه هي أداة الرجولة التي يمكن أن يحملها "رجل كريبولي مطارد من قبل العدالة" يتعقّب بصيصَ لحنٍ لغيتار في ريح شبه منهكة، قادماً من منازل خاوية، قاصداً عدواً ستجلب له شفرةُ سكّينه الصمت. في تلك الأمكنة من جيران طفولته، ومن خياله لاحقاً، كانت حتى شجرة الكمثرى الشوكية

ظاهرة منذرة حيث بدت وكأنها غرساً ينمو في أرضٍ كابوسية.

أخذ بورخس السكّين وأخرجها من غمدها. وأمام دهشتنا جميعاً، أمسك هذا الرجل العجوز في الثمانين السكين من قبضتها ورماها نحو الأمام.

"هل تعرف ما يكون هذا؟"

صديقي ميغيل أوفيدو من البيرو كان يجلس معنا- كنا نجلس في مطعم- وحاول أوفيدو أن يجيب مغمغماً والدهشة ليست خافية عليه: "أعتقد ..."

"إنها رمية القاتل، رمية القاتل الحقيقية."

في تلك الظهيرة من أيلول عام ١٩٧٥ ، وكانت الأولى مع بورخس في شقته في بوينس آيرس، أجلسني الشاعر على أريكته. كان ربيع أمريكا الجنوبية يندفع عبر النافذة من خلفنا. لم نكن في ذاكرته عن الأحياء الفقيرة "ودعسات قدميه المتسكّعة المنتشية التي لاتنتهي،" بل بالقرب من مكتبته، حيث حائط من الكتب ومئات المجلدات التي يعود معظمها إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي كتبُ لقراءاته، وخاصةً إعادة قراءاته. "أمضيت حياتي جاثماً قرب رفوف الكتب ومنقباً بين الكتب."

لم أقل شيئاً، ورحت أنظر حولي فيما راحت عيناه تتجولان بين صفوف عناوين لاتُرى.

ودون مناسبة أسرّ لي ساهماً: "ألا توافق بأن الإنكليزية قد تطورت باتجاه لغةٍ أحادية المقطع؟"

"الصينية جوهرياً لغة أحادية المقطع،" أجبتُه، سعيداً بالحديث عن

twitter @baghdad_library

اللغة،"لكنها تتجه الآن وجهةً أخرى، باتجاه تعددية المقطع، بما انّ العلم والبيروقراطيات الحديثة والأيديولوجية الماركسية لاتكترث كثيراً للوضوح الجميل للكلمات ذات المقطع الواحد."

"خذ كلمة (laugh يضحك)،" قال بورخس. "في الإنكليزية القديمة كان لها فونيمان اثنان، hlehhan أو hliehhan واثنان في الألمانية العالية القديمة lachen. مع ذلك هناك مقطع واحد في الإنكليزية الحديثة هو laugh هذا أمرٌ فريد، كلاّ؟"

وبما أنه أعمى ومعتاد على المجهول، انغمس بورخس في الحديث عن اللغة والفلسفة دون أي تودّد أوليّ على الإطلاق. ولماذا ينتظر؟ لماذا يضيع وقته في الهراء إذا كانت متعة الموسوعات واللامرئي تحيط بنا؟ وهكذا في يومنا الأول معاً في بوينس آيرس انصرف بورخس للتذكّر، وراح يتهكّم من مواهبه ومكانته؛ تجادلنا وتضاحكنا كمتآمرين قدامى، بلاتوقف أو التقاط الأنفاس، وخططنا لمزيدٍ من الأذى والتعاون.

وفي ظهيرة مسودّة بعد بضعة أسابيع لاحقة، بدا بورخس مغروراً بشكل خاص وممتلئاً بالأوهام والمغامرات. بدأ بامتحاني. في ذاك اليوم بالذات كنتُ ميالاً للتأمّل، وربما للكآبة، ولا أرقى إلى ذكائه الحادّ. لكنني كنت كالمعتاد أتماشى مع ألعابه، وإذا حدث وأظهر تواضعاً مزيفاً، لم أكن أستطيع إخراجه من مزاجه بمجرد الموافقة على امتهانه لذاته. باختصار كان يحبّ المزاح.

"هل تعلم، لستُ بذاك الكاتب على الإطلاق. لا مخيلة،" قال. "لاأستطيع أن أبتكر شخصيات. ثمة شخصية واحدة، هي أنا، وربما فيونس، لكنه هو أيضاً أنا. لكنني لاأستطيع أن أفعل شيئاً إذا كانوا

يخطئون الظنَّ بي. هم يريدون أن يخطئوا الظن بي، على الرغم من أنني لاأعلم لماذا، لكنني أعتقد بأنني مغتبط بأخطائهم. لكنهم مازالوا بعيدين عن الصحة في أحكامهم."

"عليك أن تخفي سرَّ دونيتكَ تحت قبّعتك."

"لوكنتُ أرتدي قبّعة لفعلت. وعليَّ أن أرتدي قبعة لكي أخفي صلع رأسي الجزئي."

"وماذا عن إخفاء أنفك. ؟"

"أنفي. أوه، لقد لاحظتَ ذلك أيضاً. إنه مجرد قطعة من اللحم الملون. إنه حقاً ملصق مخيف."

"سيكون كويفدو سعيداً لو أتيح له استخدامه كنموذج في إحدى هجائياته، ومن أجل قصيدة انتقامية خبيثة."

"هل تعتقد أن أنفي يستحقّ أن يلفت انتباه فرانسيسكو دي كويفدو ؟"

"لا، ولكن ربما نستطيع أن نحشرك هناك مع مومساته وكهنته الموبقين، أو مع أنف غنوغورا الغليظ الذي قال كويفدو فيه بأنه جاء نتيجةً "لكونه حاخاماً لليهود."

وراح بورخس بعد ذلك يتلو الأبيات التي أشرتُ إليها:

لماذا تريد أن تهجو اللسان الإغريقي
إذا كنتَ أنت مجرد حاخام لليهود،
وهذه حقيقة لايستطيع أنفك أن ينكرَها؟

twitter @baghdad_library

شاعر العصر الإسباني الذهبي وروائي التشرّد فرانسيسكو دي كويفدو،- صادم، متمرّد على كلّ المهن والبشر، سيّد في فنه، ميتافيزيقي بشكل عميق، متشائم، بذيء وممتع بفجور واضح، متهكّم وعاشق يائس في آنٍ واحد- كان المؤلف الأكثر استحوذاً على قراءاتي من غيره في تلك الأشهر. كان يهجو باستمرار خصمه، الشاعر الباروكي السريالي لويس دي غونغورا لأنه كان يهودياً متنكراً- تهمة تنطبق بشكل أدق على معاصريه الكتاب من العصر الذهبي من مثل حنا المعمدان، القديسة تيريسا دي يسوع، وفراي لويس دي ليون، وجميعهم جاؤوا من خلفيات يهودية مرتدة.

تململَ بورخس قليلاً، عدّل من جلسته وابتسم محدقاً تماماً بي، ومن خلالي إلى الفضاء خلفي. ومن ثمّ استأنف بشكل وعظي تقريباً: "الآن، تعلم أنّ كويفدو هاجمَ أنفَ غونغورا لأنه في تلك الفترة من المرتدين حديثاً عن اليهودية، والمرتدين قسراً، كانت تلك طريقته في اتهام كاهن الكنيسة هذا في كونه يهودياً. كان يحاول أن يسخر من الشاعر، وأن يطعن في شرفه بقوله إنه يحمل في عروقه لطخة الدم اليهودي. طوال حياتي حاولت أن أكون يهودياً، وأن أكون جديراً بالقابالا، وبأولئك الذين أضافوا أعداد سفر التكوين لكي يجدوا الكلمة، الذين رأوا الخلق ذاته كمجرّد رمزٍ للكلمة الموجودة قبل الخلق وقبل الزمن. حتى وإن لم أكن قد حاولتُ أن أكون يهودياً، فأنا كذلك من طرف والدتي، أسيفدو، وهو اسم برتغالي توراتي من سالونيكا، وأنا أيضاً من ميناء باجو دي لوس أريوس حيث في عام ١٧٢٨ جاء مزراع من كاتالينا هو دون بيدرو دي أسيفدو ورسا في الأرجنتين. منذ سنوات كتبت مجلة (كريسول) عن "

سبي اليهودي، المخفيَ بخبث." اتهموني بشكل صحيح. أنا يهودي. بما وجد المنقبون أنَ أسلافي هم من قبائل البحر الأسود الحمريّين."

"بورخس، أغفر لك أنك من نسل اليهود. أنا يهودي ولكن باسمٍ مرتدَ، أنف صريح، ليس صغيراً بما يكفي لكي أكون تارتارياً بل عادي حداً وبالتالي هو أنف متواضع لن يجتاز امتحان كويفدو وعينه الثاقبة. وبالتالي أنا أفشل كيهودي. أنا لستُ النمط الصحيح، مع ذلك أشعر بالقرب من شخصياتك المفضّلة، سبينوزا، هينه، وكافكا. كلانا، أنت وأنا، في نفس الحقيبة. أتذكّر جيداً مقالتك (أنا، يهودي) حيث أنك تقول بأنَ الميثولوجيا تأتي من الماضي، وليس من المستقبل، وأنَ الماضي دائماً مرتع خصب للإبتكار وبأنه- مثل الدروديين، والقمر، والموت، والإسبوع الماضي- قابلٌ للإغناء، بواسطة الجهل."

"نحن دائماً نخترع الماضي. وهل نستطيع أن نفعل شيئاً آخر مادمنا نحن من صُلب الماضي- نصفنا اختراع والنصف والآخر ذاكرة.؟" ثمَ راح يبدّل وجهةَ الحديث: "بالمناسبة، هل تعرف كيف يخصي الرعاة الحمقى في الأرغواي الثيران؟"

"كيف يخصي الرعاة الحمقى في الأرغواي الثيران؟" قلتُ، مندهشاً.

"بأسنانهم."

"إنّك تسبب لي الغثيان."

رفع النبيل العجوز ساقه ووضعها بأناةٍ فوق ركبته. "هذا الحديث يجعلك تشعر بعدم الإرتياح، أليس كذلك؟ هيّا، تناول بعض الشاي. هل بإمكانك أن تسلسل لي نسب كلمة (bonfire المشعَلَة)؟"

twitter @baghdad_library

"هل هذا فخٌ آخر؟"

"المشعلة، المشاعل السكوتلاندية."

"أظن أنها أتت من bon feu، النار الجيدة. فرنسية."

"كلاّ" قال بزهوّ، "إنها انكليزية وسيطة."

"أنا آسف. إذن ليس لدي أية فكرة."

"أنت محق بخصوص النار، لكنها ليست ناراً نورماندية. إنها جاءت من كلمة banefyre، نار العظام الساكسونية. كان الرعاة يتحلقون على الهضاب ويضرمون المشعلات المكوّنة من عظام الأغنام وعظام الأبقار وذلك طلباً للدفء. تعال، تناول بعض الشاي." كرّر طلبه.

نهض بورخس، وبدا واهناً. أخذ يدي ومشينا معاً باتجاه الطاولة المجهزة بالبسكويت مع إبريق شاي فوق قماشها. عندما جلسنا طلب مني أن أقرأ مقطعين من قصيدة له كنت قد ترجمتهما إلى الإنكليزية. مرةً ثانية أمالَ برأسه يميناً وإلى الأعلى، وافترّ ثغره عن ابتسامة عريضة مليئة بالأسنان. في تلك اللحظات بدت أسنانه وكأنها تستبدل عينيه.

"ابدأ بالقراءة." قال. قرأتُ (مفتاح في سالونيكا) بصوتٍ عالٍ:

أباربانل، فارياس أو بينيدو،
فروا من اسبانيا جراء عقوبة كاسحة
غير مقدسة، وحتى الآن يحتفظون
بمفتاح الباب لبيتٍ ضاع في توليدو.
من الرعب والأمل كانوا قد تحرروا أخيراً
حيث كانوا يراقبون المفتاح بينما الظهيرة تتبعثر.

مصكوكة في برونزه أيام أخرى، أيادٍ بعيدة،
بهاء متعب ومعاناة هادئة.
وبعدما يتحول بابه إلى غبار، يصبح برونزه
دليلاً للشتات والريح،
مثل مفتاح معبد آخر رماه أحدهم عالياً
باتجاه الزرقة (عندما أتى الجنود الرومان
مدججين بالإنضباط والنيران المرعبة)
وتلقفته يدٌ وتوارت في السماء.

"ها أنا ذا ثانيةً مع شعبي من اليهود الإسبان في الشتات المشرقي. أحدادي يُسمَّون بينيدو وأسيفيدو. أظنّ أنني جزئياً يهودي. نحن جميعنا من الإغريق والعبرانيين الغربيين. هاتان الأمتان الأساسيتان اليونان واسرائيل. روما ليست سوى تحصيل حاصل- مجرد امتداد. أما بالنسبة لهذه القصائد،" استأنف حديثه بتهكّم نموذجي، "فهي لاتستحق الكثير في الإسبانية- هي مجرد سوناتات من الطراز القديم- وأنت أخذتها وحولّتها إلى سوناتات انكليزية جيدة. إنها اللغة الإنكليزية التي ستخدمها ميلتون وهوبكينز والتي هي ببساطة أفضل من هذا النوع من المحاولات."

لمعت عيناه الميتتان (لنستشهد بإحدى قصائده) وامتلأ وجهه بالحيوية.

"لن تأخذ فلساً واحداً مني لقاء مجاملتك،" أجبتُ. "إنّك تشجَعني بحيث أقوم بامتداحك عندما تبدأ إحدى رحلاتك "المتواضعة" المعنونة "دعونا نبدأ بالنميمة على بورخس الكاتب".

twitter @baghdad_library

"أرى أنك بدأت تكتشف خدعي، لكنني آمل بأنني أحرّضك إلى المزيد. أعرف محاولاتي الإسبانية بشكل جيد. وأعرف حدود سوناتاتي الواضحة وارتباطها بالحديث العادي. كان لوغنس باروكياً. أما أنا فواضح."

"سوناتاتك العادية كان يجب أن لاتُطبع أبداً، لكن لديّ بعض الأشياء التي أريد أن أقولها حولها على أية حال."

"حسناً، تكلّم. أظنّ أنك تريدني أن أدّعي بأنها لي. كلّي آذانٌ صاغية."

"سوناتاتك اللاإسبانية هذه هي بشكل تام وتقليدي اسبانية، رغم أنها ليست موزّعة وفقاً للنمط البتراركي بل الشكسبيري. أبياتك هذه مزدحمة جداً لدرجة أنه يمكن قراءتها كحديث شفوي مسموع. والشكل يكاد يكون تقريباً لامرئياً. الشكل يختفي. إنه على شكل ضربة الريشة. إنها حكايات ترويها على شكل سوناتات. هذا هو الأمر. لقد جاملتك الآن، لكنني أتراجع عن كلّ هذا."

"السوناتات الجيدة يجب أن تكون لامرئية،" أجاب بإصرار. "يجب أن نشعر الشكل، لكن يجب أن يكون لامرئياً دائماً. الحقيقة هي أنني أستخدم قوافٍ بسيطة في الإسبانية، قواف واضحة يعرفها الجميع. ومهما يكن الأمر، هنا في الإرجنتين لا أحد يقرأ الشعر لذلك أنا حرّ في أن أفعل ما أشاء."

"أنت بالتأكيد حرّ. لقد فعلت الكثير مما تريده، وبطريقتك الخاصة، لدرجة أنه لا أحد يعرف من أنت. أحياناً أتساءل مندهشاً: هل أنت أكثر الكتّاب المعاصرين حداثةً وتجريبيةً أم الأكثرهم انطواءً على المفارقة؟ أو

الإثنان معاً؟ هل أنت تقرض الشعر أم النثر؟ في استهلالك لنصّك (في مدبح ظلّ) تقول إنك لاتفرّق بينهما. ..."

"كلاّ" قال مقاطعاً، "أنا لاأفرّق بين شعري ونثري، غير أنّ الآخرين يفعلون."

"لكنني أعتقد بأنك تميّز بين قصائدك وبين نثرك. ليس تماماً في الشكل بل في الصوت. عندما تكتب قصائد فأنت لست كلّ هؤلاء الناس في القصص والمقالات، وكلّ هؤلاء البورخيسيين البعيدين الذين لاتستطيع حصرهم، وأنا أفضّل بورخس الشخصي في القصائد، بورخس الذي يلعب بالتاريخ أو الزمن أو الذي يغني صوراً من سبينوزا وسويدنبرغ، أو من ذاتك، بعاطفة جياشة ليست موجودة دائماً في قصصك."

"إذن أنت لاتحتقر القصائد؟"

"فقط في كلّ الأحيان."

"تعني أنه يوجد فيها شيء يستحق الإهتمام. بارنستون، ربما انجرفت بعيداً. بالتأكيد أنت مخدوع. لا أستطيع أن أسجّل كلّ الأخطاء الموجودة فيها. غير أن الخداع ليس سيئاً. ألونسو كويجانو انخدع بشكل ساحرٍ، انخدع بشكل مقصود في كتابين طويلين له. أنا متيّم بهذين الحالمين، ألونسو كويجانو ومترجمه ميغيل دي سرفانتس."

"أجل. أعتقد أنني مخدوع بقصائدك. ربما كانت مجرد طواحين هوائية عارية ومنهارة. كثيرٌ من الريح ولا إبحار."

"أصدقائي يقولون بأن القصائد ليست بتلك الجيدة. إنهم مخلصون، ونواياهم حسنة. هم يريدون مساعدتي. يقولون بأنه يجب أن أكتب المزيد

twitter @baghdad_library

من القصص وأن لاأضيّع وقتي في هذه الأشعار. على أية حال، يجب أن أقول لك بأني أفكّر بنفسي أولاً كشاعر."

"أنت وسرفانتس، كلاكما تفكران بأنفسكما كشاعرين أولاً، غير أنّ ميغيل دي سرفانتس لم يكن حقاً على صواب بما أنه لم يكن شاعراً فذاً. تذكّر كيف أنه في (كيخوته) يورد المقاطع الرعوية ذات النفس البلاغي الطويل، (الغالاتيا)، وكانت هذه من القراءات الفانتازية المثيرة التي ذهبت بعقل ألونسو كويجانو؟"

"(الغالاتيا) سوف تذهب بعقلي أنا أيضاً لو أنني قرأتها." ابتسم وهو يهزّ رأسه. "كان سرفانتس شاعراً تقليدياً مملاً. لكنه كتبَ كتابَ الحالم بإطلاق."

"لقد أصبحتَ الحالم، مع أنك لست مجنوناً بعد."

"الحلم أصبح عادتي." قال بصوت رزين. "بل يجب أن أقول إن الحلم مهنتي. أجل، أعتقد بأني لستُ مجنوناً. على الأقل لستُ مجنوناً على طريقة ألونسو كويجانو الرائعة. ولكن لماذا لا نكون مجانين مثل كويجانو، المؤلف الحقيقي ل(كيخوته)؟ لايمكن للمرء أن يفعل أسوء من أن يكون الشخصية النبيلة الحمقاء التي انتهى إليها. هل تأتي معي لزيارة صديق في (ناسيون)؟"

أخذني بورخس من ذراعي وخرجنا معاً باتجاه المصعد الذي يبعد حوالي عشر خطوات عن بابه. خطونا داخل الصندوق المعدني الذي انطلق بكامل سرعته البطيئة. الرحلة إلى الأسفل كانت أزلاً مؤقتاً حيث بدا الفضاء اللامرئي وحده الذي يتحرك. وصلنا أخيراً، وعدنا إلى الزمن، وحالاً صرنا في الشارع وفي الطريق إلى مكاتب (ناسيون) وهي جريدة رئيسية كان يحمل قصيدة إلى محررها الأدبي.

أمرٌ خطير أن تقود بورخس عبر شوارع بوينس آيرس، على الأقل بالنسبة لي. ربما كنت مهملاً، فعلى الرغم من أنني كنت أركز انتباهي على كل الأمكنة التي مشيناها، لكن ذلك لم يكن سهلاً. لم يترك بورخس حوارنا يبرد للحظة، حتى ونحن في حمأة شارع مكتظ والباصات الضخمة في بوينس آيرس تتجه نحونا. كان بورخس محقاً تماماً بخصوص المحادثة والقوى المتجاذبة. كان عقله مركزاً على الأمور الجوهرية فقط: تبادل الكلمات والأفكار والمشاعر. بقية العالم لم يكن ليراها، أو لم يكن ليكترث لوجودها (إلاّ عندما يريد ذلك- ولم يكن عماه عائقاً في طريق رؤيته.) كان واثقاً تماماً أنَ هذه القوى الأخرى سوف تتكفّل بنفسها. وباستثناء، تلك الحادثة التي وقعت له في عام ١٩٣٨ على الدرج والتي تركته قريباً من الموت (وحتى هذه الحادثة قادته إلى كتابة قصة بعنوان "الجنوب") أمضى بورخس حياته مسلحاً بمناعة قوية ضدّ الحوادث. لطالما صعقني حظّه وأنا أتذكر كم من الحافلات الطائشة استقلّها، جالساً في مقعد الموت، ودائماً دون حزام الأمان، بما في ذلك ليلة أمضيناها معاً في شيكاغو عندما كنا غارقين تماماً في الحديث لدرجة أنني كنت المسؤول، أعترف، عن عدم مراقبة الطريق نهائياً. لم يقع أيّ حادث، لكنني مازلت أتساءل فيما إذا كنتُ حقاً أقلّ عمىً منه في ذلك المساء المضيء.

كان بورخس يعرف الشوارع بشكل جيد، ويعرف متى وكيف يوزع خطواته. وفيما وراء الستّ أو السبع إنشات من الرؤية السيئة في عينه اليمنى كانت تقبع دائرة أوسع من الأصفر السرابي، وهو أول لون كان يتذكّره منذ الطفولة. من ذاك الأصفر السرابي كان قادراً على ابتداع

twitter @baghdad_library

خطوات ومنعطفات جدّ هامة. كان القسم الأوسع من الرصيف، على أية حال، مهدّماً وكانت ثمة شقوق في كلّ عشر أو خمسة عشر قدماً. من قصيدة له بعنوان (الأعمى) يسجّل بورخس أعمق تأملاته، ليس فقط عن منغّصات الشارع بل وعن الحلم -السجن الذي هو حالة الخلوة التي يعيشها الأعمى، ومن خلال شعره يحدّد خطوط ذاك العالم الذي لا شمس فيه:

العالم المتنوع مسلوب.
مضت زحمة الوجوه
(التي لم تكن ما كانت عليه من قبل)
الشوارع القريبة بعيدةٌ اليوم.
وأكثر من ذلك الأزرق المجوف الذي
كان عميقاً البارحة.
ما يُترك في الكتب تلك الأشياء
التي تبقى في الذاكرة- أشكال النسيان
التي تحتفظ بالمنهج لكنها تفكك المعنى،
كاشفةً عن عناوين فحسب. لكن الشارع يخفي
انهدامات وحفراً كالكمائن. وكل خطوة نخطوها
يمكن أن تكون سقطة. أنا بطيء جداً،
سجين وقت كالحلم، بلا طريق
أُقاد إلى الفجر أو الشمس الغاربة.
إنه الليل، ومامن أحد هنا. في أشعاري
يجب أن ابتكر كوني المريض.

"الأرصفة مهدّمة مثل هذا البلد، مثل الجمهورية الإرجنتينية،" قال.

كان الناس يمرون بنا ويقفون جانباً بينما كنا نسير ببطء. حتى أنّ خمسةً من رجال الشرطة الذين تجمهروا عند منتصف الرصيف تردّدوا للحظة، اضطربوا، وأفسحوا لنا طريقاً عندما اقتربنا منهم. كان رائعاً أن نراهم يحنون قاماتهم للكاتب العجوز الذي كان رسمياً معارضاً لقادتهم في الحزب البيروني. في كلّ دقيقة أو أكثر كان يأتي أحدهم ويصافح يد بورخس. أسرّ لي يوماً أنّه استأجر كلّ هؤلاء المعجبين وهم مايفتأون أنفسهم يدورون خلف المنعطف ويأتون إليه.

"أفعلُ ما فعله بيرون، استأجر كل هؤلاء البشر لكي يأتوا إلى المسيرات ويهتفوا: بيرون ! بيرون! بيرون!."

أحد الكهول اقترب وصافح بورخس وقال إنه سعيد أنه مايزال يوجد على الأقل ارجنتيني واحد شجاع بما فيه الكفاية لكي يتحدث في السياسة معرّضاً مسيرته وحياته للخطر. كان بورخس يتجه إلى كلّ هذه الوجوه المجهولة واللامرئية بانتباهٍ كامل ويهديهم ابتسامة فيرناندل، ويشدّ على أياديهم بيديه الإثنتين.كان يغتبط لكل هذه اللقاءات ولم يكن يشعر مطلقاً بالتعب أو الملل. وأعتقد أنه على الرغم من أنه كان يستغلّ كلّ لحظة ليست ممنوحة للصداقة من أجل الكتابة والتفكير والقراءة، فإنه كان يرحب بتلك المفاجآت، أية مفاجأة غير متوقعة، وبأنّ حالته العادية كأعمى كان لها علاقة وثيقة برغبته في أن يخرج من ذاته.

حتى في المكتبة المواجهة لرصيف منزله، مكتبة دي لا سيداد، حيث تعود أن يذهب ويملي قصائده وقصصه على صديق ألماني -أرجنتيني، اسمه أناليس فون دير ليبن، حتى وهو في حمأة تأليف وتلاوة قصائده،

twitter @baghdad_library

كان يأتي من يقاطعه من المارة. كان بمقدور الناس مشاهدته من الشارع جالساً خلف مكتبه بجانب شباك عريض يفصل المكتبة عن الرصيف. كانوا يدخلون المكتبة ويشدون على يده قائلين: "مرحباً، بورخس، أنا إدواردو". وكان بورخس يتوقف دائماً عن الكتابة، حتى وهو في منتصف الجملة، ويتجه إليهم ويسألهم عن أحوالهم وعن آخر الأخبار. وبضحكته التي لاتُقلد، والتي ربما بدأت في مكانٍ قصي وموحش، في جيوبه ربما، وتصاعدت بإيقاعات صريحة بحيث تجذب كل سامع إليها، بردّ التحية بشيء غرائبي من قبيل "مرحباً، إداوردو، وأنا بورخس." لماذا يملك المبصرون (قبل العميان) الحقّ بالتعريف عن أنفسهم علانيةً؟ كان بورخس يريد أن يسمّي نفسه أيضاً، بالرغم من أن شكله الخارجي يسمّيه للتوّ.

وكأنما في حلم، سرعان ما كان يعود إلى الكتابة والإملاء وكأنما لاأحد قاطعه من العالم العابر حوله. حتى الإبتسامة العالقة تختفي حالما يعود إلى وضعية الإبتكار والتحديق. كان بورخس يحب العمل وسط صحبة، بما أنه، كما يعلن مراراً، رجل لطيف ووحيد. بل يمكن الجزم بأن الصحبة تنعشه. والمكتبة كمكان عمل كانت لها ميزة غير موجودة في منزله: لامكالمات هاتفية. اللقاءات العامة لم تكن لتؤثّر على تركيزه.

(المؤرخ جوناثان سبينس كتب مجلده الضخم "البحث عن الصين الحديثة" في إحدى ردهات مقهى نابلس في نيوهافن، كنيتيكت. لا هاتف، لا ضغط من الخادم ليشرب قهوته بسرعة. فقط بضعة أصدقاء يحيونه. بورخس وسبنس وجدا المكان العام المزدحم مناسباً للتفكير والكتابة. وماذا يمكن أن يكون أفضل من الكتابة في مكتبة أنيقة في

إحدى ضواحي الإرجنتين أو في مقهى أنيق في أقصى الحزام الأمريكي؟

كانت المكتبة الوسط الطبيعي لبورخس، مثلما كانت المكتبة العامة- مكتبة أيام الطفولة، ومن بعدها المكتبة الصغيرة العامة التي وجد فيها أول عمل رسمي، ولاحقاً المكتبة الوطنية حيث تسيّد المكان بتواضع تام في الظلام. بيرون عزل بورخس الناشط من أول منصب له. لم يكن بذاك العمل الهامّ حيث كان محصوراً بفهرسة الكتب في قبو ماكان يسميه بورخس "المكتبة القذرة"؛ على الرغم من أنه هناك، وبينما كان يلعب دور المتغيّب، كتب قصصاً شهيرة من مثل "اليانصيب في بابل" و "الموت والبوصلة" و "والأطلال الدائرية". وقد أضفى النقاد بسخاء على شيفرات هذه القصص أهميةً عرفانية صوفية على الرغم من أنها كانت ببساطة تسجيلاتٍ لعدد الكتب والرفوف الملاصقة لكتفيه.

اليأس والسأم في المكتبة اللانهائية في قصة "مكتبة بابل" مأخوذة جزنياً من كافكا الذي جعل بورخس، أكثر من أي كاتب آخر، يتحول خلال تلك السنين إلى كتابة القصص القصيرة. أمّا بالنسبة لبؤسه فقد كان حقيقياً. بل ثمة لمسة من الدموع والوجدانية، لمسة من رثاء الذات النادر، عندما يسرد بورخس هذه الفترة في "مقالة ذاتية." (كتب المقالة بالإنكليزية وضمّنها لاحقاً كخاتمة طويلة لكتابه ألف وقصص أخرى.) "بين الحين والآخر خلال تلك السنين كنا نُكافئ نحن عمال البلدية برزمة من علب المتة لنأخذها معنا إلى البيت. أحياناً في المساء وأنا أقطع عشر منعطفات باتجاه سكة الترام، كانت عيناي تمتلئان بالدموع. هذه الهدايا من الأعلى كانت تؤكّد لي وجودي الكئيب والوضيع."

في عام ١٩٤٦ طُرد بورخس من مكتبة ميغيل كين البلدية- أو

twitter @baghdad_library

بالأحرى رُقي إلى منصب أعلى ليصبح مفتشاً للأرانب والطيور الداجنة في محاولة لإنزال إهانة أكبر بالمثقف المنشقّ. كان بورخس يؤمن بقوة بأن بيرون نازي وقد صرح بذلك علانيةً. في "مقالته الذاتية" يشرح بورخس قائلاً: "ذهبت إلى مقرّ البلدية لأكتشف ملابسات الأمر بمجمله. "انظر هنا" قلت. "من الغرابة أنه من بين كلّ هؤلاء في المكتبة يقع الخيار عليّ لاستلام هذا المنصب." "حسنٌ" أجاب الموظف، "أنت إلى جانب الحلفاء- فماذا تتوقّع؟" لم يكن لردّه جواباً، وفي اليوم التالي أرسلتُ إليهم استقالتي."

عندما سقط بيرون في عام ١٩٥٥ انتهى كابوس بورخس العام. ولقاء معارضته له عُيّن مديراً للمكتبة الوطنية. وقد رأى بورخس في هذا المنصب شرفاً مضحكاً بما أنه عندئذ كان قد أصبح أعمى. يصف أمير رودريغيس مونيغال، صديق بورخس، وكاتب سيرته الفكرية، باقتدار وسلاسة غبطةَ بورخس عندما اصطحبه في جولة عبر رمزه الذي أصبح حقيقياً، متاهته:

"أخذني بورخس من يدي وراح يتجوّل بي، مبصراً ما يكفي ليعرف كلّ كتاب يريده أين موقعه. كان يستطيع أن يفتح الكتاب على الصفحة التي يرغبها، ودون أن يزعج نفسه بالقراءة- وبواسطة مقدرة خارقة للذاكرة لايمكن أن تُقارن إلاّ بذاكرة بطله المتخيّل إرينو فيونس- يسوق مقاطع كاملة. كان يتجول عبر ردهات مدروزة بالكتب، ينعطف بسرعة عند الزوايا ويصل إلى ممرات تكون في الحقيقة لاممرنية، بل هي مجرد تصدعات في جدران الكتب، وما يلبث أن يسرع هابطاً الأدراج عبر كوريدورات المكتبة وممراتها. كنت أحاول اللحاق به، متعثراً، أكثر عمىً

وعجزاً منه لأنّ دليلي الوحيد كانت عيناي. في ظلام المكتبة كان يجد بورخس طريقه بدقّة الماشي على حبل مشدود. أخيراً، رأيتني أكتشف أنّ الفضاء الذي زُرعنا فيه مؤقتاً لم يكن حقيقياً: إنه فضاء مكوّن من كلمات وإشارات ورموز. إنه متاهة أخرى. كان بورخس يجرّني خلفه، ويجعلني أهبط بخفّة الدرج الطويل الملتفّ، ومن ثمّ أسقط منهكاً في قلب الظلام. فجأةً أجد ضوءاً في نهاية كوريدورٍ آخر. إنه الواقع السمج ينتظرني هناك. وأنا بجانب بورخس، الذي كان يبتسم مثل طفلٍ نفّذ حيلةً بصديقه، بدأتُ أستعيد بصري، والعالم الحقيقي للضوء والظلّ، تلك العادات التي تدرّبتُ على إدراكها. لكنني خرجتُ من هذه التجربة كمن يخرج من مياهٍ عميقة أو من حلم، مهشّماً بواسطة ذاك الواقع (الآخر)، تلك المتاهة من الورق."

وفيما كنا نتسكّع عبر شوارع بوينس آيرس، شاقين طريقاً لنا في الزّحام، بدأ بورخس يتحدث عن بول غروساك، المدير الأعمى السابق للمكتبة الوطنية، وكانت المفارقة المدهشة هي أنّه، أي بورخس، أصبح المفتش الرئيسي والحارس لأكثر من ٨٠٠٠٠٠ كتاب في نفس الوقت الذي تلقى فيه هبةَ الظلام. كلّ هذا سجّله في قصيدة رئيسية تحمل عنواناً خبيثاً هو "قصيدة الهِبات" مهداة إلى صديقته ومساعدته ماريا إيثر فاسكويس. هنا يصف فردوسه الخاصّ بالكآبة:

بطيئاً في عتمتي، أكتشف
خيوط الغسق بعصاي المرتجفة،

twitter @baghdad_library

أنا الذي تخيّلَ أنّ الفردوس هو الفضاء
القابع تحت عنوان مكتبة.

... الآن أنظرُ
إلى عالمٍ عزيزٍ يتداعى مثل زبالةٍ تحترق،
بلا شكل، صائراً إلى رمادٍ شاحب غامض
كأنه النوم وكأنه النسيان.

وما إن انتهينا من التأملات حول المكتبة وجّه بورخس دفة الحديث إلى الشعراء الأمريكيين والأنكليز. أما الناس في الشارع فاستمروا في توقيفنا.

"أنت أزلي يابورخس!" صاحت امرأة.

"شكراً لك، ولكن اعفني من هذه العقوبة الخالدة،" قال بوقار. كانت لديه أجوبة مختلفة لهذه التحية المتكررة، مثلما كان لديه أجوبة مختلفة عن سؤال "ماهو شعورك تجاه جائزة نوبل؟" ردّه المفضل لي، والذي لم يكن قلباً للعبارة، وليس هروباً أو تملّصاً، كان مؤلفاً من كلمة واحدة. نطق بها في مدرج جامعة انديانا.

"جشعَه."

"انظرْ هنا،" قال لي، "إليوت شاعر جيد، لكنه ناقد مملّ. ناقد محترف أكثر من اللزوم، كلاّ؟ ولكن روبرت فروست شاعر ممتاز، نعم، رائع مثل براونينغ. أسمعُ أنه كان مزارعاً مرعباً."

"فروست كتبَ بلغةٍ بسيطة،" قلت، "لغة بسيطة بعمق، مع غرفٍ متعددة للمعنى التي يتحلى بها شاعر كويليام بليك. طوال حياته نظروا

إلى فروست كشاعر من الطراز القديم، شاعر عامّي، أو أنّ النقاد "الجديون" ببساطة تجاهلوه. أما الآن فينظر إليه كشاعر حديث، بمستويات متعددة للغموض، والكآبة، والجنون البوحي المرتبط بلغته. لقد عمَر طويلاً."

في مناسبةٍ أخرى في شقته تحدّث بورخس عن كونه دُعي مرة للقاء جون كينيدي. لكن الموعد فشل وهذا لم يزعجه. ما أزعجه، على أية حال، هو أنه لم يتحدَث أبداً إلى مؤلف قصيدة "كنتُ امرءاً على صحبةٍ مع الليل،" أي مع روبرت فروست، الذي كان بورخس معجباً به.

"أنتَ على صحبةٍ مع الليل،" قلتُ.

"ليلي تاريخُ الليل،" أجاب.

بعد مضي سنه نشر بورخس ديواناً بعنوان (Historia de la noche تاريخُ الليل).

حماسة بورخس الدائمة لفروست كان يقابلها احتقار لعزرا باوند، حيث كان بعتقد بأنّ أكاديميته سخيفه وشعره لايستحق الذكر.

"لدي كلمة واحدة لباوند. احتيال."

وبينما كان شحيحاً، بشكل خاطئ، تجاه بعض المعاصرين، خاصةً لوركا وأورتيغا، اللذين كان بالكاد يعرف أعمالهما، لكنه كان حازماً تجاه باوند. أما بالنسبة لبابلو نيرودا فكان لديه كلمات مختلفة تماماً. ولم يكن واضحاً لي أنه كان يمتدح نيرودا في أضعف أعماله كطريقة للأخذ منه، أو أنه كان يعطي الشيطان المحترم حقّه. مع ذلك، كان واضحاً أنه يكنّ له كلّ الإحترام.

"بابلو نيرودا كتبَ كلّ هذه القصائد الوجدانية الغزلية السخيفة في

twitter @baghdad_library

البداية، كما تعلم، أسماها (عشرون قصيدة حب وأغنية يأس) ولكن عندما أصبح شيوعياً صارت قصائده أكثر قوةً."

لكنه أنّب نيرودا لأنه لم يقل أبداً كلمة واحدة ضدّ بيرون عندما كان بيرون يعذّب الشيوعيين الإرجنتينيين ويرسلهم ليموتوا في صقيع باتاغونيا. كانت تلك سياسة الحزب الشيوعي آنذاك، حيث أنّ الحزب الشيوعي الإرجنتيني كان قلقاً بشأن عزل العمال الذين كانوا، بالرغم من وضعهم المزري، متحالفين بقوة مع بيرون. في حديث عن نيرودا مع ريتشارد بيرغن قال بورخس، "في الوقت الذي كان عليه أن يكتب بأعلى صوته، مشحوناً بالغضب النبيل، لم يكن لديه كلمة واحدة يقولها ضدّ بيرون. وقد كان متزوجاً من سيدة ارجنتينية، وكان يعرف أنّ العديد من أصدقائه أرسلوا إلى السجن. كان يعرف كلّ شيء عن حال بلدنا. ... لكنه شاعر متميّز جداً، شاعرٌ عظيم في الحقيقة. وعندما فاز ذلك الرجل [ميغيل أنجل أستورياس" بجائزة نوبل، كان يجب أن تُعطى لنيرودا."

بالمقابل كان نيرودا فطناً وحاذقاً. عن بورخس قال نيرودا في مقابلة مع ريتا غيلبرت: "إنه كاتب عظيم ونشكر السماء على ذلك! ... ولكن أن أتشاجر مع بورخس لمجرد أنّ كلّ واحد يريدني أن أتشاجر مع بورخس- هذا ما لن أفعله أبداً. إذا كان يفكّر كالديناصور فهذا ليس له علاقة بتفكيري. إنه لايفهم أي شيءٍ عمّا يدور في العالم الحديث، وهو يعتقد أنني لا أفهم أيضاً. وبالتالي نحن متفقان."

"بالمناسبة، هل قرأت قصائد روبرت لويل؟"

توقّف بورخس ونظر إليّ. وبحماسه الخاصّ كمن يفشي سراً إلى

جمهرةٍ خاصّة أعلن: "كلاً، لم أقرأ قصائد روبرت لويل، وأعتقد أنه من السلامة القول إنني لن أقرأ قصائد روبرت لويل."

"ولكن ماذا تعني؟"

"أعني أني قابلتُ الرجل، هنا في بوينس آيرس. أتى إلى شقتي. وأحضر لي كتاباً."

تبدلت لهجة بورخس وانتقلت من المزاح إلى كثافة السخرية ومن ثمَّ إلى الحنق الصارخ.

"أنا ولويل تحدّثنا لفترة من الزمن في غرفة الجلوس. سألني عن الصور فوق الطاولات، تلك التي تخصّ عائلتي في القرن التاسع عشر. بعد ذلك، وبشكل مفاجئ، هذا النسيب لآمي لويل استلقى على الأرض، خلع بنطاله، ولم يكن يرتدي شيئاً سوى ثيابه الداخلية، وبدأ بالصراخ. لم أكن أعلم ماذا يقول. ظننت أنه مجنون. أؤكّد لك أنه لم يتصرف كرجل محترم."

"رجل محترم أو مجنون، أراهن أنك ستشعر ببعض التعاطف، وربما التعاطف العميق، مع كتابه "(Lord Weary's Castle)."

"سمعت أن لويل هذا يحب هوثورن وأنا أيضاً رجل من القرن التاسع عشر. اقترفتُ ذلك قبل سنة واحدة، كما تعلم، كوني من مواليد ١٨٩٩ . ألقيتُ بلمحة خاطفة فقط على ذلك القرن. على أية حال، يمكن أن أحبَّ قصائده- ولكن بشرط أن يبقى مرتدياً بنطاله. أظن أنني سأضع ذلك كشرط."

"أنت قارئ مثالي وتطلب الكثير، يا بورخس."

تحدّثنا عن ييتس، الذي كتب بشكل أفضل كلّما تقدّم في السنّ.

twitter @baghdad_library

وعن إي إي كمينغز، الذي لم يكن كذلك، وعن إليوت، الذي توقّف نهائياً. امتدح ييتس لكونه شاعراً باروكياً حداثياً، وامتدحَ جملته "البحر المعذّب الأجراس" على الرغم من أن بورخس (مع أنطونيو ماتشادو) كان يضمر احتقاراً للباروك، خصوصاً تعقيداته الحديثة. لم يكن يكنّ حباً عظيماً لويليام بتلر ييتس، الذي صنّفه بشكل ظالم مع الشعراء الوجدانيين و الباروكيين.

أما بالنسبة للشعر الأكثر باروكيةً لجيرارد مانلي هوبكينز، فقد كان يقف أمامه بوجل. سوف لن أنسى ذلك المساء عندما كنتُ أقرأ له شعراءه المفضلين، من مثل كفافي، وستيفنس وفروست. وانتقلتُ إلى قصيدة هوبكينز "حطام سفينة دوتيشلاند" والتي هي بالتأكيد واحدة من أصعب القصائد في اللغة الإنكليزية. إنها من نفس صنف قصيدة سور جوانا إنز دي لاكروز بعنوان (حلمٌ أوّل) من القرن السابع عشر. لقد سُحِرَ بورخس بالقصيدة، والتي لم يكن قد قرأها من قبل. وبعد مضي اسبوع، وفي إحدى صباحات يوم السبت، امتحنني بأبياتٍ تلاها عليّ:

أنتَ يامن تتسيّدني
يا الله! يامانحَ الخبز والنفَس؛
ياخالق خيوط العالم، و المدّ والجزر،
يا سيّد الأحياء والموتى؛
أنتَ يا من جدلتَ العظام والشرايين فيّ، وأوثقتَ لحمي،
وبعدها فكّكتَ ماكنتَ قد ابتكرته بخوف،
إنك تلمسني الآن غضّاً طرياً!
مرّةً أخرى أتلمّسُ إصبعَكَ وأجدكَ.

"من كتبَ هذه الأبيات؟"

حزرتُ شاعراً انكليزياً شهيراً من القرن السابع عشر، وكنتُ خجولاً أن أقول من هو، وكان عليّ أن أعرف أعمال ميلتون بشكل أفضل. (مع ذلك كنتُ قد اصطحبتُ معي نسختي المخملية الزرقاء من ميلتون إلى الإرجنتين). لكنني كنتُ مأخوذاً تماماً بطريقة إلقائه الموسقة. يجب أن يكون ميلتون صاحب هذه الأبيات.

"ابتعدتَ بضعة قرون. إنه هوبكينز. قرأتَ لي الأبيات الإسبوع الماضي." وكان سعيداً جداً لاصطيادي.

كنتُ أعرف أن بورخس لايملك نسخة لهوبكينز في مكتبته. وكان مغتبطاً بلعبته الشيطانية. إنه فيونس ثانيةً، ساحر الذاكرة، الذي لايمكن السيطرة على طاقاته.

"شيطان.!" قلتُ له. واحتفظتُ بتلك الصفة لمقدرات غير عادية كتلك. "ولكن كيف، بعد قراءةٍ واحدة فقط، تستطيع أن تتذكّر هذه الأبيات؟"

"ثمة أبيات نسيانها أصعب من تذكّرها."

إن بورخس بكلّيته "عادتي" ولكن شعره بالطبع يمثل المركز منها. أفكّر بكتابات بورخس، وفي كلّ الأجناس الأدبية، وأرى أنها تتجه صوب البساطة. لقد تحدّث هو نفسه عن أيام شبابه الأولى ومقالاته وكتاباته الباروكية المعقدة، والتي هجرها مثلما هجر باسترناك تجاربه الأولى، وكما تنصّل روبرت لويل لاحقاً من طلاسم ديوانه (Lord Weary's Castle). وكان بورخس قد رفض إعادة نشر أيّ من هذه المقالات في الطبعة الأولى من كتابه (Inquisiciones) وكان يعلق

twitter @baghdad_library

عليها قائلاً: "حاذقة وغامضة جداً بحيث يصعب عليّ هضمها." مع ذلك فإنّ كلاً من هؤلاء الكتاب الثلاثة يبالغ جزئياً، إذ ما من كاتب من وزن باسترناك أو لويل أو بورخس يرفض بشكل مطلق (باستثناء Inquisi-ciones) بعض الأعمال الهامّة وأكثرها شيوعاً. الرفض "الظاهري" ضروري من أجل الإستمرار نحو الأمام، ومن أجل أن لايكرر المرء نفسه، ومن أجل أن يتطور، ويتبدل، وكيلا يسقط في محاكاةٍ نمطية لذاته- مثلما فعل كمينغز، ومثلما فعل جورج غولين، بل كما فعل فروست في أواخر أيامه؛ ولكن هذا لاينطبق على بيتس، وكفافي، وأليخاندري، أو ريلكة حيث أنّ أهمّ أعمالهم وأكثرها أصالةً ظهرت في سنواتهم الأخيرة.

"باوند وكمينغز يضعون أقنعةً عندما يكتبون القصائد في حين أنك تخلعها." علّقتُ قائلاً.

"اسمع يا بارنستون، هذا معقول إلى حدّ فقط. أنتَ تعرف حيلي. طالما أنني دائماً ألعب دور بورخس، النبيل الأصيل والملائم، فإنني أضع جنوني وهرطقاتي في مكان آخر. وهكذا عندما أكون منزعجاً جداً، أجري بعض التبديل على مشاعري وأخزّنها في قصائد. مع ذلك يجب عليّ أن أرتدي قناعاً في الحياة، وهذا ليس بسبب لوثة أو وهم أدبي. لقد نظرتُ إلى مرآةٍ في وقتٍ ما، ولديَ ذاكرة. وأتذكّر ما أُشبه. هذا هو السبب الذي يجعلني أرتدي قناعاً."

"أوافق."

"أشكركَ على الموافقة."

"أجل، اخف وجهكَ، يا بورخس، واجعل العالم مكاناً أجمل."

"سوف أرسل فاني غداً لتحضر لي خرقةً عتيقة أو حجاباً."

أما فيما يتعلق بشعر بورخس الأخير، فإنه يمثّل ذروة مسيرته ككاتب. لم يكن قد كتبَ في شعره مايعادل قصته "الإنجيل حسب مارك" ولكن قبل وفاته بقليل، وفي اكثر دواوينه "عرياً"، يجد بورخس في الأناجيل الإغريقية البعد التراجيدي للمعاناة اليومية. كان قد نشر "المسيح على الصليب" في آخر كتبه (المتآمرون) [1985]. إنها من القصائد الكبرى في اللغة الإسبانية. ظاهرياً القصيدة صورة ليسوع الإنسان الذي "تتدلى لحيته السوداء فوق صدره،" لكنها أيضاً محاولة لإزاحة القناع وفضح بورخس الذي يعاني. لانجد في أية قصيدة سابقة أو قصة له هذا الوهن القاسي أو هذه المعاناة الواضحة والمكفهرة.

المسيح على الصليب. قدماه تلمسان الأرض.
خيوط الأشعة الثلاثة لها نفس الإرتفاع.
المسيح ليس في الوسط. إنه الثالث بينها.
لحيته السوداء تتدلى على صدره.
وجهه ليس الوجه الذي نراه في النقوش.
هو قاسٍ ويهودي. أنا لا أراه
وسوف أذهب في طلبه حتى آخر
يومٍ من خطواتي على الأرض.
الرجل المكسور هادئٌ ويعاني.
يقطعه إكليل الشوك.
لاتصله هتافات البشر
التي رأت معاناته مرات عديدة.

twitter @baghdad_library

معاناته أو معاناة غيره. لافرق.
المسيح على الصليب. حائراً
يفكّر بالمملكة التي تنتظره،
يفكّر بالمرأة التي ليست له.
لم يوهب الفرصة ليرى العقيدة اللاهوتية،
الثالوث المبهم، الغنوصيين،
الكاتدرائيات، سكين أوسام،
الإرجواني، تاجَ الأسقف، طقسَ القربان،
اعتناقَ غوثروم للدين بقوة السيف،
محاكمَ التفتيش، دماءَ الشهداء،
الصليبيين القتلة،
والفاتيكان الذي يبارك الجيوش.
هو يعرف أنه ليس إلهاً بل إنسانٌ
يموت مع النهار. وهذا لايزعجه.
مايزعجه هو الحديد الصلد للمسامير.
هو ليس رومانياً. ليس إغريقياً. إنه ينتحب.
تركَ لنا استعاراتٍ مدهشة
وعقيدة من التسامح يمكنها
أن تمحو الماضي. (جملة
كتبها أيرلندي في السجن.)
الروح، عجولةً، تقتفي نهايتها.
هي اسودّت قليلاً. الآن هو ميت.

ذبابةٌ تمشي بهدوء فوق الجسد.
أيّ خير يطالني إذا كان الرجل
قد عانى، مادمتُ أنا أعاني الآن؟

كيوتو، ١٩٨٤

لقد اقترف بورخس المعصية عبر استخدامه لاستعارة المسيح من أجل أن يصف عذاباته هو. ومثل الشاعرة سافو التي تحشر نفسها بالإسم في قصائد تتحدث بها إلى أفروديت ("مع ذلك ياسافو، أنا أحبكِ") يشبّه بورخس نفسه بيهوديّ فظّ أسود اللحية، بل بإنسان، وليس بإله خرافيّ، على الرغم من أنّ الآخرين سيسمونه لاحقاً يسوع المسيح، الإنسان-الإله. يشبّه أذاه بالأذى الذي لحق بيسوع، ودونما خجل، ودون تواضعٍ أو تعجرفٍ كاذبين، بل بشكل طبيعي تامّ.

كانت أيام بورخس الأخيرة أكثر سعادةً من غيرها في حياته. أو على الأقلّ بدت هكذا. وأجد تناقضات صارخة، على أية حال، بين هذه الصورة الشائعة وبين الشخصية- القناع التي يوظفها في أعماله الأخيرة. ولنقل بشكل أبسط، حياة بورخس الأولى ككاتب في الإرجنتين لم تكن في معظم الأحيان سهلةً. كان ثمة عمل المكتبة المرعب، والسنوات العديدة التي أمضاها في كتابة أعمال حققت له اعترافاً عالمياً في الوقت الذي كان فيه سجيناً لما يعتبره منصباً مهيناً- مصيبة "اللامحترف" المنحدر من عائلة عريقة صاحبة النفوذ، لكنها فقدت مكانتها وقوتها. التحرر من المكتبة البلدية جاء فقط عندما كان عليه أن يعاني أولاً السنوات الأولى من ديكتاتورية بيرون. مع ذلك وخلال هذه السنوات فإنّ المتكلم في أعماله لم يكن حزيناً، ولم يكن شخصياً

twitter @baghdad_library

على الإطلاق. في سنواته الأخيرة، على أية حال، عندما كان ظاهرياً يعيش في سلام أكبر وكان أكثر حبوراً، حيث تتوّج ذلك بزواجه من ماريا كوداما، كتب أكثر قصائده يأساً وسوداويةً وشخصانيةً. بل كتب أفضل قصائده.

حقاً كان ثمة تناقض- وكان يجب أن يكون.

استمرّت مشيتُنا، و استمرّ هذرنا الذي لاينضب. اقتربت منا سيدة وصرخت بشكل هستيري بأنَ بورخس أعظم كاتب في الإرجنتين. (ولم يكن حكمها بعيداً عن الصواب.) أخذ يدها بلطف وقال بشيءٍ من السخرية المحببة، "صديقتي العزيزة، ما قلتيه برهانٌ واضح على أنّ بلدنا يمرّ بامتحانٍ كبير."

لدى وصولنا إلى مبنى ناسيون، كان علينا أن نصعد درجاً عريضاً من الرخام يؤدي إلى المكتب. صعدنا ثلاثة طوابق، وكان البناء مصمماً للبذخ والمجد، وليس للراحة. لم يكن ذلك سهلاً، لكنّ بورخس لم يشأ أن يستريح.

"إذا استرحت، يمكن أن أصاب بالتعب. أنت تعلم، في مثل سنّي من الأفضل أن أدّخرَ قوتي وأن لا أرتاح."

في مكتب المحرر الأدبي خورخي كروز، أخرج بورخس قصيدة من الجيب الداخلي لحقيبة يده ووضعها على مكتب المحرر. كان بورخس سعيداً، أليفاً، رغم أنه بدا عليه ظاهرياً الإرتباك. قرأ كروز بصوتٍ عالٍ قصيدة "الوعل الأبيض":

من أية أنشودة رعوية عتيقة خارجة
من إنكلترا الخضراء، أية مطبوعة فارسية، أية

مناطق سحيقة من نهارات وليالٍ ماتزال تحضن
ماضينا، انبجس الوعل الأبيض عبر المشهد
الذي حلمتُ به هذا الصباح؟ لمحة خاطفة. رأيته
يعبر المرج، ويضيع في ذهب
نهارٍ سرابيَ: مخلوق رشيق مصبوب
من قليل من الذاكرة ورسمٍ
للنسيان- وعلٌ في جهةٍ واحدةٍ فقط.
الآلهة التي تحرس هذا العالم الغريب جعلتني
أحلم بك، ولكن قدري أن لا ألقي القبض عليك.
ربما في ملمحٍ من مستقبلٍ عميق سوف أجدكَ ثانيةً.
ياوعلاً أبيض من الحلم، أنا أيضاً حلمٌ طائرٌ،
لا أستمرّ أكثر من حلمٍ سريعٍ مؤلفٍ من حقولٍ وضوء.

"هل أعجبتكَ؟" سألَ بورخس.

"لابأس بها،" أجاب كروز، متجمّد الهيئة.

"تعني، أنت حقاً لاتكترث بها؟" قال بورخس مكتئباً.

"لابأس بها."

كان بورخس مغتبطاً بحقّ. "أنتَ تناكد رجلاً عجوزاً، كلاّ؟"

"كيف حزرت؟" قال كروز. "علاوةً على ذلك، كيف تجرؤ على التخيّل بأنني لستُ رحيماً بكل قصيدة تقدمها لنا؟"

كان بورخس شغوفاً باستجرار الإهانة إذا كان هو موضوعاً لها. لم يكن يتعب من ممارسة ألعابه في التواضع، الشهرة، الغضب، الزمن، الفانتازيّ، الميتافيزيقيا، والموت.

twitter @baghdad_library

"كروز ولدٌ معطاء،" أسرّ لي بورحس عندما غادرنا. مشينا بضعة خطوات، ثم مالبث أن انعطف باتجاهي.

"هل تعرف، بارنستون، لا أشعر بأنني كتبتُ تلك القصيدة."

"ماذا تعني؟"

"أعني أنني فيزيائياً أمليتُ تلك الكلمات. غير أنني لم أصنعها. القصيدة وهبت لي، في الحلم، بضع دقائق قبل طلوع الفجر. في بعض الأحيان الأحلام مؤلمة ومملة، وأعترض على غلوائها وأقول، كفى، هذا مجرد حلم، توقف. ولكن في هذه المرة كانت صورةً شفويةً سمعتها ورأيتها. أنا ببساطة قمتُ بنسخها، تماماً كما أُعطيت لي."

"قمتَ بنسخها. أظنّ أنّ أفضل الأشياء التي نفعلها هي عندما نستسلم لما هو كائنٌ هناك،" قلتُ متفاصحاً، "عندما لانخلط ولانخترع بل نستسلم للرؤية الواضحة الحاضرة أو القادمة، ونكون راغبين بالكشف عنها، برؤيتها، ونسخها. في مقدمته لكتاب (Vita Nuova)، إذا لم تخنني الذاكرة، ينسخ دانتي من كتاب ذاكرته. إنه ناسخ الذاكرة المخبوءة."

"أجل، ولكن دانتي لم يسع ربما إلى استرجاع الذاكرة بقدر ما أراد تدعيم تلك الذاكرة بتجربتها. كان حلمي هناك، أحادي الجانب، في لمحة خاطفة، في ذاك الصباح الذي كنتُ فيه مستيقظاً."

"كنتَ ماكراً بما فيه الكفاية لأن تستقبل حلمكَ، كما هو الحال، وأن تكون ناسخه."

"كنتُ ماكراً بما فيه الكفاية."

كان بورخس ينشر قصائده أولاً في جريدة (لانسيون). هذه العادة من النشر في الجرائد ماتزال قائمة في الإرجنتين. في السنوات السابقة

كان ينشر بورخس قصائده في صحيفة أخرى رئيسية، ولكن عندما خيّبوا ظنّه انتقل إلى جهة أخرى. ولم يستطع أن ينسى هذه الإهانة. خلال الحرب القذرة عندما بات بورخس مقتنعاً بما يهدف إليه الجيش، توقف عن النشر في (لانسيون) حيث أنّ الجريدة كانت تدعم الحكومة العسكرية. وراح بورخس ينتقد الحكومة ويتحدّث لأول مرة ضدّ أجداده العسكريين. إذ لطالما تغنّى بهم وببطولاتهم، بمن فيهم جدّه الكولونيل فرانسينسكو بورخس (زوج جدته الإنكليزية) الذي، بعدما خسر المعركة، امتطى جواده الأبيض واقتحم خطوط العدو قبل أن تجهز عليه كتيبة ريمنغتون وتقضي عليه.

قناعة بورخس الراسخة بالعقلية المتفسخة والسلوك الخبيث للجيش تدعّمت أكثر عندما اطلع على الشهادات العامة، بعد سقوط الجنرالات، وسمع تفاصيل الإعدامات والتعذيب (معظمها جنسية، سادية الطابع). ولأنه أصيب بالهلع، راح يطلق آراءه للجميع. ولكن بالنسبة للكثيرين من منتقديه، فإن فهم بورخس- مثل فهم كثير من مواطنيه "المحترمين"، بمن فيهم مدير جريدة (لانسيون)- جاء متأخراً، متأخراً جداً. متأخراً لا يؤثّر- إذا كان التأثير ممكناً- بسياسة هذين الجنرالين غير الموسقين: فيدلا وفايولا.

كان العائق الرئيسي أمام فهم بورخس هو أنّ هذا الجيش نفسه هو الذي أطاح بإزابليتا بيرون في ٢٤ أذار عام ١٩٧٦ ، وأية جهةٍ ترمي أحداً من عائلة بيرون كان يجب أن تكون جيدة. (عدو عدوي صديقي). تلك كانت الحالة أيضاً مع أول عزلٍ لخوان بيرون على يد الأدميرال اسحق روجاس الذي أعاد في الواقع الديموقراطية لبعض الوقت. في البداية كلّ

twitter @baghdad_library

شخص تقريباً، بما في ذلك البيرونيين، رحّب بعزل إزابيليتا. كنتُ هناك وأتذكّر هذا بوضوح شديد. ولكن كان واضحاً أيضاً أنّ مجرمي كتيبة الموت الذين عملوا لصالح لوبيز روغا تحت حكم البيرونيين كانوا يستمرون في أعمال الخطف والقتل بأمرة الجنرالات، مع تصاعد الإنتقام والزخم وعدد الضحايا، وهذا ليس فقط ضد المعارضة العسكرية بل ضد أية معارضة، سواء حقيقية كانت أم متخيّلة: ضد الطلاب والمثقفين واليهود والصحفيين وأصدقائهم وأقاربهم. عندما اكتشف مدير (لانسيون) أن ابنته كانت "ضحية" مختفية لكتيبة الموت، توقفت الجريدة عن دعم الجيش.

هبطنا الطوابق الثلاثة وكان ذلك صعباً على بورخس. لم يكن هناك إفريز نتمسّك به وكان الدرج قاسياً. "هل تعلم، لقد كان دانتي مخطئاً بخصوص الجحيم، مخطئاً بخصوص الجملة المنقوشة على بوابة جهنم في الأبيات الأولى من الكانتو الثالث: (اهجر كل أمل أنت أيها الداخل). فالجحيم لايبدأ هناك. ولايوجد مدخل للعالم الآخر. الجحيم يبدأ هنا، وهنا يجب أن نهجر كلّ أمل. عندئذ يمكن أن يكون لدينا احتمال، أو أمل، ببعض السعادة المؤقتة."

في غضون ذلك كنا نتسكّع في شارع فلوريدا، شارعي المفضل في جنوب أمريكا، وهو خالٍ من المرور مثله مثل شارع كول دي لا سيرب في سيفيل أو ممرات المشاة المرصوفة بالموزاييك في البرتغال. كان بورخس يتحدث عن أحد شعرائه المفضلين، هي إميلي ديكنسون، الذي يشاطرها بعض التخوم الميتافيزيقية والإستبصارية.

"ديكنسون تنحدر مباشرةً من إمرسون، ألا تعتقد ذلك؟ أعني أنها

تتمتع بنفس الروح التمردية التي يرمز لها براهما نيو انكلاند، ذاك الشاعر المثقف والمهمَل، إمرسون."

مع كلَ ذكرٍ لشاعر كان يسوق مقطعاً أو اثنين من القصيدة، يقرأ ويتلو من دفتر ذاكرته. "إلى النروج، إلى النروج، إلى النروج فوق الزبد،" كان يردّد، بنشازاتٍ إيرلندية ثقيلة. بعدئذٍ ينتقل إلى براونينغ، ومن ثمَ هينه، والشعراء الأنكلو-ساكسون.

مضى علينا بضع ساعاتٍ ونحن نمشي. نمشي ونحكي أو، حسب عبارة بورخس، "نعيش، أليس كذلك؟" شوارع بوينس آيرس أعطته الفرصة للعيش مع أصدقاء يجيدون الحديث. مع أصحاب يحكي لهم، أعطته الفرصة لاكتشاف أبنية مألوفة، وجدران ومحلات وسماوات كان يراها بعينيه العمياوين تماماً مثلما رآها بعينيه عندما كانتا مملوءتين بفوتوغرافيا حيّة. لقد كان بالطبع يحبّ رحلاته إلى الخارج، يحب قضاء نزهة في آيسلاندة أو مشوار بطيء على جسر بروكلين (كان يطلق عليه جسر هارت كرين) أو شوارع جينيف أو كمبريدج التي كانت ساحرة. لكنه كان حتماً يعود، في الواقع وبمشاعره، (إلاّ عندما كان في منفاه الأخير وأصبح شبيه بورخس الآخر في جينيف) يعود إلى عشقه الدائم: بوينس آيرس.

نيوانكلاند، ١٩٦٧

إنها الأشكال في الحلم، تبدو بأنها تتبدّل.
في كلِّ مكان أرى بيتاً مائلاً أحمرَ،
خضرةً بأوراقٍ برونزية نحيلة،
طهارة الشتاء، والحطب الغريب بوقار.

twitter @baghdad_library

وكما في اليوم السابع، جيدةٌ هي الأرض.
في الغسق ثمة مايبقى،
شيءٌ ما كأنه لم يكن: جريءٌ، حزينٌ،
رنينٌ عتيقٌ للكتاب المقدس، ضباب
حرب. قريباً (قيل لنا) سيهطلُ الثلج.
في كلّ ركنٍ تنتظر أمريكا
من أجلي، ولكن في الظهيرة الغارقة
أشعر الماضي قصيراً، والثلجَ بطيئاً.
بوينس آيرس، أسير في شوراعك.
أستمرّ في السير دونما متى أو أين، ولكن حالاً.

عندما اقتربنا من منزله سألته كيف تأتي القصائد. كنا قد تحدثنا عن البارسيين (Parsis)، أولئك الزرادشتيون الذين أتوا كلاجئين دينيين إلى الهند من بلاد فارس المسلمة في القرنين السابع والثامن. سألته فيما إذا كانت قصائده تنصب له الكمائن أو أنها تهبط عليه مثل طيورٍ جارحة تهاجم برجه البارسيّ، برج الصّمت.

"كلاّ. أتجوّل وهي معي حتى تقوى عليّ. بعدئذٍ أمليها لأنني لا أستطيع أن أحتفظ بها في الظلام أكثر."

"ولمَ لا؟"

"بما أنني أعمى، فقدتُ رؤيةَ الظلام. لاأعلم ماهو الليل بما أنّ كلّ شيء يميلُ إلى أزرق مخضرّ أو غبش مصفرّ. وبالرغم من أنّ هذا مظلمٌ جداً بالنسبة للقصائد إلاّ أنه في الحقيقة ليس مظلماً بما فيه الكفاية في رأسي. أفتقد العتمة، ذلك الظلّ الكلّي."

"وعندما تحلم؟"

"أحلم بكلَ الألوان. ألوانٌ عميقة للغاية، تذكَّر."

"هل تحلم بالإنكليزية القديمة؟"

"انظر هنا، أنا متيمٌ بالإنكليزية القديمة. أتذكّر بضعة أبيات- لايوجد الكثير من الأبيات التي تستحق التذكّر. لكنني لا أتقنها كما يجب، أقصد، لا أتقنها لكي أحلم بتلك اللغة. لكنني أحلم بالتأكيد بشخصياتٍ تنتمي إلى تلك الفترة. ولطالما استحوذت عليَّ صور ملوكٍ غامضين، أشباح هاملت الأولى من اسكندنافيا. في الليلة السابقة كان برونانبوره. كنتُ هناك، أو اعتقدتُ أنني كنتُ هناك. كنتُ المحارب في برونانبوره في عام ٩٣٧ ."

لا أحدَ بجانبك.

الليلة الماضية قتلتُ رجلاً في معركة.

كان شجاعاً وطويل القامة، من نسل "أنلاف" الصافي.

السيف اخترق صدره، وانحرف قليلاً إلى اليسار.

تدحرج على الأرض، وكان شيئاً.

كان شيئاً ينعق.

سوف تنتظرين عبثاً من أجله، أيتها المرأة التي لم أرها.

السفن التي أبحرت فوق المياه الصفراء

لن ترجعَهُ.

في ساعة الفجر

سوف تبحث يدكِ عنه في الحلم.

twitter @baghdad_library

سريرِك بارد.
الليلة الماضية قتلتُ رجلاً من برونانبوره.

"تلك قصيدة أخرى نسختها."

"هي كانت كذلك."

"(السفن التي أبحرت فوق المياه الصفراء/ لن ترجعه.)" هل نسختَ قصيدةً أم سرداً نثرياً- لاأعرف أيهما، إن كان ثمة من أيهما؟"

"لايوجد أيهما، لايوجد اختلاف. إنها قصيدة محكمة، لكنها تختلف عن النثر من حيث تقطيعات أبياتها، ومن حيث طوبوغرافيتها."

تمهّلنا. بدأ بورخس يبحث في جيوبه عن مفاتيحه.

"انظر هنا، ويليس، كنا نمشي في الشوارع، وها نحن الآن قرب منزلي، ولدي انطباع أننا لم نكن نتجاوز شارات السير، ولم نكن محاطين بمارّة مسرعين، بل أننا كنا نجلس في غرفة الضيوف، نسحب كتاباً تلو آخر، ونتجادل."

"إنك تشتت الإنتباه بشكل كبير."

كانت قد مرت بضع ساعات. وكان بورخس يحضّر للمغادرة إلى أمريكا، حيث سيمكث هناك لخمسة أيام. عندما حضرت السيارة لنقلنا إلى المطار، قال السائق بأن لديه أوامر لإحضار شخص باسم السيد بونس. ورأى بورخس بأن الإملاء الخاطىء ممتع لكنه كئيب.

"قبل بضعة أيام، أخذتُ تاكسي إلى دار النشر EMECE لأتحدّث إلى محرركَ كارلوس فرياس، وقد أخبرني السائق، الذي كان شخصاً مثقفاً، بأنّك، أنتَ بورخس، كاتب قصة قصيرة ممتاز، لكنه لايكترث

كثيراً لرواياتك. قال ينقصها الواقع الإجتماعي. وكان عنيداً جداً حيال تلك النقطة."

"حقاً إنها كذلك. أجل، كل تلك الروايات التي لم أكتبها أبداً ينقصها الواقع الإجتماعي. لوأنني كنتُ قد كتبتُ رواية واحدة فإنها كانت بالتأكيد ستعاني من مرضٍ أسوء."

"يمكننا أن نقول بطمأنينة إنك لست متميزاً كروائي."

"لامرئي."

"يمكنني أن أقول بأنّ هذه وجهة نظر متطرفة."

"بل إنني قد أذهب إلى المطلقات."

"وماذا تظنّ بناقدنا سائق التاكسي؟" سألته بنفس الروح.

"من الواضح أن الرجل يتحلى بذائقة جيدة، وثمة أحكام أدبية مشابهة." أصرَّ بورخس. "إنه يشاطرني غريزياً مخاوفي حول الرواية، وقد استخدمكَ كرسول لتحذيري. أنت تعرف أنني لستُ بصدد رفض الرواية- كيف يمكنني أن أرفض رواية تتحدث عن الحوت أو جيم أو أليوشا؟ - لكنني أرفض نفسي والرواية. الحقيقة هي أنني لاأعرف إذا كانت لدي المخيلة لابتكار شخصيات أخرى، أو فيما إذا كان لدي الصبر. كان والدي يمتلك هذا، وذات يوم سوف أقوم بنشرالرواية التي تركها منتهية تقريباً، وهي كتاب جيد. أما بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لديهم بعض التحفظات حول أعمالي فأنا دائماً أشعر بالندم عندما أسمع نقدهم، ذلك أنني أتمنى أن يأتي هذا الشخص مباشرةً إلي. يمكن أن أساندهم بكل ولاء. بالطبع في أغلب الأحيان تعوزني دائماً حكمة الناس الآخرين، طالما أنه لم يسبق لي أن قرأت أي كتابٍ أو مقالة تتعلق بي،

twitter @baghdad_library

بل دعني أقول فعلتُ ذلك مرةً، مع أول كتاب نشر عني، وكان ذلك منذ عدة سنوات، لكنني لم أكرر تلك الغلطة. إذا جاءت الكتب إلى باب بيتي استبعدتها مباشرة، مثلما أفعل مع أية نسخة من كتابٍ أنجزته. أنا سعيد بأن أقول إنني لاأحتفظ بأية نسخة من أي عملٍ كتبته. ولكن، نعم، عندما أسمع بهؤلاء الذين لاتعجبهم أعمالي، أتمنى لو أنهم اتصلوا بي أولاً. لقد أضاعوا فرصةً ثمينة للقبض على بورخس. لقد أضاعوا فرصة اللقاء بصديق مخلص يشاطرهم الضحك على أخطائه وتبجحاته. سوف أكون إلى جانبهم. وأنا لا أكترث كثيراً لبورخس، بل لا أكترث كثيراً إلى أعماله. ثمة الكثير والكثير منه، وأنا لا أقرأه، على الرغم من أنني أؤمن عميقاً بإعادة قراءة الآخرين. أما بالنسبة لذاك الكاتب المزعج بورخس، فأنا أمتلك الأفضلية في مهاجمة نقاط ضعفه، أخطائه، أكاديميته الناقصة، وادعاءاته حول الكتابة الجيدة بما أنني أعرف بعض الأسرار حول العمل وحول خصمي وأستطيع- بل يجب- أن نجلس معاً ونصفي حقاً حساباتنا. سأكون مستمتعاً بذلك. ولكن أسراري لاتستحق كل هذا العناء، مهما تظاهرت، بما أن الكاتب كما تعلم يباشر بالعملية فقط؛ أما النوايا فإنها سرعان ماتضيع، ويجب أن تضيع، والبقية هي أنت. بالمناسبة، هذه "الأنتَ" ترمز للقارئ الذي يمكن أن أفكر به- هذا إن فعلت ذلك على الإطلاق- كقارئ بمفرده. إنّ فكرة القرأء، في صيغة الجمع، أو فكرة مؤلف يتحدث إلى قرائه، غير موجودة- وإذا كانت موجودة، فيجب أن لاتكون."

صعدنا إلى السيارة. كان بورخس يعرف كيف يتجنّب ارتطام رأسه. جلسنا أنا وهو في المقعد الخلفي وجلست ماريا في المقعد الأمامي مع السائق. انطلقنا باتجاه المطار وكان مزاج بورخس مكتئباً. تحدّث عن

والدته الذي كان موتها الحديث العهد في تموز ١٩٧٣ دائماً معه.

"كان عمرها تسعاً وتسعين عاماً حين توفيت منذ بضعة أشهر." قال. "لقد عانت لمدة سنتين، وخاصةً في الأشهر الستة الأخيرة، وكانت تصلي من أجل تلك الليلة التي ستكون ليلتها الأخيرة. وعندما استيقظت ذات صباح ووجدت نفسها ماتزال على قيد الحياة قالت إنّ الله لابد أنه يعاقبها على إثمٍ ارتكبته لكنها لاتتذكّره."

"مثل إحدى قصصك عن أولئك البطاركة الذين تتجاوز أعمارهم المئة والمئتين لكنهم محكومون بقدر العيش، غير قادرين على الموت."

"نعم. ولكن، هل تعلم، عندما كتبتُ تلك القصة كنتُ سعيداً تماماً. كنتُ أمزح وأسخر حقاً من الشيخوخة ومحنة تايثونس. لم أحلم أنها يمكن أن تحدث لنا."

"وموتك؟"

"يمكن أن يأتي كطائرٍ أسود في الليل. لن أبالي. بالرغم من أنني أقول للآخرين بأنني مريض ومتعب من متعة كوني بورخس كلّ ليلة، مازال لدي قصائد لأكتب، كتباً لأقرأ، وأمكنةً لأرى."

"الشرق؟"

"لم يسبق لي أن زرت حتى الشرق الأدنى والذي ندعوه من وجهة نظر أوروبية متعجرفة الشرق الأدنى. أعتقد بالنسبة لليابانيين فإن كاليفورنيا هي الشرق الأقصى."

"ربما كنت تتمنى أن يكون مذبح السماء في بكين. لقد زرت لتوك الجدار العظيم مع الإمبراطور الأصفر. لماذا تحبّ صحبةَ حارقي الكتب المشهورين؟" سألته بلهجة اتهامية. حتى لو أنني كنتُ أوجّه له تهمة إثمٍ

twitter @baghdad_library

أدبي أو شخصي فإن هذا دائماً كفيل باستفزازه.

"انظر هنا، أنا بريء،" همس قائلاً. "وأنا أيضاً بريء فيما يتعلق بمحاربي السكاكين وثقة رجال شمال أوربا. أم هل أنا عكس ذلك؟"

"ألم يقوموا بحرق برونو ووليام تيندال على الإسفين لأسباب أقل بكثير مما ذكرته. بالمقارنة معهم فإنك هرطوقي حقيقي."

"هل تعتقد أنني أستحقَّ هذا الشرف؟"

"كتابكَ الجديد (La rosa profunda) ممسوس بالعمى."

"نعم إنه كتاب ممسوس. لكنني لا أتكلم عن العمى من أجل أن أحتجَّ. إنني ببساطة أخبر الناس عن شيء أعرفه، وعن ماذا يعني أن يكون المرء أعمى."

"هل أثَّر العمى على حواسِّك الأخرى؟"

"ربما أصبحت ذاكرتي أفضل بقليل. ويجب أن تكون كذلك لأنني طوال الوقت يجب أن أتذكَّر الأشياء، وأن أتفحصها بذاكرتي. أخشى بأن أكون قد حولتُ رأسي إلى مكتبة. تعرف أنه يجب أن أحتفظ بالأمور في عقلي. ربما كان هذا هو السبب الذي يجعلني أعود إلى مواضيع مألوفة. أتذكَّر اقتباسات كثيرة، ومثل ساموئيل جونسون، أنا مهدد بأن أصبح اقتباساً للإقتباس."

"اشارة للإشارة. خلفيتكَ الصينية."

"كلاً، اشارة للإشارة- أفلوطين."

"الآن أنت ذاهب إلى مؤتمر سوف يتحدثون فيه عنك. أعرف أنك لاتقرأ كتباً تتحدث عنك. ولكن كيف لديك رغبة بسماع الآخرين يتحدثون عنك؟"

"أشياء كهذه تحدث دائماً. لأنني أفكِّر بلا ودائماً أقول نعم. لا

أعرف لماذا أستقلّ طائرة الآن."

كنا نصعد الدرج باتجاه الطائرة. كانت تسير ماريا في المقدمة حيث سبقتنا إلى الداخل. كان ثمة جزء صعب من مصعد الهبوط المعدني.

"أين أنا؟" استفسر بورخس.

"بعد قدم واحدة يجب أن تخطو خطوة أخرى وستكون في الداخل."

حركَ عصاه إلى الأمام والخلف. بعدها، وكما تعودت أن أراه ينزل من السيارة بشكل خاطئ وينحرف بخطر قبل أن يأتي أحد ويساعده، غطس باتجاه الأمام. كان تفكيره مركزاً على الدرجات وكان أيضاً في مكان آخر، إذ إنه توقف في أعلى المهبط. ولمدة دقيقة تقريباً، وبدون سبب واضح، رفع بصره ونظر باتجاه ما كان يظنه ربما السماء الليلية، كان في الواقع يحدق بجسم الطائرة على بعد بضعة أقدام من رأسه. كان انتظاراً لامتناهياً لكلّ شخصٍ كان يتابع، ولكل من توقّف بخضوع. لا أحد تحرك أو تكلّم أو حاول أن يحثّه على التقدم. كان بورخس يحدّق ويبتسم ويحدّق. ثم مالبث أن نظر إلى الأسفل، بعد أن قاس المسافة بعصاه، وغطس بحذر داخل الطائرة.

twitter @baghdad_library

دروس الإنكليزية القديمة

ذات مرّة وأثناء عشاء في شيكاغو كشف لي عن ندبةٍ عميقة في جبهته - بل جعلني ألمسها- عند مفرق الشعر حيث كان قد تسبب بارتطام رأسه .

"ماذا فعلتَ عندما حدث ذلك؟"

"ماذا تظنّ ، أخرجتُ ساعتي الذهبية ، نظرتُ إليها ، وبعدما رأيت أنها ماتزال تعمل ، قلتُ في نفسي : "لا بدّ أني مازلتُ على قيد الحياة ."

في شقّتي في شارع بارغوي التي تبعد فقط حارةً واحدة عن (الابلازا دي سان مارتين) حيث يسكن بورخس، كنت منهمكاً في الكتابة وسط فوضى غرفتي المعتادة. في الليلة السابقة كنتُ قد عملتُ طوال الليل. إني أشتغل على ترجمة قصيدة "سبينوزا" وهي سوناتا عن يهودي عجوز ينظّف نظّارتيه في غيتو هولندي حيث تفوح من الجدران والحدائق رائحة زهور الياقوت والظهيرات اللامتناهية. كنتُ حذراً بل قلقاً حول كيفية ابتكار قوافٍ تامّة، وليس أنصاف قواف. ذات مرة، وبعدما استعرضنا قصيدة كاملة، أرسل بورخس بحصافة محرره كارلوس فرياس ليخبرني بأنَ القوافي الداخلية التي كنتُ قد أدخلتها لم تكن صحيحة. كان يريد بالضبط قوافٍ دقيقة، rima consonante.

ورحتُ أدافع عن نفسي قائلاً بأن إميلي ديكنسون ابتكرت قوافٍ

twitter @baghdad_library

محرَّفةً وجاء ويلفريد أون واستخدمها. لم يكن بورخس يدرك تماماً أنه في الإنكليزية في أيامنا هذه تكون القوافي الداخلية هي الأكثر شيوعاً من ...

"حاول أن تضاعف جهودك،" قاطعني فرياس وقال هذا ماقاله له بورخس ليوصله لي.

قلقٌ قليلاً، كما أنا دائماً عندما أكون بصدد الإشتغال على نسخٍ من قصائد بورخس. وفي نفس الوقت أنا متشوق دائماً للنظر (عبر شعره ونثره) للمرة الأولى في النظام المجهول لباسيليدس، هذا الغنوصي الملعون، متشوق للنظر في مراتبه الثلاث مائة والخمس والستين (٣٦٥) من السماء، وفي تلك الأبراج الشاهقة ووفرة ملائكتها. ذاك هو المختبر الذي كان يشتغل فيه بورخس، في الإسكندرية أو بوينس آيرس، رمزاً للرجل الفقير على الأرض وقد وقع في مصيدة ظلّه الفلكي تحت السماء الشاسعة والمحايدة. وهنا يقوم هذا المفبرك والهرطوقيّ المطلق بحبك أفعاله وأسمائه بعضاً ببعض، مبتكراً عوالم شبيهة تنقذنا من الله والأبدية.

يرنّ الهاتف. أصطدم بالقهوة. إنه بورخس منزعجاً.

"هل تستطيع أن تأتي حالاً؟"

"نعم."

"حسنٌ، وعلى جناح السرعة،" قال بثبات وغبطة شيطانية. كان بورخس يحبّ العامية الأمريكية لكنه أحياناً يقدم الأعذار عندما كان يظن أنه يسيء استخدامها. وأنا أيضاً شعرتُ الشعور ذاته عندما طلب مني أن أردد كلمات "فرانكي وجوني" ولم أستطع أن أتجاوز جملة

"فرانكي وجوني عاشقان".

"ماذا هناك؟" قلت.

"إنها تلك المحاضرات التي يجب أن ألقيها في جامعة ميتشيغان. لا أستطيع بأي حال أن أقدم عشر محاضرات. هذا عدد كبير. لا أظنّ أنني أرتقي إلى هذا."

"دعنا ننقص بعضاً منها. خمس أفضل، كلاّ؟ أنا في الطريق إليك."

كانت ظهيرة يوم أحد عندما مشيت باتجاه سان مارتين إلى شقة بورخس. وعلى الرغم من الحرب القذرة فإنّ هذه مدينة مشّائين، سواء في الرابعة بعد الظهر أو في الرابعة قبل غبش الفجر. إذ بالكاد يوجد شارع خالٍ في هذه العاصمة، والمقاهي والأكشاك مفتوحة دائماً لخدمة المارّة. في كلّ أوقاتي الليلية في الخارج أحب أن أصطحب كتاباً أو عملاً ما معي إلى بار أو مقهى محلي وأقضي ساعة أو اثنتين هناك أقرأ وأكتب. في تلك الساعات خصوصاً ليس بعيداً عن المألوف أن يسمع المرء انفجار قنبلة تنسف بناءً أو مشغلاً، والتي عادةً نقرأ تفاصيلها ودراماها في الصباح التالي. كانت من إحدى عاداتي أن أقرأ الجرائد، والتي غالباً ماكانت تكتظ بالموت والترقّب، فيما أتناول قهوة الفطور في إحدى مقاهي شارع بارغوي أو كورينتس. لكنني الآن أشق طريقي في الزحام فوق الأرصفة الضيقة لهذه الحارات الكائنة في قلب المدينة. برودة ورطوبة آب كانت قد ولت، وفي أيلول كنت أستنشق هواءً ربيعياً نقياً ممزوجاً برائحة أزهار الشوارع والتبغ والأبخرة، وها أنا أصل إلى شارع مايبو ٩٩٧ وأتجه إلى البوابة الحديدة للبناية المحترمة التي تقع فيها شقة بورخس.

twitter @baghdad_library

كم من المرات أتذكّر بورخس يتخبّط مع مفاتيحه في آخر الليل لكي يفتح البوابة السوداء بعد مشوار طويل عبر شوارع المدينة. بعد الكتابة تأتي الصداقة بين متع بورخس، حيث التسكع وتبادل أطراف الحديث مع صديق تمثّل أكثر تعبيرات الصداقة حميميةً. أما بالنسبة للمفاتيح، فثمة مفاتيح حقيقية للدخول إلى المبنى، أما مفاتيحه الأخرى فهي الجبر والكلمة والحرف الضائع، "والمفتاح الغامض لكلّ سنواته" الذي كان سلفه فرانسيسكو دي لابريدا قد اكتشفه في عام ١٨٢٩ عندما اخترقت السكين العزيزة حنجرته وقُتل لابريدا على يد عصابة من القتلة بأوامر من الديكتاتور روساس، فهد السهول.

وبورخس يظنّ نفسه مفتاحاً سينسلّ ذات يوم إلى الداخل ويدير القفل. وسوف يسجّل هذه الإستعارة لاحقاً في ميتشيغان وفي سوناتا بعنوان "المفتاح في لانسينغ الشرقية":

أنا مفتاحٌ ثَلُمَ فولاذُه.
عمري المعوجَ لم يُصكّ عبثاً.
أنام نوماً غامضاً في مسيلات لاأراها
والتي أنا فيها سجينٌ محاصرٌ بالمفاتيح.
قفلٌ أكيد ينتظرني في الداخل.
إنه فريد، وبابه مصنوع من فولاذٍ مغشوش
وزجاجٍ كتيم. في الداخل، جاهزاً لكي يظهر
نفسَه، هناك البيت الحقيقي المخبوء. عميقاً

في الشفق المتلعثم المهجور
ثمة مرآة تمعن التحديق في صور الموتى. في هذه المتاهة
ذات يوم سوف أندفع باتجاه الباب الصخري
وأتسلل إلى الداخل وأدير القفل.

وأنا أصعد الدرج الحلزوني كنت أفكّر كيف أن بورخس في إحدى الأماسي في الثلاثينات، وتحديداً عشية عيد الميلاد، كيف أنه كان يهرول على الدرج وفجأةً أحسّ بانتفاخ في جلدة رأسه. كان قد ارتطم رأسه بدرفة النافذة. ونتيجة ذلك دخلت نثرات من الزجاج في جلدة رأسه. بالنسبة له الأدراج هي دائماً حجة للحديث عن دانتي والهبوط إلى الجحيم. عندما سقط على الأرض في ذلك المساء الشهير لم يكن متأكداً أين كان. كان جرحه قد تسمَّم بالبكتريات وظلّ يتأرجح لأكثر من شهر بين الحياة والموت في المستشفى. ذات مرة، وأثناء عشاء في شيكاغو جعلني ألمس الندبة العميقة في جبهته عند مفرق الشعر حيث كان قد اصطدم رأسه.

"ماذا فعلت عندما حدث ذلك؟"

"ماذا تظنّ، أخرجت ساعتي الذهبية، نظرت إليها، وعندما رأيت أنها ماتزال تعمل قلت في نفسي: لابد أنني على قيد الحياة."

نُقل بورخس إلى المستشفى. لم يكن جرحه قد تأزّم قبل خياطته. وظلّ فاقد الوعي لبضعة أيام، وأجريت له عملية جراحية في منتصف الليل. عندما استعاد وعيه للمرة الأولى بشكل جدي بدأ بكتابة النثر. قبل ذلك كان يكتب الشعر والمقالات فقط ولكن ليس النثر. قصة

twitter @baghdad_library

"الجنوب" بمستويات الحلم فيها تتحدث عن عملية طبية وعن مشارط حادّة، عن جوان داهلمان، مالك المزرعة المنحدر من أصول عسكرية وجرمانية، وشجاراته الغامضة بالسكاكين، وبورخس، الراوي المهيمن. جميع هذه العناصر انبثقت من تجربة المشفى تلك. الحدَث الأول في قصة "الجنوب" يتضمن شراء داهلمان لنسخة من كتاب (ألف ليلة وليلة)- وهذا ليس بعيداً عن أحد نظراء بورخس- حيث ينطلق مسرعاً على الدرج المعتم ويصدم رأسَه عصفورٌ وربما خفّاش. غير أن جرحه الخطير جاء بسبب بابٍ (وليس نافذة كما في تجربة بورخس الحقيقية) تُركَ مفتوحاً على الدرج. يُنقل داهلمان ضدَّ إرادته إلى مصحّ، حيث ينقذه جرّاحٌ من الموت نتيجة تعفّن الجرح. وتتالى بعد ذلك تفاصيل رحلة القطار باتجاه الجنوب عبر سهول البامبا المعشوشبة، وتناول وجبة في أحد المحلات العامّة، والتحدّي الذي يواجهه على يد رجل أخرق مع تلميحاتٍ عن دم صيني، والخنجر العاري في يده وهو يحاول الهرب عبر الباب، وحلمه حول مواجهةٍ مزدوجة مع الجرّاح أوالرجل الأخرق حيث يقاتل ويفوز بحريته عند السهل تحت السماء المفتوحة. في تلك القصة المبكرة عن سهول البامبا المعشوشبة- أم أنها كانت تجري في المصحّ؟- تتجلى بوضوح العناصر الثمينة لإسلوب بورخس وفكره: الكتاب، السكين، متعة القصّ والحدث، اختيار المعرفة عبر رسائل أو فعل عسكري تتخلله برقية مجهولة عن موت محقق.

كان بورخس يقف وراء الباب عندما صعدتُ إلى الشقة رقم ٦. ودون عكاز كان يتكئ على جانب واحد، واقفاً (كما قال إ. م فورستر عن كونستانتين كفافي) بزاويةٍ خفيفةٍ تجاه الكون. لم يكن يرتدي معطفاً

وبدا شاحباً مع رجفان خفيف في قميصه الأبيض الناصع. ابتسامته كانت عريضة.

"مرحبا."

قادني إلى الطاولة، على الرغم من أنني، كما دائماً، أنا الذي كنتُ أقوده. جلسنا وبدأنا نتصفّح قائمة من عناوين تلك الأحاديث التي سيلقيها في ميتشيغان. خادمته الغورانية أحضرت لنا الشاي، والمكسّرات التي كنا نلتهمها بنهم. وبسبب عماه لم يكن سهلاً على بورخس أن يأكل بتناوب منتظم، لكنه كان يستمتع بأداء تلك المهمات الصغيرة في أخذ الشاي والمرطبات، والتي يستطيع التعامل معها دونما اكتراث. كان دائماً يتصرف كشخص نبيل، وبنفس النبل، سواء أكان على مائدة خضروات ولحوم، أو وهو يتحدث بصوت عميق رنّان بالإسبانية، الفرنسية، الألمانية أو الإنكليزية على منصة أمام الآلاف من الحضور، أو هو يقرأ قصيدة عن خوان مورانا، رجله الإسباني المفضّل وأمهر لاعبي السكين. إنّ مايمتّع بورخس أكثر من أي شيء آخر على هذه الطاولة هو فطوره المكون من نثرات الذرة المجففة، والتي يعتبرها اكتشافه الخاصّ في شمال أمريكا.

عندما بدأنا العمل وجدت نفسي مرتبكاً، لأنني لم أكن متأكداً من الإملاء الصحيح لكثير من الكلمات، في حين كان بورخس، على الرغم من حبه للعب بالكلمات، يكتفي ببعض الإقتراحات المنغّصة عمداً حول فيما إذا كنت أعرف تهجية إمانويل سفيدبرغ (الذي كنتُ أعرفه فقط من خلال اسمه الأخير الشائع، سويدنبرغ).

استطعنا أن نجهّز ببطء خمسة عناوين جيدة للأحاديث. في إحدى المراحل اتجهنا للحديث عن النساء. خلال الأشهر الماضية كان بورخس

twitter @baghdad_library

يحب التحدث معي حول نساء عرفهن يوماً أو يعرفهن الآن. لا أدري لماذا. كان لديه الكثير من الصداقات النسائية، وجمعيها أدبية، حسب مؤرخ سيرته أمير رودريغيس، ماعدا زيارة أو اثنتين في شبابه إلى مباغي جينيف- وكانت بمثابة تهيئة للحياة الجنسية للشباب في جيله. نساء الأدب كنّ مؤلفات مشاركات للكتب، صديقات سفر، قارئات وناسخات لأعماله: شخصيات أخوات بما في ذلك أخته، نورا؛ وشخصيات أمّهات بما في ذلك أمه ليونور، التي كانت خلال القسم الأعظم من حياته أنيسَه الأقرب والتي عاش معها أكثر من ثلاثين عاماً في هذه الشقة حتى وفاتها عن عمر ناهز التاسعة التسعين. وأوقفت أمه ليونور زواجه من معاونته الأدبية الأصغر سناً بكثير ماريا إيسر فازكويز، لكنه عاد وتزوجها في "عودة لاتُصدّق" في عام ١٩٦٧ ، وذلك بعد أربعين عاماً من علاقة العشق القصيرة الأولى بينهما. يعلّق مونيغال في كتابه (خورخي لويس بورخس) قائلاً: "بعد مضي عدة سنوات حطّم بورخس قاعدة صمته وأسرّ إلى ماريا فازكويز بأنه من الأشياء الغريبة التي اكتشفها في إلسا هي أنها لاتحلم. وكونه كان نفسه حالماً لابد أنه اكتشف بأنّ عدم قدرة إلسا على الحلم جعلت كل منهما بعيداً عن الآخر، وبلا أمل."

لم تكن نساء بورخس- إذا كان مونيغال والآخرون على حق- عشيقات، ولم تربطه علاقات حبّ عميقة أو مطولة مع أيّ منهن، باستثناء ماريا فازكويز. مرة كنت أتناول الطعام مع بورخس بصحبة ماريا (بالطبع بعد طلاقه من إلسا)، وكان ذلك، كما دائماً، في مطعم مكسيم. وأسرّ لي أنه ظلّ بشكل خاص مفتوناً بصديقته وخطيبته

السابقة. ولكن، وعلى الرغم من محدودية مخزونه في التعامل مع الجنس الآخر، كان بورخس يحبّ النساء، ويحبّ أن يبقى معهنّ بشكل دائم، وأن يعمل وحيداً معهنّ، وأن يبادلهن الثقة والصداقة (مثلهن مثل الرجال) أيضاً.

لايمكن للمرء أن يوغل أبعد من ذلك في تأمّل حياته، ناهيك عن تأمل كتاباته، وذلك من أجل أن يلبي رغبته بوجود قصص حبّ في حياته. كان بورخس شخصاً خاصّاً يحمل مفاتيح وجوده لوحده. هذا لايعني القول إنه لم تكن لديه غزليات خاصّة، وافتتانات كثيرة. وكيف يمكن أن يكون العكس؟ في أوائل الثمانينات من عمره وقع في غرام محاسبة صغيرة في مكتبة ديلا سيداد، ووجد أعداء مباشرين بين من كان يرعاه من النساء مثل فاني وأناليس وبالطبع ماريا كوداما. في نهاية المطاف، سوف تبدّل ماريا كلّ التعميمات المتعلقة بحياته العاطفية مع النساء. وسوف تكون الذروة لحالة اكتشاف الحب.

والآن يحكي لي بورخس أنه أُعجب حقاً قبل مدة طويلة بسوزانا بامبل. وقد اقترح عليّ أن أذهب إلى غرفة نومه للنظر إلى صورة فوق مشجب الثياب. هناك سأجد صورة مؤطّرة للروائية التشيلية التي كان قد نشرها في مجلة (Sur) قبل ثلاثة عقود على الأقلّ. "امرأة جميلة جداً،" يعلق قائلاً.

عبرتُ الردهة المظلمة باتجاه غرفتين للنوم. في الغرفة الواسعة المفتوحة للهواء في أقصى الشقة، والتي تبدو كأنها غرفة عروس، ظلت تنام والدته حتى وفاتها قبل بضعة أشهر فقط. هذه الغرفة ظلت غير مسكونة. بعد وفاتها راح يشعر ثانية بأنه ذاك الفاشل الذي تعود أن

twitter @baghdad_library

يشتكي من وجوده. لم يكن يستطيع أن يكون سعيداً. مع ذلك، كانت مفارقة واضحة أنه أثناء تلك الفترة كان قد بدأ يحقق وجوده ككاتب، ويصبح باطّراد ذاك الرجل المعروف الذي اختلطت صورته تماماً- كما في قصته الشهيرة "بورخس وأنا"- مع شخصية الشخص الخاصّ المتأمّل.

هكذا يصبح بورخس رمزاً للمفارقة والتناقض. كإنسان خاصّ هو شخص يعيش وحيداً ويستمتع بتأملاته و"عاداته"، ويدعي أنه لايهتم بالموت بل إنه يرحب به، حيث سيحرّره من الحياة والآخرة معاً. أما خوفه فأن تكون الآخرة حقيقية، وهذا يعني عذاباً أبدياً، طالما أنها ستكون كالحياة نفسها، وها هو قد نال منها مايكفيه. مع ذلك، ما إن يتأمل العذاب والكوابيس حتى يقرر التحاور معها. يهرب إلى السلام، وإلى وداعة التأمّل والإبتكار. إذ لايمكن لهذا البورخس الخاص الذي يدّعي بأن الحلم حالته الطبيعية والكابوس نومَه، والذي يمجّد أحياناً أسلافه الجنود في الوقت الذي يحتقر فيه عسكر بلاده، لايمكن له إلاّ أن يكون روحاً خليطاً. إنه الكاتب العام الذي يشتغل على خصوصية إلهامه، ويتأمل فانتازياه في عزلته، يحاكم فلسفياً، ثمّ يهوي في براثن بؤسٍ شخصي.

سوناتا "الندم" التي كتبها إلى والدته بعد وقت قصير من وفاتها تعكس تلك الأشهر التي لم يستطع فيها أن يهرب من بورخس اليائس. يصف شخصية "تمنح عقلها لعناد الفن" لكنها ترتكب أسوأ إثم يمكن أن يقترفه انسان: اللاّسعادة. تُختتَم القصيدة بتأكيد ندمه:

إنه لم يهجرني أبداً منذ أن بدأتُ:
ظلّ يذكرني بأنني كنتُ رجلاً متأملاً.

أدخل غرفة والدته التي لم تُستخدم منذ وفاتها. كانت غرفة مرحة ومغمورة بالشمس. في وسطها يقبع سرير ليونور، وينتصب عالياً وناصعاً بهيئته الصّريحة. نافذة الغرفة تطلَ على أبنية قوطية مرمّمة من القرن التاسع عشر. ربيعٌ بهيج يتوهج فوق هذه المنطقة التي تجمَّد عندها الوقت في أسفل الكرة الأرضية، معزولة عن أصلها الأروبي، ومحتفظة بعمارتها الأنكلو-فرونكوفونية لهؤلاء المهاجرين الإسبان الأوائل والطليان الحديثي العهد. لم يكن ثمة من أثر للعالم الجديد علىٰ أية حال؛ ولا آثار للبنى الهندية ماقبل كولومبس. تلك الحضارة اندثرت (أو أنه لم يُعترف بوجودها)؛ الكثير من الإرجنتينيين يقولون بأن الثقافة الهندية كانت موجودة في الشمال، في البيرو وأمريكا- العصر الوسيط. عاصمة الإرجنتين اسبانية بشكل سطحي كولونيالي، على نقيض النهضة الإسبانية القوية والعمارة الباروكية في مكسيكو سيتي أو سيوزو أو كويتو. في عاصمة جمهورية البامبا تطغى الهندسة المعمارية الأنكلو- فرونكفونية الأروبية المنحدرة من القرن التاسع عشر. وإذا كانت بوينس آيرس تفتقر للحارات الملونة التي عاش وكتب في كنفها كويفدو وسرفانتس ولوب دي فيغا، والتي ماتزال تحتفظ بشقققهم الأصلية، وبلوحات أبوابهم النحاسية، وبمحيطهم، إلا أنها تحتوي على الطاقة الضاجة لمدينة غران فيا في مدريد وبأبنيتها الحجرية الممتلئة وبواجهاتها المميزة، والتي تعود في معظمها إلى حالة القرن التاسع عشر حيث كانت تهيمن السياسة والتقدم السريع.

وثمة جزء من المدينة أيضاً يمثل مقبرة لاريكوليتا، الشبه باروكية، والتي تليق بمدينة كباريس. بورخس يكرهها، على الرغم من أنه في

twitter @baghdad_library

ديوانه الأول (توهّج بوينس آيرس) كتب تأملات مؤثرة عن "بلاغة الظلّ والمرمر" فيها، وعن أخطائها وحيرتها حيال الموت والسلام. عندما ذكرت ذات مساء، بأنني أمضيت ظهيرة كاملة هناك، اضطرب بشكل غريب جداً وتحدث عن "ذاك المكان ذي الذائقة الرديئة الذي أُعطي لأجداده كمكان للدفن أو ما كان قد سمّاه (المكان الرمادي.) كانت ردة فعله على المقبرة عنيفة تقريباً على الرغم من أنها ماتزال تسحره وتغريه لاحتقار طبيعتها.

"لاريكوليتا. ياله من مكان موحش مرعب! كلّ تلك الأبهة من المرمر الباروكي هي جانب فظيع من ماضينا العسكري."

من غرفة والدته أذهب إلى زنزانة بورخس الصغيرة. إنها تقريباً مظلمة بالكامل، ماعدا بضع نتفٍ من شعاع الضوء تتسرّب خلف الستائر. أذهب مباشرةً باتجاه النافذة لكي أسمح بدخول القليل من الضوء إلى الغرفة، وعندما أرفع أحد الأباجورات الفولاذية والخشبية، والذي يبدو أنه لم يُحرك منذ سنوات، يأتي الضوء حراً من النافذة ويهبط صدئاً وضاجاً على الأرض. في التوهّج المباغت للضوء أشعر بقليل من الفزع، بل ينتابني خوف لصٍ قبض عليه بالجرم المشهود. ها إنني هنا، أنهبُ غرفة نوم بورخس. أنصرف إلى وضع الأباجور على قاعدته بشكل صحيح وأكتشف ضوءاً يتسلل فوق الرأس. لم يكن يوجد أي شيء في هذه الزنزانة سوى سريرٍ نقال ومشجب ملابس مع صورة لسوزانا بومبال.

على طاولة المرآة أرى صورة لامرأةٍ شابة جذابة، تبتسم لبورخس كما أعتقد. هذه واحدة من بين الكثيرات من نسوة الأدب اللواتي جذبهن

الشاعر حوله طوال حياته، لكنه كان الغائب كموضوع من كتاباته. فقط في سنواته الأخيرة، وعبر حضور ماريا كوداما، بدأ يظهر عنصر رومانتيكي دفين في قصائده.

كان السرير النقال المركز الأدبي لهذه الغرفة، ذلك أنّ الأحلام والكوابيس- وليس الحب الرومانسي والحسي- كانت الهاجس المركزي في كتابات بورخس. وعندما أحدق في السرير أفهم لماذا كان الشاعر فريسة للكوابيس والإكتئاب بغض النظر عما يمكن أن يجول في خاطره. من يستطيع أن ينام خلال الليل على ذلك الفراش المتحرك وغير المتوازن المسنود على نوابض رقيقة مهلهلة؟ غير أن تلك الآلة العاطلة للنوم خدمت بورخس بشكل جيد. لقد ساعدت في منحه الأفق السفلي، وعالم الجنوب الغامض في قصة الحلم-الواقع المعنونة بنفس الإسم، أو بكتابة هذه القصيدة النموذجية الجميلة بعنوان "كابوس" التي يستحضر فيها مرآةً أخرى لذاته. من هو الملك القديم، من النروج أو هولاندا، الذي يستولي على خياله حتى في وضح النهار بعد استيقاظه؟

حلمتُ بملكٍ قديم. تاجه
من فولاذ ونظرته ميته. لاتوجد
وجوه مثل هذه الآن. ولطالما
حرسه سيفه المتين، المطيع ككلبه.
لاأعلم فيما إذا كان من النروج
أو من هولاندا. لكنه من الشمال، وهذا أعرفه.
لحيته الحمراء المشدودة تغطي صدره. ولكن، لا،
تحديقته العمياء لاترمي بنظرةٍ نحوي.

twitter @baghdad_library

من أية مرآة منطفئة، من أية سفينة
فوق بحارٍ هي براريه المقامرة،
يمكن لهذا الرجل، الحزين والمكفهر، أن يغامر برحلته
فارضاً عليّ ماضيه ومرارته؟
أعلم أنه يحلم و يقاضيني، ويقف
متوثباً. الليل يدرك النهارَ. لكنه لا يغادر.

وفيما أقف وسط الغرفة، أرمق الشيء المركزي الوحيد الذي خدع انتباهي، قرب الصورة وفوق المشجب. المرآة. ماهو الأهم بالنسبة لبورخس؟ المرآة، يعلن بورخس، هي مصدر الشهوة والوحي؛ إنها تعطي هذا وذاك، تشوّه وتسرد الكلمة، إنها مزيفة ولانهائية. إنها كل شيء يحدث ولكن لاشيء معها يمكن تذكّره، لايمكنها التمسك بالزمن، وهي محرومة من الذاكرة، إنها دائماً وفقط الآن- مثل الزمن الخارجي نفسه. المرآة تُقرأ من اليمين إلى اليسار مثل نصوص الحاخامات. أرى الشاعر الأعمى يتلمّس المرآة بحثاً عن إشعاعات لنفسه في قصيدة (الأعمى):

لا أعرف الوجه الذي يلتفت إلي
عندما أنظر في المرآة، كما لا أعرف
ذلك الرجل العجوز الذي يتآمر في ألق
المرآة، صامتاً، مع غضبه المتعب.
بطيئاً مع ظلي، بيدي أتلمس
ملامحي اللامرئية. شعاع خاطف
يصلني، بريق من شَعرك يميل إلى البياض،

بعضه بلون الذهب. إنني لم أخسر أكثر
من السطوح العقيمة للأشياء.
هذا العزاء له تأثير عظيم،
سعادة نالها ميلتون من قبل. ألجأ
للحروف والوردة- لتجوالاتي.
أعتقد لو أنني كنت أستطيع أن أرى وجهي
كنت عرفت حالاً من أنا في هذه الظهيرة النادرة.

في هذه الغرفة، وبين ممتلكاته الأساسية القليلة التي تؤسس حياته- صورة حلم الشباب داخل إطار نحاسي؛ النافذة المغلقة في وجه الضياء الربيعي؛ المرآة بتحديقتها الليزرية؛ السرير كمهدٍ لأحلامٍ بريّة؛ كابوس "رايدر"، والملحمة النوردية- نجد بعض المكونات الجوهرية لحياة بورخس وكتاباته.

ومن بين الخرافات الشائعة بين العديد من قراء الشاعر الذين عرفوه من خلال أفضل قصصه القصيرة ومقالاته وبعض من قصائده المبكرة، أن بورخس كاتب ذهني، وشاعر ميتافيزيقي، ومحلل لأفلاك باسكال، ومخترع لآلات الذاكرة. هذه الصورة للكاتب والإنسان هي في أحسن الأحوال نصف الحقيقة. الأكاديمي والمدرسي الساخر، وميتافيزقي الوقت ومفكك الرسائل القابالية وأنظمة الإشارة التي يُرى فيها الكون كتجسيد للغة، يمكن أن يكون لها معنى فقط إذا عُرف بورخس الآخر، وأدركنا المصداقية المرنانة لكاريكاتير المتعلم ومدمن الكتب المقدسة. فكما أنَ اسمه مكتوب في صيغة الجمع - - Borges وليس - - Borge ولايُقفَى

twitter @baghdad_library

على أيِّ شيءٍ آخر سوى اسمه الأول مضاعفاً- Jorge - فإنّ بورخس نفسه جمعياً. وهكذا، فبالإضافة لرياضي الوقت والمعلم الذهني، العاطفي والمؤتمن بشكل مكثف، ثمة الرجل الحكيم والهادئ بشكل حصيف والمتصالح مع نقاط الضعف الإنساني، ومع عالمٍ بلا ألوهة، يوحي دائماً بطلسميته لكنه في الوقت ذاته يخفيها باستمرار. ثمة بورخس صاحب الماوراء الإمرسوني العرفاني الأرضي، وثمة بورخس الإنسان (لنستخدم وصفه هو للتجربة في قصيدة "سبينوزا"، كواحدة من قصيدتين عن اللامنتمي الهادئ المفضّل لديه للسماوات المرسومة) الذي ينتظر في قبو عماه الأرضي، حراً من طغيان الإستعارة والخرافة:

هنا في هذا الشفق، اليدان الشفافتان
لليهودي تلمعان المرآة الكريستالية.
باردة هي الظهيرة المحتضرة
مع فلول الخوف. كل يوم تمر الظهيرات
متشابهة. اليدان وفسحة ورد الياقوت
التي تصفرّ وسط دوائر جدران الغيتو
تكاد لاتوجد بالنسبة للرجل الهادئ الذي يتعثّر
هناك، حالماً بمتاهات ساحرة.
الشهرة لاتقلقه
(ذلك الإنعكاس للأحلام في حلم مرايا أخرى)
لايقلقه الحب، حب النساء المذعور. لقد ولت القضبان،
إنه حر من الإستعارة والخرافة، يجلس الآن

ملمعاً عدسات عنيدة: الخريطة اللامتناهية
للواحد الذي هو الآن جميع نجومه.

وبورخس أيضاً سليل رجال عسكريين، يحلم بدانماركيين تاريخيين يقومون بغزو اسكتلندا والنورمانديين على متن سفنهم الزرقاء عبر توابيت البحار، ويحلم بأبطاله القدامى، بمن فيهم أكثر من كولونيل يحمل اسم بورخس، حاربوا وماتوا عبر سهول البامبا خلال تلك الحروب المعقدة في القرن التاسع عشر.

كان بورخس معجباً ببعض الشخصيات العسكرية وفي نفس الوقت يحبَّ جيرانه الطائشين وأولئك المبارزين بالسكاكين الذين يسكنون قصصه المكتوبة عن العوالم السفلية. لكنه بالطبع سوف يهجر وسطاء العنف أولئك- الرسميين منهم ممن ينتمون إلى الدولة، والخارجين عن القانون من روّاد الحانات. سوف يتوقف عن الكتابة عن حياة القتلة، وفي نهاية حياته، بعدما اعترته الخيبة، سوف يتنصّل من ماضيه العسكري، ذلك أنّ هؤلاء الأسلاف أعطوا الإرجنتين جنرالاتها الدمويين خلال الحرب القذرة ضدّ المتمردين.

وثمة بورخس سليل الكتب والقلم والمكتبة الأكثر شهرة، رجل العكاز وليس السيف، بورخس الذي يمشي مع الأصدقاء في كل مدينة من العالم، المتكلم الجماهيري الذي يتحدث إلى مستمعين يريدون أن يسمعوا الرجل العجوز يبوح بأسرار بورخس. وثمة أخيراً الأعمى الوحيد، المحشور في خلوته، بدون مرآة تسعفه، حيث عقله الذكي لايسمح له بإقامة هدنة مع الأبدية. هذا الشخص بعينيه الباحثتين الميتتين يستحوذ على كتبه الخمس الشعرية الأخيرة، بما في ذلك عناوين

twitter @baghdad_library

من مثل (في مديح ظلّ) و(تاريخ اللّيل).

في الوقت الذي أعود فيه إلى غرفة العشاء حيث ينتظرني بورخس تكون ساعة البدء بدرس اللغة الإنكليزية القديمة قد أزفت. إنه العام ١٩٧٥ وكان بورخس قد تقاعد من واجباته الرسمية في جامعة بوينس آيرس حيث أمضى هذا الفارَ من الدراسة الثانوية أكثر من عقد من الزمن كبروفسور للأدب واللغة الأنغلو-ساكسونية. عندما أتى بيرون إلى السلطة وطُرد بورخس من عمله المتواضع كمدير للمكتبة، كان آنذاك في الخمسينات من عمره، عقد العزم على إعطاء المحاضرات كوسيلة للعيش. كما أنه تصدى للأدب الأنكلوساكسوني أو الإنكليزية القديمة كما يفضل أن يسمي تلك العادة. بدأ بتدريس الإنكليزية القديمة في الجامعة وألف كتاباً عن الآداب الجرمانية حيث كرّس أكثر من ثلثيه لمناقشة الإنكليزية القديمة والكتابات الاسكندنافية.

غالباً ما كان بورخس يطلق دعاباته عالياً حول الأسباب الداخلية التي جعلته يتعلم لغة الساكسون الجلفة، ويضيفها إلى "ذاكرته المتعبة" لتوها. غير أن ثمة سبباً آخر لتعلم الإنكليزية القديمة وأشعارها السردية المتماسكة. عزلته الخاصة، بعدما اغتنت بتلك الكلمات المجهولة، دفعت روحه أقرب فأقرب إلى الكون الباطني:

قصيدة منسوخة عن بيولف

في بعض الأوقات أسأل نفسي عن الأسباب،
أثناء لياليّ المتسكعة، التي تجبرني الآن
على أن أبدأ (دون أن أقدم أية معجزة
أو مهارة) على تعلم لغة الساكسون الأجلاف.

ذاكرتي التي أتعبتها السنون
تسمح لكلمات مكرورة عقيمة
أن تنزلق بعيداً، مثلما حياتي تطوق أولاً
ومن ثمّ تطلق سراح تاريخها المتعب.
أقول لنفسي لابد أنها تلك الروح،
بطريقة سرية وكافية،
تدرك بأنها لانهائية، وبأنّ دائرتها
الواسعة والكئيبة تحاصر وتحتلّ كل شيء.
فيما وراء التوق ووراء هذا الشعر
بلا نهاية، هاهو ينتظرني: الكون.

كان بورخس يعطي دروس الإنكليزية القديمة في أمسيات الأحد. كانت تستمر لمدة ساعتين ومن ثم يذهب بعدها إلى العشاء مشياً كعادته إلى مطعم أدولفو بيو سيزار. كنت أواظب على حضور الدروس بين الحين والآخر ولمدة خمسة أشهر. كان الطلبة نظاميين: سيدة انكليزية هي صديقة قديمة، بعض الطلبة السابقين في الجامعة الذين يشغلون الآن مناصب متواضعة في الحوانيت أو البيرقراطيات المحلية؛ وماريا كوداما التي كانت تنهي اطروحتها للدكتوراه في الإنكليزية القديمة. كان المناخ آسراً.

يجلس بورخس على الأريكة تحت نوافذ غرفة الجلوس. أولاً يقوم باختيار بعض النصوص من الإنكليزية القديمة أو من النورسية القديمة (وفي بعض المناسبات التي لاتخلو من المجازفة) من الأيسلندية القديمة.

twitter @baghdad_library

إلى جانبه، حاملاً الكتب ذات النصوص القديمة، يجلس بابلو، ويري بورخس سطراً سطراً ماتقرأه المجموعة، وكأن بورخس يستطيع أن يتهجّى الكلمات. كان يبدو على بورخس بأنه يشاطرهم القراءة، لكنه بالطبع يعرف معظم الأعمال عن ظهر قلب. حقاً، لقد كانت لديه مقدرة على تذكر النصوص لدرجة أنني غالباً ما أردتُ أن أسأله فيما إذا كان يعذب نفسه في قراءة النصوص بينما يحاول أن يجعلها تنطبع في ذاكرته.

بعد الدرس يسأل بورخس عن القصص التي تتوجب قراءتها من الإنكليزية. العديد منا طُلب منه قراءة إدغار بو أو هوثورن أو جيمس. وعلى الرغم من أنّ شوبنهور هو القراءة المفضلة لبورخس مساء كلّ خميس، أتذكّر أنّ "عادة القراءة" المفضلة لديه (لنستخدم تعبيره) تتضمن مؤلفين من النهضة الأمريكية في القرن التاسع عشر. وعلى نقيض الأغلبية الساحقة من كتاب الحداثة في قرننا، وجد بورخس عادته، أو عقار القراءة، لدى ملفيل وهوثورن، ديكنسون وإمرسون، وعلى رأسهم ويتمان. الفرنسيون وأوروبا كلها، حتى في وقتنا الراهن، اكتشفوا في أمريكا- أو اخترعوا- فقط إدغار بو و"غرائبياته الرؤيوية والدموية".

كان المناخ، كما أسلفت، آسراً. ربما كانت تلك الكلمة هروباً من وصف التفاصيل الرائعة لذاك الجو. الضحك يسود. يحب بورخس أن يضحك، ولكن لم يسبق لي أن رأيته يضحك بلا انقطاع مثلما كان يفعل وهو يستمتع بإيقاعات ومعاني تلك النصوص الشمالية، يشاطره بذلك أولئك المتحمسون للساكسونية القديمة في القطب الجنوبي. ولأنه معتاد على العمل يومياً، حتى وهو مسافر، كان دائماً يجد وقتاً لمتع معينة

مثل قراءة الإنكليزية القديمة مع طلابه السابقين.

"لماذا تعلّمتَ لغة هؤلاء الشماليين البرابرة الأجلاف؟" بهذه الكلمات كانت توبخه أمه. "لماذا لم تتعلم الإغريقية، لغة الناس المتحضّرين؟"

كان بورخس يحبّ البربريّ. كان يقيم أهمية قليلة للطبقة الوسطى في أيّ بلد (بالرغم من أنّ كلمة "بورخس" تعني "البرجوازية") وكان يبدو أنه لاينتمي معهم إلى نفس الوطن. كان يحب العالم السفلي لبوينس آيرس والضواحي الفقيرة والشرسة الشمالية للأرجنتين والأرغوي. هذه البقاع كانت في مخيلته خارجة عن القانون أكثر مما هي في الواقع، وتجارب شبابه الأولى التي بدأت برحلة إلى الشمال ورؤية رجل يقُتل صدفةً بالرصاص أمام عينيه، وقراءاته لشعراء التسكع في القرن التاسع عشر مثل أسكاسوبي وجوسيه هرناندس في كتابه (مارتين فييرو)، وكتاب البامبا، كرّس بورخس المرحلة التي سيصفها في السنوات الخمسين القادمة.

طالبه السابق بابلو يعمل الآن كمحاسب، وهو، كما يخبرني بورخس، لايشغل منصباً عالياً في مؤسسة البنوك. في أمريكا يعطي المحاسب انطباع الثروة المعتدلة والنفوذ والاوراق الموقّعة. وعلى الرغم من أن الإرجنتين بلد الموارد الطبيعية التي لاتنضب رغم الحكومات السيئة والحروب والجنرالات، فإنّ محاسب البنك على الأغلب رجلاً أو امرأة يجلس خلف كوة، يدرس أوراقاً كثيرة، يحسب ويوقع على شيكّات طوال النهار. راتبه منخفض. يرتدي بابلو بدلة تشبه ثياب الأحد التي يرتديها رجل فقير. بكنزته الأرجوانية الرثة- بعدما خلع سترته

twitter @baghdad_library

السودا ء- يجلس بابلو على الأريكة قرب بورخس. نظّارته الفضية تؤطّر عينين تلمعان بالذكاء وخفة الظل. كنا نتحدث تارة بالإنكليزية وتارة بالإسبانية، وكانت انكليزيته ممتازة. في مجتمع منقسم طبقياً (على الرغم من أنّ هذا ليس حاداً مقارنة مع سائر بلدان أمريكا اللاتينية) لم يكن بابلو من أسرة ذات شأن. وعلى الرغم من أنّ سكان الإرجنتين رحّالة كبار، فأنا متأكد أنّ بابلو لم يسبق له أن غادر جمهوريته.

سماء المدينة الملبدة بالغيوم تميل إلى لون الشفق، وترخي بظلالٍ دراميـة على وجه الشاعر العجوز. على يسار الأريكة تجلس السيدة الإنكليزية، وعلى اليمين ماريا كوداما التي تبدو كمخلوق ساحر اخترعها أخٌ لموديغلياني وماكس بيربوم. نصفها ياباني ونصفها الآخر ألماني. ماريا هي بيت أسرار بورخس، تابعتُه ومخلّصتُه و زوجة المستقبل. وعلى فراش موته سوف ترمم ذلك الخطأ المرعب أو الإثم المنغص الذي ارتكبه يوماً وهو أن يتزوج، ويتزوج بشكل خاطئ.

بدأنا أولاً بقراءة مزقة من فينزبوره، وهي الأبيات الخمسون الأولى التي تحكي عن التاريخ التراجيدي لهيلدبوره، أميرة الدانمارك، التي يموت ابنها وأخوها على جانبين متقابلين من هجومٍ غادر. وعندما أمضى المحاربون الدانماركيون خمسة أيام بحالها يحاربون كانت سيوفهم تبرق وكأنّ الحصون كلّها أُضرمت بالنيران. بعد ذلك قرأنا مقاطع من (معركة مالدون) وأدب الحيوان الأنكلو-ساكسوني. النمر هو يسوع المسيح، وتنهيدته قبل أن يُبعث ويلتحق بربه هي بلحٌ حلو. الحوت في رواية ملفيل (موبي ديك) هو الشرّ والشيطان، والبحّارة يظنونه جزيرةً وسط البحر. عندما ينزلون فوقه ويشعلون النار ليحضّروا الطعام، فجأةً يغطس جار المحيط ورعب المياه باتجاه القاع، متسبباً بغرق جميع البحارة. اسم

الحوت المناسب هو فاستيتوكالون.

يقوم الطلاب بعمل جيّد وهم يفكّون شيفرات النصوص. وعندما يعتورهم شكٌ يستنجدون بالمعلّم. ولكنهم أحياناً يغتنمون فرصة البحث عن المعلومات في إحدى موسوعات القرن التاسع عشر البريطانية التي يمتلكها بورخس أو في قاموس ساموئيل جونسون من القرن الثامن عشر- وفي حوزة بورخس نسخة نادرة منه. هذه الأفعال من البحث الأكاديمي تمتّع الجميع. أما التعليق فهو بمثابة الفاكهة بعد القراءة.

أحياناً كان بورخس يطلب مني أن أقرأ النصوص على الرغم من أنه يعرف أنه لم يسبق لي أن درست الإنكليزية القديمة. ربما كان يلومني لاستغراقي في دراسة اليونانية. (ولكن بورخس كان يحب لغة متوسطية قديمة أخرى، هي اللاتينية. كان يدعوها اللغة الرخامية ويدعي أنه من الأفضل أن تكون قد نسيت اللاتينية من أن تكون قد درستها على الإطلاق.) بالكاد قادراً على فك الحروف كنتُ أتعثّر عبر النصّ، يساعدني خورخي لويس، الذي كان واضحاً أنه يستمتع بجهلي. وكنتُ أستمتع به أيضاً. كان بورخس حفيداً لامرأة من نورثمبرلاند وبالتالي تربطه بالولادة حقوق بالإنكليزية القديمة. وهذه اللغة هي ببساطة الخطاب الأول لأجداده الأوائل. لم يكن في عروقي دم ساكسوني أو أنكلوكوني، حسب ما أعرف، غير أنّ هذا عذرٌ ضعيف لأجنبي متقاعس.

بعد الإنكليزية القديمة نتجه بجرأة إلى متعة غرائبية أخرى، وهي قراءة أعمال الكاتب الاسكندنافي العظيم والجبان سنوري ستورلسون (١١٧٨-١٢٤١). بورخس يحب ستورلسون وأعماله، لكنه يعشق اسمه بشكل خاصّ ويردده مرةً بعد أخرى. لقد كتب قصيدة عن سنوري

twitter @baghdad_library

يظهر فيها فهماً لجبنه في ظلام تلك الريح المالحة لآيسلندة في اللحظة التي يتسلق فيها البحر القريب (القاتل السرّي) باتجاه بيته.

وكأنه يريد أن يكافأني على جهودي المتواضعة في قراءة اللغات الجرمانية، يطلب مني بورخس أن أقرا من "دورة المسمار". أفعل ذلك ولكن بشيء من الإرتباك. وجاء المشهد حياً ثانيةً حين رحتُ أتعثّر عبر الإنكليزية الحديثة. ماريا تناكدني. بابلو يوبخني.

"أنت لاتتقن أية لغة، ويليس؟"

"عقلي في مكان آخر." أحتجّ.

"ويليس، إني أشفق عليك،" تقول ماريا.

كلّ هذا الإنتباه ينصبّ فوق رأسي. فجأةً تنقذني واحدة من أكثر الحوادث غرائبيةً. على الرغم من وجود وفرة من الإغتيالات المنظّمة في الشوارع ومن الضجة التي تدلّ على أنّ قنابل العصابات تنفجر، لم يكن في بيت بورخس احتياطات أمنية على الإطلاق. العديد كانوا يظنون بأنّ البيرونيين يريدون إسكات بورخس، المناوئ لبيرون، ولكن لحسن الحظ كان يبدو هذا غير وارد. فضيحة أن تأتي كتائب الموت بسيارات فورد فالكون غير منمّرة لقتل بورخس، لم يكن هذا معقولاً- على الأقلّ كنا نأمل ذلك. لكنه بالتأكيد سيكون هدفاً سهلاً بما أنه يجوب الشوارع في المدينة مستخدماً نفس المداخل، وبالطبع دونما حراسة. شقته مفتوحة، وأي شخص يطرق بابه يدخل. فاني تسأل الزائر المجهول عن غرضه أو غرضها وتصطحبه إلى الداخل.

طرقات على الباب. رجل مغبّر بعض الشيء يدخل. كل منا يعتقد بأنه صديق لبورخس. يتحدث بصوت تآمري خفيض إلى فاني ومن ثم

يتجه إلى الحمّام حيث يتوارى لمدة عشر دقائق. حالاً ندرك أن لا أحد يعرفه، لكننا كنا واثقين بأنه سيخرج لامحالة ويكشف عن طبيعة مهمته. مرّ الوقت ببطء مشحوناً بالترقب. أخيراً يخرج الرجل، بالكاد يلقي نظرة على الموجودين في غرفة الجلوس، يرمي تحية الوداع لفاني ويغادر. نضحك خفية على عدم فهمنا وعلى هذا الدخول والخروج لمستخدم التواليت. مسرحية ميتافيزيقة صغيرة كانت قد حدثت- وهذا ماحررني من ربقة القارئ.

يدعي بورخس أنّ هذه الحادثة الصغيرة برهان على أنه- هو الكاتب العجوز- قد أصبح رجلاً مألوفاً ومعروفاً جداً في جمهورية الإرجنتين. " الحكومة ترسل مبعوثيها لتقييم نشاطنا الأدبي. ولمَ لا، أخبار حلقتنا ذاع صيتها مثل ثرثرة حلوة في كل أنحاء البلاد. معرفة بدائية برانية بالإنكليزية القديمة أصبحت مهمّة مثل القنابل اليدوية والمتّة والعطل. قريباً ستُجرى معنا مقابلات حية وتُنشر صورنا إلى جانب أبطال الرياضة في الصحف الرئيسية. كل واحد منا مقدر له أن يصبح مشهوراً ومألوفاً للجميع مثل لاعب التنس."

"إنك تصدمني يا بورخس،" قلت. " لم أكن أعرف أنك وطني وقومي طموح بهذا الشكل. لم أكن أعتقد أنك تؤمن بالقومية... "

"لا بأرض الآباء، ولا بأرض الأمهات،" يقول متحذلقاً وقد اخترع كلمة جديدة. "لا بالجمهورية و لابأمريكا اللاتينية، ولا بالكون. هذه الكلمات- حسنٌ-، إنها مجرد كلمات. كلمات خرافية وجدنا أنفسنا نؤمن بها."

عدنا ثانيةً نهبط الدرج الحلزوني. كنت ألاحظ أن وجه بورخس في نصف الضوء قد أصبح مثل مطرٍ على رصيف مائل، مثل مرآة مهشّمة.

twitter @baghdad_library

عيناه انغمرتا بنصف الضوء هذا، وبدتا طفليتين تشع منهما مسحة حزن. كما دائماً، أشعر بالندم وأنا أرمي تحية الوداع. إنه شعور بالخسارة لم أستطع التغلّب عليه. نتجمّع في الشارع، بشخصياتٍ صديقة لكنها مختلفة الآن، لأنّ كلاً منا يتوجّه إلى مجتمعه ويتلبّس جزئياً شخصية المكان الذي يذهب إليه. مطر خفيف. أقول وداعاً لبورخس وماريا اللذين ينعطفان الآن باتجاه مطعم بويي سيزار لتناول العشاء الإسبوعي وتجاذب الأحاديث. أتوجه إلى شقتي.

في شقتي أفعل ما أستطيع للحفاظ على مشاعري تجاه بورخس. في مخيلتي هو الآن مع حيواناته اللامرئية. أفكر به، ليس وهو في حفلة العشاء، بل أتأمل لمعانَ نظرته إلى أعلى السقف وهو يقرأ كلمة إنكليزية قديمة من كتاب ذاكرته. أراه في الضوء البرتقالي للنمر، لونه المفضل، بما أنه في ذاك الإصفرار تعودت عيناه الميتتان السباحة. كما أنني أراه في زنزانته، مستلقياً فوق سريره يحتقر الموت، حالماً بوعلٍ أبيض ظهر لتوه من قصيدة حلم كتبها قبل بضعة أيام. إنه يستلقي بهدوء، خارجاً من المياه ليعرف النمر الذي لايموت.

حادثة مخيفة ومختصرة جداً

راهبتان فرنسيتان، هما أليس دومان وليوني ريني، كانتا تعطيان دروساً في الأحياء الفقيرة. اختطفهما الجيش وتعرضتا للتعذيب في إيسكيولا دي ميكانيكا أرمادا، حيث أعطيتا حبوباً منومة ورميتا من طائرة هيلوكبتر فوق ريو دي لا بلاتا. لاحقاً. عندما عادت الديموقراطية تحت حكم ألفونسين وقُدّم الجيش للمحاكمة تبيّن كما هو مدوّن في (كتاب العدالة) أنّ عنوان "الراهبتان الصغيرتان الطائرتان" الذي كان الجيش قد ابتكره من باب التسلية لضحيتهما، مقتبسٌ من مسلسل تلفزيوني أمريكي.

المساءات التي كنتُ أعطي فيها دروساً عن الشعر الأمريكي والتي تشمل من والت ويتمان إلى جيمس رايت في البروفسارادو في أفينيدا دي مايو، هذه المساءات كانت غبطتي الوحيدة. وإذا لم أكن متأخراً كنت أمشي عبر الشوارع العريضة حتى أصل إلى البناء المتواضع للبروفسارادو والذي أقسم مخبريّ بأنه يمتلك أفضل أساتذة وطلاب للأدب في الإرجنتين. كلّ طابق فيه كان يبدو كالقبو، وهذا البلد الغني ليس سخياً تجاه جامعاته العامة. كان طلابي متيقظين ومنفتحين، انكليزيتهم ممتازة، والمرء لايحتاج إلى أية خدع ليجبرهم على الكلام.

twitter @baghdad_library

منذ المرة الأولى شعرت بمناخ ديناميكي كالذي كان ينتابني في جامعة كولومبيا حيث أتذكّر فصلاً دراسياً ضخماً للتخرّج عن (أهالي دبلن) لجيمس جويس وقصائد ديلان توماس الأخيرة. في نيويورك كنا جميعاً شباباً مشاغبين حكماء. في صفوفنا كان يوجد حاخام وراهبة، وهما بمثابة خبيرين في الكلاسيكيات والدراسات التوراتية، ومجموعة من الطلاب الموسوعيين الذين لايتركون شاردة أو واردة دون تدقيق وتحليل وتوثيق. كان هذا في فترة الخمسينات المغيَّبة، لكننا لم نكن نكترث للصمت.

كذلك كان الأمر في بوينس آيرس، بالرغم من الحالة القريبة من الحرب وسط الإنفجارات التي كانت تدوي بانتظام لدرجة أنّ كلّ انغلاق قوي للباب كان يؤخذ على أنه قنبلة. بالرغم من رعب النهار وكتائب الموت كانت المدينة حية بالمكتبات المزدحمة ودور السينما والشوارع الضاجة الخافقة مع إزابيليتا الصغيرة التي تصرخ حيث صوتها يملؤ بلازا دي مايو وآذان مئات الألوف. مسلة مصرية ضخمة كانت تطلّ على وسط المدينة مؤكدة حق الإرجنتين بالعضوية في نادي القوى الكولونيالية التي كدّست كنوزاً غرائبية لتغني متاحفها وحدائقها وشوارعها. وكانت المدينة أيضاً حية بمسيرات اتحاداتها وبعمالٍ يرفعون قبضاتهم عالياً ويبتسمون مغتبطين بغضبهم الجماعي. وكان ثمة حفلات موسيقية رائعة وأحداث فنية ونشاطات من كل الأنواع ولكل الأوقات. غالباً، وكما كانت عادتي اللاصحية، كنتُ أسهر طوال الليل مستغرقاً في العمل، وعندما أخرج إلى الشوارع في الرابعة أو الخامسة صباحاً كنت أجد مقاهٍ على كلّ زاوية حيث أصطحب معي كتاباً، أقرأ وأكتب، بصحبة الأباريق الزرقاء للقهوة.

وبالمقارنة، كانت عواصم من مثل مونتيفيديو وسانتياغو دي تشيلي الرازحة تحت نير أنظمة قمعية مماثلة حيث المعارضة للحكومة تبدو ثانوية، كانت عواصم ميتة. كان الصمت حقاً شيئاً ملموساً. في سانتياغو وأنا في طريقي إلى إيستر آيلاند، أوقعني حظر التجول في ذعرٍ فائق إلى أن وصلت أخيراً سيارة جيب عسكرية. قفز الجنود من مقاعدهم وصوبوا بنادقهم الأتوماتيكية باتجاهي وباتجاه مرافقي وسألونا عن أوراقنا، وكسروا الصمت. في مونيتفيديو، والتي كانت تملك عندئذ أعلى نسبة بوليس في العالم، أو هكذا قرأت، كانت تهيمن السلبية الساكتة. عندما ذهبت لمدة اسبوع لتعليم حلقة بحث للمتخرجين كان عليّ أن أخترع ألعاباً لأجبر الطلاب التعرفَ على وجودهم.

إحدى طالباتي المفضلات في البروفسارادو كانت نيللي شكسبير، وهي ارجنتينية، وجزء من المجتمع الأنكلو-ارجنتيني العريض، لكنه مع ذلك مجتمع ارجنتيني صرف. عندما اندلعت حرب المالفيناس، بورخس، نفسه أنكلو-أرجنتيني، قال بحسرة :"هذه الحرب المرعبة هي صراع بين عجوزين أصلعين من أجل مشط."

في إحدى الأمسيات كنا نقرأ قصيدة ديكنسون "سمعتُ ذبابةً تئزّ عندما كنتُ أموت". من أسفل الساحة العامة سمعنا جمهرةً من الطلبة تهتف "بيرون، بيرون، بيرون!" انفتح الباب على مصراعيه ودخل شابان بلهثان ووجّها أمراً فيه الكثير من التهديد: "الجميع إلى الخارج، في الساحة! مسيرة سياسية."

تخلّل ذلك صمت قصير. وضعتُ ديكنسون جانباً.

نهضت نيللي من مقعدها بهدوء واتجهت إلى زاوية الباب حيث كان

twitter @baghdad_library

الشابان ينتظران. قالت لهما مؤكّدةً: "هذه حلقة بحث للتخرج. المسيرة السياسية هي لطلبة ماقبل التخرج فقط."

"اعذرونا،" قال الطالبان وانسحبا ليستنهضا صفاً آخر.

في ذاك المساء ذاته مشيتُ إلى بروفسورادو آخر حيث كنت أدرّس. هنا كان صفي صغيراً مؤلفاً من خمس نساء في عمارة قديمة جميلة تحولت إلى كليّة. كنتُ أدرّس موضوعاً عن نظرية وتطبيق الترجمة. بعد مغادرتي المدرسة، توقفت في إحدى المقاهي لتناول بعض الطعام. كنتُ متعباً. تلقفت جريدة هي (La Opinion) وبدأت أقرأ عن الحرب الداخلية.

كان حزب التحالف الإرجنتيني المعادي للشيوعية يعمل لبثّ الرّعب. في مدينة ريوجا كان القسّ المتّهم إنريكي أنجللي قد اغتيل مثله مثل القسّ أوسكار ماريو في السلفادور. الجميع كان يتحدث عن امرأة سويدية، وهي ابنة ديبلوماسي، قُتلت. أما الأكثر خطراً فهي السمعة الدولية للنظام في قضية (الراهبتان الصغيرتان الطائرتان). راهبتان فرنسيتان هما أليس دومان وليوني رينيه دوكيت، كانتا تعطيان دروساً في الأحياء الفقيرة اختطفهما الجيش وتعرضتا للتعذيب في أيسكيولا دي ميكانيكا أرمادا، حيث أعطيتا حبوباً منومة ورميتا من طائرة هليكوبتر فوق ريو دي بلاتا. لاحقاً عندما عادت الديموقراطية تحت حكم الفونسين وقُدم الجيش للمحاكمة تبيّن كما هو مدون في (كتاب العدالة) أن عنوان (الراهبتان الصغيرتان الطائرتان) الذي أبتكره الجيش من باب التسلية لضحيتهما مقتبس من مسلسل أمريكي تلفزيوني.

ما إن خرجت من الأبواب الزجاجية للمقهى سمعتُ جلبةً في

٤

الشارع. رجال البوليس بجزماتهم السوداء العالية وبذاتهم الرمادية التي تمثّل أوراق نباتٍ سامّ، كانوا قد أوقفوا السير. رجال آخرون يرتدون بذات مدنية كانوا يقفون بالقرب من سيارات الفورد فاكونس غير المنمّرة. سبعة رجال ونساء بظهور مقوسة كانوا يقفون بمواجهة حائط حجري في الشارع المقابل. كنت متأكداً أنهم كانوا طلاباً. كانوا يشبكون أياديهم خلف رؤوسهم، متكئين على الحائط فيما أصحاب البذات المدنية يفتشونهم ويرفسونهم ويوسعونهم ضرباً. بعض من رجال البوليس كانوا يقفون بعيداً مقهقهين. بعض المارة توقفوا وشاهدوا المسرحية لكنهم لم يكونوا يستطيعون فعل أي شيء. كان إعلاناً تعليمياً للقسوة. كان القمع وعجز الشهود جارفاً. شعرتُ بأنني محطَم. كنتُ أعرف- جميعنا كنا نعرف- أن هؤلاء الشبان سيختفون قريباً إلى الأبد.

بعد مرور دقائق معدودة، سيق الطلاب إلى سيارات الفورد فاكونس. امرأة واحدة بينهم لم تجدْ فسحةً فارغة لها، لكنهم جرّوها على طول الرصيف إلى سيارة أخرى، ومن ثم قذفوها إلى جوف سيارة فالكون حمراء، حيث رموها أرضاً وأوصدوا الباب. كان هذا كافياً لجعل مهاجميها يغرقون في نوبةٍ عالية من الضحك الإيروتيكي.

twitter @baghdad_library

قرطبة بعيدة ووحيدة

"صورتُه ، تلك الصَورة الأخيرة ، كم بدت متألّمة ، ويمكن أن أقول صريحة . بودلير عانى . ثم راح يقوم بكل تلك الحركات السخيفة والعقيمة للفوز بالإحترام في النهاية . ماذا يعني أن يدخل الأكاديمية الفرنسية؟ هل يمكن أن تتصور أنّ مروّج إدغار ألن بو كان يرغب بالحصول على قبول من الأكاديمية الفرنسية؟ صورة بودلير ، كما أتذكرها ، مثلها مثل أية صورة أخرى في كل الكتب ، هي صورة تشبه كافكا . هل تتذكّر تلك اللقطة المعذّبة لكافكا وهي تظهر وجهاً يميل إلى الوسامة لكنه مع ذلك يبدو خارجاً لتوه من مستعمرة جزائية؟"

في أواخر آب من عام ١٩٧٥كانت بوينس آيرس تخرج من شتاء بشع من الموت والإختطافات لمنشقّي المدينة، ومن هجوم رجال العصابات على موانىء البحرية ومحطات البوليس، وعلى ضباط الجيش في سياراتهم وشققهم. في الشمال، في إقليم جوجوي الداكن الخصب، وخاصةً في توكومان، كان التروتسكيون (جيش الشعب الثوري) والمتمردون الطلبة ينتقلون من عمليات الفرّ والكرّ إلى مواجهات ميدانية مفتوحة. لم تكن حرباً أهلية بل عمليات متقطّعة. لم تكن قد سميت بعد بالحرب القذرة، غير أنّ الحرب القذرة كانت تتقدم لتوها بقسوة

twitter @baghdad_library

لايمكن تجنبها. إذ ثمة زيارات ليلية ودوريات كان يقوم بها الجنود أو رجال بوليس ببذات مدنية، وكان تعذيب وقمع الناس في "معسكرات الرياضة الأولومبية" (حسب المصطلح الذي كان دارجاً) ومن ثمّ اعدامهم لاحقاً، إما بحقنهم بالمخدرات أو برميهم من طائرات الهليوكبتر في المحيط أو نهر دي لابلاتا. كانت الجثث تعوم على مياه النهر وتنجرف حتى سواحل الأرغواي.

كانت تلك حكومة إزابليتا بيرون. وكان الشخص الذي يقود العمليات العسكرية والأمنية هو لوبيز ريغا الملقب بإل بروجو (مفتاح الحرب) أو الفلكي. كان لوبيز ريغا الساعد الأقوى لبيرون، وتحت قيادته أسس وترأس عصابات الموت التي كانت تجوب شوارع بوينس آيرس داخل سيارت لاتحمل لوحات مرخّصة وتسلب الناس بيوتهم- خاصة الطلبة، والمهنيين الشباب، والفنانين والمثقفين- وتسوقهم إما إلى البؤس المباشر أو الإعدام.

وفيما كانت الأمّة تغرق، والأسعار تحلق بسبب تضخم السوق السوداء، وفيما كان الآلاف يختفون وآلاف أخرى تذهب إلى المنفى خوفاً من الموت، كان مزاجاً من الإكتئاب القومي يخيّم. مع ذلك وعلى الرغم من حقائق القمع، فإن وجود المرء في الإرجنتين في تلك الفترة كان له سحر قوي. مصائب البلد، سواء أكانت حروباً أو ثورات ، أو أي عنف آخر اخترعه الإنسان أو كان طبيعياً، يخلق نوعاً من المغامرة إلى جانب الموت. أتذكّر سنتين قضيتهما في اليونان المضطربة عند نهاية حربها الأهلية، وسنةً أمضيتها في اسبانيا خلال فترة القمع التي تلت حكم فرانكو، وشهراً في الصين خلال جنون "الثورة الثقافية العظمى". وعلى

الرغم من معاناة وكَرَب المراقب- وأنا أعترف بهذه العدوى- فقد كان وجودي تجربة مفصلية في تلك البلدان خلال تلك السنوات الرديئة، وهذا ينطبق على وجودي في الإرجنتين، ومع بورخس، وتبادلي الثقة مع الأصدقاء والمشاركين في المحنة.

ذاك الإهتمام لم يشعر به فقط الصحفيون والكتاب الأجانب وزوار اخرون، بل العديد من المواطنين الذين انساقوا إلى الرومانس القاتل للعنف. كانت الحرب القذرة، الغبية والرهيبة، بالنسبة للمشاركين فيها- لدى الطرفين- تمثّل فتحاً، وثورةً مقدّسةً، بل هي المغامرة الكبرى. كانت الحرب السرية المخيفة في الإرجنتين- مثل السجون الكبرى، والزلازل الكبرى، ومثل تدمير التيبت خلال الثورة الثقافية في الصين- تتقنّع على يد الحكومة بالأكاذيب والصمت، وبالتكتّم الواسع. غير أن التكتم في الإرجنتين، وفي الصين أيضاً، لم يكن موجهاً فقط من قبل الحكومة، بل مارسه قطاع مهم من السكان أو المراقبون الأجانب. رحلات غسل الدماغ رحَب بها بحماس كبير خبراء صينيون وضيوف أجانب وأصدقاء للصين. (كنتُ هناك ضيفاً لمدة ثلاث سنوات قبل مكوثي في بوينس ايرس). في الإرجنتين كان من الممكن تماماً بالنسبة لمواطنين محترمين، يؤمنون بالجيش والكنيسة، أن ينكروا شائعات التعذيب والإعدام. كثرةٌ كثيرة استسلمت للنكران. قال لي أصدقاء بأنَ أهاليهم الكاثوليك لايمكن أن يصدقوا بأنّ مؤسسات في الأمة الإرجنتينية هي التي كانت تقود الحرب القذرة. حتى أنّ الحضور اليومي "للأمهات المجنونات" كما كنّ يسمّين، وهنَ يحملن صور أطفالهنّ المفقودين في بلازا دي مايو قد فشل بإقناع الكثيرين- حتى اللحظة الأخيرة. هؤلاء النسوة- معظمهن

twitter @baghdad_library

أنيقات الملبس ومن الطبقة الوسطى- اللواتي كنّ ينقلن حقيقة الجريمة، كنّ بالنسبة للثورة مصابات بالجنون. أية صفة يجب أن نستخدمها لوصف مجتمع أو نظام يخترع تسمية "أمهات مجنونات" من أجل أن يخفي جرائم القتل الرسمية؟

عاملٌ مهمّ واحد كان يساهم في التكتم الجامد على العنف العامّ يتمثّل بمظاهر الأمان والأمن في العاصمة. وعلى الرغم من الكرنفال الليلي للقنابل المتفجرة في بوينس آيرس، لم يكن النظام في العاصمة مجرد وهم من المرايا الموضوعة بإتقان. إذ باستثناء أولئك المستهدفين بالخطف أو الإغتيال، ظلت المدينة واحدة من أكثر مدن العالم أمناً للسير فيها نهاراً أو ليلاً.

كان قاطنو حوض نهر ريو دي بلازتا يحبون التسكع في مدينتهم، مدينة الرياح الخيّرة. كانت شوارع بوينس آيرس دائماً مزدحمة. لم تكن تشبه مدينةً تجاريةً شاهقة المباني كهيوستن، الفارغة والمخيفة بعد حلول الظلام. كنتُ أستطيع التسكع في شوارع العاصمة وضواحيها القريبة عند منتصف الليل أو في الثالثة صباحاً دون الإحساس بالخطر. وظلت بوينس آيرس مدينة معقدة تضجّ بالناشرين والحفلات الموسيقية والمجلات والمكتبات (على الرغم من أن فرويد وماركس كانا ممنوعين من الظهور على رفوف المكتبات وفي مناهج علم النفس والإقتصاد السياسي في الجامعة)؛ مدينة ذات حارات قديمة ممتعة، وهناك شارع لاكول فلوريدا التجاري الخالي من السير، ومطاعم الضواحي التي كانت تزدهر، ومحلات الأغذية، وهناك المسارح، والمتّة. كانت موسيقا التانغو تحتل الإذاعات، ومصب نهر ريو ديلا بلاتا جاهزاً للتزلج على مائه أو لقضاء

عطلة الإسبوع في أكواخٍ صغيرة على طول ضفته الكبيرة. كان هناك المثقفون، وحمى الأحداث والتجمّعات الثقافية، ومايسمى (اسبوع الفشل المشرّف)، والكتاب والأصدقاء الصحفيون. وأخيراً كان هناك بورخس.

بالنسبة لغريبٍ يجيد الإسبانية كانت الإرجنتين-عليَّ أن أعترف- مغامرتي أيضاً. وكما هو الحال مع سنتي الأخيرة في الصين، كنتُ أنظر بندم إلى الأيام التي تسبق صباح مغادرتي. في آب من عام ١٩٧٥ سافرت إلى جامعتين في بوينس آيرس بصفة محاضر فولبرايت. حذّرني بعض الأصدقاء على عدم الذهاب. أو أن أرتدي درعاً واقياً للرصاص. كانت نصيحة خاطئة. خلال الأسابيع الأولى شعرتُ بخيبة أمل غير متوقّعة. المكسيك عرفتها من خلال عائلتي المكسيكية بالتبني ومن خلال طلابي هناك، والبيرو عرفتها من خلال رحلاتي الأولى. بعد المكسيك والبيرو بثقافتهما الواسعة التي تعود إلى ماقبل كولومبس بدت الإرجنتين خالية من أي إرث هندي عتيق، وتالياً فقيرة بالغموض.

لكنني سرعان ما اكتشفت المدن الكولونيالية القديمة، وخاصة قرطبة. ومثل كويتو وليما ومدينة مكسيكو، بدأت مدن الإرجنتين حياتها مابعد الكولونيالية في القرن السادس عشر. ولكن بدون معابد ياكاتان أو ماركو بيكو. ولكن عبر مارتين فيرو وكتاب الأرصفة وبورخس تعرّفت على أكثر من أرجنتين اخرى. الأرض الخراب في باتاغونيا والبراري الشاسعة الإرجنتينية-البرازيلية أو الإرجنتينية-الأرغوية الغنية كان يجب أن تغني خيال أكثر الغرباء ضجراً. وهناك كانت بوينس آيرس.

twitter @baghdad_library

عندما وصلت إلى فندق المدينة حيث كنتُ أقيم رنّ الهاتف. كانت أخت ورفيقة أحد طلابي الأصدقاء الإرجنتينيين اللتين وصلتا لتوهما من إنديانا ينتظرانني في بهو الفندق.

"اصعدا."

"لن يسمح الفندق لفتاتين بالصعود إلى غرفة رجل."

"سأنزل إليكما في الحال."

ماريا إلينا وإزابيل كانتا أولى صديقاتي في بوينس آيرس. اصطحبوني إلى مطعم حيث الطاولات المصفوفة بتناغم والمشاوي المقطّعة على الطريقة الإرجنتينية والتي لاتُقدم في صحون بل على أعوادٍ خشبية. وعلى الرغم من أنني لاأتناول اللحم الأحمر إلاّ نادراً فإنّ المشاوي هي الإغراء الأفضل في الإرجنتين للتخلص من تلك العادة غير الصحية. أكثر العمال الصناعيين فقراً، والذي يمكن أن يراه المرء يمشي بتحدٍ عسكري في مسيرة احتجاج عمالية في شارع سانتا فيا، يمكن أن يعتقد بأنه يتضور جوعاً إذا لم يحو العشاء على المشاوي.

"بلدٌ محافظ جداً فيما يتعلق بالحرية الجنسية." علّقتُ.

"جمعينا مستقيمون." قالت إيزابيل مبتسمة، حيث كانت تملك مع ماريا إلينا مختبراً صغيراً للغة الأجنبية في مقاطعة كورينتس لتعليم الانكليزية.

"مازالت هناك فجوة صمت بين الأبناء والآباء،" أضافت ماريا إلينا، "بيننا وبين مهاجرينا الطليان أو أسلافنا الإسبان الإرجنتينيين. إنهم يدعون إلى قيم كاثوليكية من الطهارة والترفّع عن الموبقات، لكن مامن أحد يمارس تلك الفضائل سوى المخصيين أو المصابين بالعقم. إننا

الأكثر حريةً وانفتاحاً في أمريكا اللاتينية حيال هذه الأشياء. مع ذلك نتجادل مع آبائنا المحترمين حول الجنس، وهناك هذه القواعد الصارمة للفنادق. هذا كله زيف. مظاهر خادعة في مجتمع بريّ ومفتوح وبالتالي يملك حالات أقلّ من العهر واللاشرعية مما هو عليه الحال في المجتمعات "الطاهرة" المجاورة في أمريكا اللاتينية. إننا متحررون جنسياً كالسويد، غير أنّ الطاعنين في السن بيننا لن يعترفوا بذلك."

"ماريا إلينا، أنت كتاب نصوص."

"لا، مجرد مختبرٍ لغوي."

اكتشفت أنّ أهل الإرجنتين، على نقيض معظم الأمريكيين الشماليين، مولعون بتعريف أمتهم وناسهم، هم اللذين تتبدل شخصيتهم باستمرار.

الشقة الأولى التي استأجرتها في بوينس آيرس أدخلتني في مأزق مثير. كانت شقة تملكها سيدة مثقفة من الطبقة الوسطى وكانت تعيش مع ابنها البالغ من العمر عشرين ربيعاً. كان عليّ أن أكون متواجداً في البيت في وقت معين لأنهم لايستطيعون أن يأتوا لي بمفاتيح اضافية للمدخل الخارجي. داخل الشقة لايمكنني أن أقرأ أو أكتب لأكثر من فترات قصيرة متقطعة، لأنّ "سيدتي" أرادت أن تعلمني خطوات تانغو جديدة أو أن تتحدث عن بيرون أو عن أهل الإرجنتين وكيف أنهم حقاً اوربيون وليسوا من أصل هندي أو زنجي مثل كل السكان في أمريكا اللاتينية. كانت السيدة مولعة بي، لكنني تمكنت من الهرب إلى شقة أخرى، إضاؤتها جيدة، ورخيصة بسب تضخم العملة وكنت بمفردي، سعيداً. كانت تقع في بارغوي على مسافة ثلاث دقائق من الشارع الذي سكن فيه بورخس في مايبو.

twitter @baghdad_library

بواب البناية في الشقة الجديدة كان مصدر ذهول بالنسبة لي. سبق وعشتُ في بلدان عديدة من أمريكا الإسبانية، وأمضيت ثلاث سنوات في إسبانيا كنتُ مرتاحاً خلالها مع اللكنة الكاستيلية. حاضرتُ بالإسبانية في جامعتي. كما أنني أشعر بالإرتياح مع أسرع لكنة أندلسية أو كاريبية اسبانية حيث تُبلع نصف الحروف. لكنني عندما تكلمت مع البواب للمرة الأولى رمتني لكنتهُ بعيداً. شعرتُ بالتعاسة. اندفعتُ صاعداً الدرج وأدرتُ المذياع لكي أتأكد أنني لم أصب بمرض نسيان اللغة. اتصلت فوراً بإزابيل لأتلقى مواساة لغوية. قالت سوف أعتاد على تلك اللّكنة. وفعلاً كان لي ذلك.

علاوةً على هذا، أحببتُ اللغة الدارجة وخاصةً تلك التي يتداولها سائقو التاكسي. كل إشارة حمراء أو باصٍ يعصرنا وينفث دخانه باتجاه سيارتنا كان كفيلاً بإثارة عبقرية السائق لإطلاق المصطلحات الطريفة الدارجة.

وعلى الرغم من أنّ السياسة قاتلة لكنها كانت مصدراً للتهكم الأسود، وقد سمعت مئات النكات حول النواب والوزراء وإزابيليتا والجنرالات. كنت حريصاً على قراءة الجرائد. وبعد أن أقوم بإعداد فطور سريع لنفسي كانت متعتي الصباحية شراء العديد من الجرائد وقراءتها على عجل. كنتُ أتابع جريدة (La Opinion) الليبرالية والأدبية الجريئة (وهي من حيث الشكل والمحتوى تشبه اللوموند الفرنسية أو آل بيس الإسبانية) والتي كانت تصدر يومياً رغم اغتيال العديد من الصحفيين العاملين فيها. كان جاكوب تيمرمان هو الذي يصدر (لا أبونيون) وقد سُجن وعُذب لاحقاً ونجا من الإعدام بعد التدخل الشخصي للرئيس

جيمي كارتر. تيمرمان كتبَ كتابه المخيف والفصيح والجوهري (انسان بدون اسم، زنزانة بدون رقم) وكان يدور حول فترة اعتقاله.

وكنتُ على تماس مباشر مع حياة الأمة الإرجنتينية من خلال أصدقاء صحفيين. كان مورت روزينبلمب مدير الوكالة الدولية للأنباء في الإرجنتين وتشيلي والأرغوي أكثر الأصدقاء الأمريكان المقرّبين. من مورت كنتُ أطلع على كل شيء. وآخر أنفاس لفظها فرانكو أتت إليّ عبر الوكالات ذات صباح في اللحظة التي كنتُ أجري فيها اتصالاً هاتفياً. في مكتب مورت للمحررين كانت توجد صور كبيرة لبيرون وإزابليتا على الجدران- اجراء وقائي في حال دعت الضرورة. كان مورت يحتفظ بالكلب، زيك، والذي حصل عليه من زنير قبل بضع سنوات. زيك هذا كان يستطيع، عند إعطائه الأوامر، أن يفتح باب المدخل ويشير للضيف بالدخول إلى شقته في أفيندا ليبراتدور. قبل أيامٍ من حلول عيد الميلاد كان مورت عائداً من مونتيفديو، حيث كان يجري مقابلةً مع وزير الأمن في الأورغوي، المسؤول المباشر عن البوليس وكتائب الموت. بعد تناول العشاء أمتعنا مورت بسماع تسجيل لموسيقا (الفرقة الأمريكية الكبيرة) والتي كانت هدية من الوزير. كان الشريط يحتوي على مقطوعات موسيقية عزفتها بشكل فظيع فرقة البوليس الوطنية في الأورغوي.

في المساء ذاته رأيت جيمي برينغل، رئيس مكتب نيوزويك، الذي كان بصحبة جوان دي أونيس، مراسل جريدة التايمز. كان بيرنغل صديقي ودليلي في بكين في عام ١٩٧٢ عندما كان يعمل لصالح رويترز. بين عامي ١٩٨٤-١٩٨٥ كنا معاً ثانيةً في الصين نعيش ونعمل. دعاني جيمي في إحدى ليالي صيف ١٩٨٥ إلى أفضل وجبةٍ سبق وتناولتها في

twitter @baghdad_library

آسيا. وكان يعدّ العدّة لإصطحابي معه في اليوم التالي إلى الأمير سيهانوك الذي كنتُ معجباً به لأسباب عديدة لكنني لم أستطع أن أتحمّل أوزار رحلةٍ لمدة شهرين إلى تركستان الصينية والتيبت لصعوبة الإجراءات وحساسيتها. في بوينس آيرس كما في آسيا كان برينغل يعرف سياسيين وثوريين بدءاً من دالي لاما ومدام ماو وصولاً إلى قادة الخمير الحمر الذين سبق وأجرى معهم مقابلات عديدة عميقاً في الغابات الكمبودية.

بالطبع كان معظم أصدقائي من الإرجنتين. الروائي والشاعر ماريو ساتز كان صديقاً مقرباً وحميماً. كنتُ أهرع لركوب التاكسي- بعد انتهائي من محاضرتي المسائية عن الشعر الأمريكي التي كانت مدتها ساعتين في أفنيدا دي مايو- والتوجّه إلى المدرج الذي كان ماريو يعطي فيه درساً عن القابالا. أحياناً كنتُ استسلم للنوم حالما أجلس على المقعد الخشبي الصلب. لم يكن لدي الوقت لتناول كسرة من الخبز وأنا في الطريق إليه. لطالما كنت متعباً وخجلاً من نفسي وأنا أترنّح، وأتنبّه لذلك عندما أصحو. في الشطر الثاني من محاضرة ماريو كنتُ أفيق وأسترجع انتباهي. بعد المحاضرة كنا نخرج ونتناول الطعام في إحدى المطاعم "العادية" في بوينس آيرس حيث كنا نمضي الوقت نتحدث عن الشعر والناشرين والقابالا والنساء، إضافةً إلى علم الفلك الذي كان يعرفه تاريخياً من خلال أصوله الدينية المتعدّدة.

كان ماريو وسيماً، فنّاناً، وبوتقة من الغرائبية واللغات. كان يأخذني إلى كل مكان: إلى المحاضرات والحفلات الموسيقية وإلى مناسبات رفيعة المستوى تحادث خلالها بشكل رئيسي مع المتمرّدين والكتّاب. كانت دار نشر (دبل دي) تتهيأ لنشر روايته (شمس) في ترجمتها الإنكليزية. في بعض الملتقيات كان الناس يروون لي حقائق

خطيرة عن حياتهم وأفكارهم السياسية ونشاطاتهم السرية. هنا كنتُ سعيداً جداً لأنني قُبلتُ مباشرةً وعُرفت. كان أمراً يدخل البهجة إلى نفسي. مع ذلك كانت مفارقةً كبيرة في حفلاتٍ كهذه يختلط فيها المخبرون بالطلبة والفنانين، حيث البوح بأي شيء يمكن أن يعني الموت، كيف كان واضحاً تماماً أنّ مضيفيّ مع آخرين يضعون فيّ، أنا الغريب، ثقتهم الكاملة. في مناخٍ ملغوم على المرء أن يضع خياراته من أجل أن يحيا، وإلاّ كانت الحياة أمراً لايُطاق. جثث الشبان ترقد على حجارة باردة، تلك الجثث التي تظهر عليها آثار التعذيب حيث الأقارب يأتون بها للتدليل على مرحلة اختلفت فيها آليات الإرهاب، وللتدليل أيضاً على أخطاء لاتُغتفر في الحكم على من كان مخبراً أو لم يكن.

كان ماريو قد سمع بورخس يتحدث في محاضرات عامة عديدة لكنه لم يكن قد تحدث إليه بشكل شخصي. ذهبنا في إحدى صباحات الأحد إلى شقة بورخس، وراح الإثنان يتبادلان الأسرار كأنهما طفلان، عن القابالا الماورائية. قُرعت الأجراس في غرفة بورخس ذلك الصباح وكأنّ اسحاق لوريا الإسباني قد فتح لتوه دكانه الروحاني في سافيد، وكأنّ ميمونيدس في رحاب قرطبة راح يكشف لنا أسراره من خلال نسخة احتياطية من كتابه (دليل التائه) وكيف أن الله يمثّل عقلاً صافياً. وكأنّ الشاعر جودا هالفي من تيودلا كان بيننا، يروي على مسامعنا كيف كان يتوق الى الذهاب إلى الأرض المقدسة، أرض السلام والدهشة، وليعرف وهو في السجن أن قلبه كان يطير على ريح لطيفة باتجاه الشرق.

كان بورخس مركز التجربة الإرجنتينية.

twitter @baghdad_library

لم تكن هناك مكالمة هاتفية من بورخس لاتثير فيَّ الإهتمام. الصعود في المصعد البطيء إلى الطابق السادس كانت تبدو أبديةً من الترقّب. إلى أين سيقودنا نقاشنا؟ في التقليد القابالي خلق الله الكلمات أولاً من أجل أن تقوم بالأفعال الأخرى. كان الحديث مع بورخس رمية نرد بحيث أنّ الأرقام قد لاتقود إلى التسلسل المعتاد من ٢ إلى ١٢ بل من ١ إلى ٠ أو ٠٠ أو ١٣ .

وكانت هناك دائماً الأشياء الإعتيادية التي يجب القيام بها. كانت تغمرني السعادة عندما كان بورخس يحتاجني- كتابة رسائل أو الإتصال بالولايات المتحدة للتحضير لرحلات أو محاضرات. كان يطلب مني أن أرافقه إلى محاضرات سيلقيها في بوينس آيرس، وإلى العشاء، وإلى نزهات صباح الأحد إلى المكتبات العامة، إلى حفلات أعياد الميلاد، ودروس الإنكليزية القديمة، وإلى تسكّعات مسائية، ومشاركته قهوة متأخّرة في مقهى القديس جيمس عندما تكون معظم المحلات التجارية مقفلة. وسألني أن أرافقه لبضعة أيام إلى مدينة قرطبة.

لاأستطيع أن أنكر أيضاً القلق الذي كان ملازماً للإثارة. لاحظت كيف أنّ بعض أصدقاء بورخس المقربين- دي جيوفاني، دونالد ييتس، ريكاردو بارناتان، كارلوس كورتينيس-كانوا ينفضّون عنه بعد فترة. كان بورخس يمتعض لقاء مساعدتهم له، ولإخلاصهم، بل كان يستشيط غضباً مما كان يتصوره وقوعه في فخّ عنايتهم. ولكن بسبب طبيعة تلقائيتنا الحميمية معاً، وملاحظاته الكئيبة والمشرقة التي شاركني إياها كأسرار، وبسبب حسّنا الرفاقي في الإرجنتين وفي قارات أخرى، وأحاديثنا المتواصلة عن اللغة والأدب، وبسبب حزنه- خاصة في السنوات الأخيرة- الذي كان يعبّر عنه بشكل طبيعي، شعرتُ بأنني في

مقام (confianza)، أي المؤتمن على أسراره، وهذه الصفة هي، في اللغة الفرنسية، كما هي في الإسبانية، خاصّية تعني الثقة الكاملة. لا أتذكّر لحظة صمت واحدة خيّمت علينا، وإن كانت لإلتقاط الأنفاس. مع ذلك كانت هناك مشاعر قلق وخوف بدت أعمق مما كنتُ أرغب فيه. كنتُ أحاول أن أتركها جانباً، وأحيلها إلى عصابٍ عابر أو ضعفٍ طارئ. كان ثمة تاريخ الأصدقاء الساقطين (fallen).

إنَ أكثر مايثير الفضول بين أصدقاء بورخس الأجانب هو فصله بين الصديق الذي لم يكن أبداً "ساقطاً"، الصديق الذي بقي في أتون أكثر العواطف والفضائل دفئاً لدى بورخس، أعني، الصّداقة. مع ذلك أنتوني كيريغان عرف بورخس فقط في بداية ونهاية حياته الأدبية. كيريغان قدّم بورخس إلى العالم الناطق بالإنكليزية عبر كتابيه (Ficciones) و(Personal Anthology)، ليترجم من بعدها أربع كتبٍ أخرى بما في ذلك كتاب بورخس الأخير (Atlas) لكن صداقة بورخس معه سرعان ماتداعت حتى قبل أن تبدأ. كان هناك لقاء قصير في مدريد. بعد ذلك ارتبط الإثنان غيابياً بصداقة دامت أكثر من اثنين وثلاثين عاماً، تسندها رسائل متبادلة ومنشورات عديدة ومبعوثون غير عاديين. كانت لقاءاتهما غير مكتملة. توني كيريغان كتبَ مقالاً حول عدم لقائه بورخس في مدريد وكيف أن بورخس في مناسبات عديدة كان يستقبل حامل تحياته بدفق من العواطف ظناً منه بأنّ المبعوث هو كيريغان نفسه الذي لم يقابله شخصياً.

مارك ميرسكي، محرر مجلة (fiction)، يروي كيف أنه كان يتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة في نيويورك مع ماكس فريش، الروائي السويسري، بورخس وآخرين ممن يصفهم ميرسكي "بالنخبة

twitter @baghdad_library

الأدبيـة في نيـويورك." بعض الحاضرين انتقد بحدّة ترجمات أنتوني كيريغان لبورخس. لكن ميرسكي شعر بغيظ كبير تجاه أحكامهم الرديئة ويسجّل المشهد في أحدى مذكّراته:

لم يكن توني قد التقى بعد الكاتب الذي ترجم له وأحبّه. لم أستطع أن أمنع اندفاعاً مباغتاً باتجاه بوخس، والذي شعرت بأنني لم أكن على تماسّ معه على الإطلاق. "أريد أن أنقل تحيات توني كيريغان،" ناديت بأعلى صوتي وسط ضجيج الملاعق وصرير الكراسي وكأنّ الإرجنتينيَّ نصف أصمّ وليس أعمى.

"توني؟" همس بورخس غير مصدّق.

"توني كيريغان،" صرختُ.

"توني كيريغان" ردد بورخس الذي كان يجلس قبالتي ومال بنصف انحناءة باتجاه الطاولة ليمسك بي بذراعيه ويلفّهما حول عنقي ويقبل وجنتي. "توني! واهبي! واهبي!"

مرت دقيقة أو أكثر قبل أن أستطيع أن أشرح بأنني أحمل فقط تحيات من توني كيريغان عوضاً عن أن أكون واقفاً هناك بوصفي توني بلحمه ودمه. الوجوه في نهاية الطاولة صارت أكثر احمراراً من النبيذ."

(كيريغان، "سيرة ذاتية،")

في عام ١٩٨٠ ألقيتُ مقدمة لحديث بين بورخس ومحاوريه في نادي (PEN) في نيويورك. بعد جلسة الحوار رأيتُ توني يدور حول نفسه في الغرفة المجاورة. سألته فيما إذا كان قد تحدث إلى بورخس. بلباقة قال بأنّ غيرة وخصومة المقرّبين من بورخس (في هذه الحالة المتحدثون الآخرون) قد اطفأت بداخله كل حماس. لم أستطع أن أقنعه للذهاب معي إلى الغرفة المجاورة، بالرغم من أنني عندما أراجع الأمر

الآن في ضوء اللطف والأهمية الدرامية للقاءاتهما المستمرة فيما بعد قبل وفاة بورخس، أرى أنه كان عليّ أن أشدّه من كمّ سترته الأنيقة وأجرّه بهدوء باتجاه الضجة التي كانت تحيط ببورخس، بل وأعطيه دفعة إلى الأمام. مع ذلك مرةً أخرى في نيويورك أضاع توني فرصة اللقاء ببورخس.

مع كلّ هذه اللقاءات اللامرئية على الصفحات المطبوعة وفي الرسائل، ظننتُ أنّ كيريغان يجب أن يكون الصديق الحقيقي وأنّ الحرمان من هذه الصداقة الفكرية ستكون بمثابة خسارة لبورخس. وكما تبين لاحقاً فإنّ بورخس وكيريغان اجتمعا معاً أخيراً بمحض الصدفة حيث كان الإثنان مدعوين إلى مؤتمر عن فرويد في ميلان. كانت تلك آخر السنوات الهامة في حياة بورخس. وكانا أيضاً معاً في روما. توني، أول وآخر مترجم لبورخس، كان أيضاً آخر أصدقائه المقرّبين خلال الشهور القليلة التي سبقت وفاته.

كان بورخس في معظم الأوقات مع عمله وأصدقائه، مع وحدته التي كانت تضمّ مجرات سبينوزا وقنوط شوبنهور، وكان مع علوم الجبر الميتافيزيقية وعزلته وغياباته. مع ذلك كانت هناك حوادث اعتيادية في حياته اليومية تزعجه كثيراً، وبخاصة مايتعلق ببيرون أو الحمّى البيرونية، أو مايتعلق بأحدٍ ما شعر أنه يستطيع أن يغشّه مستغلاً عماه واتكّاليته. وعندما كنتُ أرى حالات غضبه النادرة والمفاجئة كنتُ أحاول، أنا ومن يكون حوله، التخفيف من الأمر، ولكن دونما طائل. أتذكّر في أواخر تشرين الأول كيف أن بورخس ظنّ بأنّ أحداً غشّه في مطعم مكسيم. هذا بالتأكيد لم يحدث، لكن كان من المستحيل إقناعه بعكس

twitter @baghdad_library

ذلك. صاحب المطعم والنادل الذي قام بخدمته لأكثر من عقد من الزمن أتيا إلى شقته وهما يقسمان بأن سوء فهم ما قد حصل، وقدّما له دعوة بأن يتناول الطعام لديهما بدون مقابل إلى أجل غير مسمّى. غير أنّ بورخس عقد العزم على أن لايأكل هناك بعد أن وقعت "الحادثة".

في بوينس آيرس كنتُ أشعر أنني في وطني، وفي بعض الأحيان- عليّ أن أعترف- كنتُ غير ناضج وأتصرف كالأطفال بسبب حماسي لبورخس. الشعور الطبيعي بالغبطة الناتج عن وجودي معه سيطر على العواطف السلبية العقيمة التي لابدّ منها.

كنت أحب أن أعمل معه لوقت متأخر من الليل منكباً على مشروعاته. عندما كنا ننهي عملنا كنت أقرأ له كيبلينغ أو هنري جيمس أو ولاس ستيفنس وبعضاً من الشعراء الإغريق والصينيين. في تلك الأوقات كان يحبّ ان يرتدي قميصه الأبيض المفتوح. لاأتذكّر أنني رأيته مرةً يرتدي لباساً عفوياً، وكانت فكرته عن اللارسمية، على الأقل مع الأصدقاء، هي أن يخلع سترة طقمه فحسب. كان يعرف أين جميع الكتب متوضعة على الرفوف ويطلب مني أن أحضر هذا أو ذاك، بل ويتذكر رقم هاتف سجله له أحدهم على الغلاف الداخلي لكتابٍ لثورو أو سوينبرن. كان يدعي أنه بعد ثلاثين عاماً من العمى لم يعد باستطاعته الكتابة، بالرغم من أنه كان يسجّل بعض الملاحظات على إحدى الصفحات الداخلية. لم أسأله يوماً عن أية كتابة منقوشة، ولكن أعطتني ماريا مرةً كتاباً يحتوي على رسالة هامة. كانت هي التي كتبتها، ووقّعها هو بحروفٍ يمكن أن أسميها صينية.

في إحدى الليالي كنا نتحلق حول طاولة العشاء. كنا قد اشتغلنا

حتى وقت متأخر، وكان مزاج بورخس تآمرياً عندما قال: "هل تفهم أغنية الطير؟"

"لستُ القديس فرانسيس،" قلت. "هل تقصد جمال اللحن؟"

"كلاً. الكلمات، اللغة. لابدَ أنها تقول شيئاً. هل تظنّ أن الطيور تصدر كل تلك الإيقاعات من أجل لاشيء؟"

"هل تفهم نحيب العندليب؟" واجهته متسائلاً.

"حسب شعوري الموسيقي فأنا، على الأرجح، ميال للإستماع للغربان" أجاب.

"عرفتُ ديكاً في زوريخ كان اسمه جورج،" قلت له. "وكان دائماً يتحدث كببغاء. بل أفضل من الببغاء. كنا نتحادث بطريقة عفوية جداً. كان الديك جورج مهتماً بالديدان فقط وبالطقس. ربما كان جورج هذا شبيهك السويسري؟"

"لكن لم يسبق لأحد أن اكتشف بأنني أجيد الكلام مع الديوك،" احتجَ بورخس. "على الأقلَ أنا لاأتذكَر ذلك. ولم يسبق لي أن حلمت بأنني أتجادل مع الديوك. أنا من الطراز القديم، كما تعرف. ولكن إذا رفعت جورج إلى مرتبة الغراب فربما أستطيع أن أتخيّل بأن الغراب هو شبيهي السويسري."

"على الإطلاق."

"المسكين إدغار بو. أدين له بالكثير. جميعنا ندين له. على أية حال، هو الذي اخترع القصة البوليسية. ولكن اسمع،" قال. "إذا كنت لاتستطيع أن تفهم الطيور وهي تغني، إذا كنتَ لاتفهم حتى الطيور، انتبه، هل فكرتَ مرةً ماذا تظن بنا عندما تسمعنا نتكلم؟ يمكنني القول

twitter @baghdad_library

إن سوء فهم عميق موجود بين الطيور وبين البشر. لابدّ أننا نبدو سخيفين بالنسبة لها."

"هذا صحيح. لو أنني كنتُ طائراً لأصبت بخيبة أمل كبيرة حيال الأصوات الإنسانية، وخاصةً صوتك، يابورخس. أجزم بأن الطيور ستشيع أخباراً عن صوتك الجهوري قائلةً من هو بوق الضباب المتحرك هذا؟ إنه يبدو أسوأ من ضفدع كهل في قبو."

"بارنستون، تبدو وكأنك تجهّز لأمرٍ ما. أستطيع القول إنك كنت تصاحب الديكة المتعاركة في باليرمو."

"بورخس انت تشرّفني أعظم شرف، لكن يالك من أحمق. تخيّل فقط أنني متورط مع الديكة العظيمة المتعاركة في مدينتكم باليرمو. ولأكن أكثر دقة، لابد أن أقول إنك مجرد أعمى هرم وساذج. عصفور صغير قال لي هذا."

شعرت بالخجل لجرأتي تلك، لكن بورخس كان يحبّ العبارات الداعرة تلك كما كان يغتبط لدى سماع الإسبانية "المهشّمة". أتذكّر ماقاله لوركا بشأن الموسيقا الرديئة- قال بأنه مغرم بالموسيقى الرديئة ويخشى ذات يوم بأن يصبح مغرماً بالشعر الرديء أيضاً.

"هل أزعجتك؟" سألته.

"بالضبط. وأنا أتألم. لكن أحب أن يقال عني ساذج. من كان سيعتقد ذلك؟ على أقل تقدير هذا يعطيني بعض الأمل في هذا المساء."

اتصلت بي أليشا جورادو، وهي روائية، وكاتبة سيرة W.H Hud-son، ورئيسة جامعة (PEN) الإرجنتينية، وصديقة قديمة لبورخس حيث تعاونت معه على تأليف كتاب عن بودا. هل أرغب بمرافقتها، هي وبورخس، في الذهاب إلى قرطبة؟ كان بورخس قد تلقى دعوة لتقديم

محاضرة عن موضوعة الزمن. كانت الرحلة والمحاضرة قد أعدهما سينور ألوكو، والذي كان أيضاً قد حضّر لحفلة توقيع في مكتبته. كان لأليشا وسامةَ جواهرلال نهرو. شيءُ ما أيضاً في شعرها جعلها تشبه الهنود الشرقيين مثل بطلها سيداهارتا. بورخس قال إنّ أنفها مدبب ومستقيم مثل جوكر الورق، وربما كان اغريقياً كلاسيكياً. لكن يكفي الحديث الآن عن أنف وشعر أليشا.

أحببتُ أليشا. كانت أرستقراطية وقاسية، لكنها متشوقة دائماً للخروج من رسميتها. غالباً ماتناولنا الطعام معاً، ولاحقاً أتت إلى أمريكا ومكثت لمدة اسبوع في حظيرتنا. أخذت صورة فوتوغرافية لها ولبورخس والتي استخدمتها لاحقاً في كتاب نقدي عن الشاعر. حتى بورخس الذي لم يعط نفسه أي لقب سياسي قال إنها محافظة. كانت مصدراً رديئاً للمعلومات بالنسبة له خلال الحرب القذرة. تجادلت معها مراراً حول دور (PEN) التي كانت رئيستها وقلت لها يجب أن تصرخ من أجل اولئك الكتاب "المختفين"، لكن (PEN) في الإرجنتين لم تحرك ساكناً، وفشلت في مهمة مفصلية ولم تقم بواجبها. في بلدان أخرى- بولندا وكوريا الجنوبية- كانت الجامعات تقوم بحملات قوية تهدف إلى إطلاق سراح الكتاب الذين في السجن، متجاهلةً ردود فعل الحكومة ضدها.

طائرتنا تتجه إلى قرطبة في الثامنة والربع صباحاً. كان بورخس قد حزم أمتعته وأصبح جاهزاً للإنطلاق عندما وصلت إلى شقته في السادسة والربع صباحاً. أليشيا، وهي رفيقة سفر ممتازة، أتت بعدي ببضع دقائق. بدت ممشوقة القامة وسعيدة. في صحبة الفجر شعرنا جميعاً بمتعة

twitter @baghdad_library

المغامرة بما في ذلك الخادمة فاني التي كانت تسرّح شعر بورخس.

كانت معنويات بورخس عالية بالرغم من قضاء ليلة تخللها نوم قليل. "لم أصح بفعل كوابيسي المعتادة، ولكن بسبب قنبلة انفجرت على بعد عدة أبنية من هنا. حدث ذلك حوالي الساعة الثانية والنصف صباحاً، وكانت مدوية جداً. لم أستطع العودة إلى النوم، لذلك قمتُ بتأليف حبكة لقصة قصيرة. كان عليّ أن أنجزها في رأسي. البداية والنهاية- هبطتا عليّ في ومضة، وسأكمل لاحقاً منتصف القصة."

"ماذا كانت القصة؟"

"بينما كنتُ أفكّر بتفاصيلها لابدّ أنني استسلمت لحلم، لكن لم يكن هذا مهماً. لكن تلك هي الحادثة الطريفة التي وقعت. كنتُ أتسكع في مدينة لندن، باحثاً عن مكان للنوم وتناول الفطور. كان قد بقي لي بضعة أيام فقط للعمل في مكتبة لندن، ولم يكن لدي نقود كافية. قرب متجر قديم يملكه كيميائي استطعت أن أجد غرفةً بسرعة، حيث شجعني على فعل ذلك المالك الذي دعاني لتناول الشاي معه، وقبلت دعوته مباشرةً. عندما انفرد بي هذا الرجل البشع، الطويل القامة، قال لي: كنتُ أبحث عنك. لم أستطع أن أعرف ماذا يخفيه، لكن تحديقته كادت تصيبني بالشلل. في تلك الأيام، على الأقلّ، وخلال ساعة الحلم تلك، كان بمقدوري أن أرى بشكل جيد." سألتُ الرجل:

"ماذا تريد مني؟"

"فقط ألف جنيه."

"لاتستطيع أن تأخذ مني ما لاأملكه. لو كنتُ أملك هذا المبلغ لما رأيتني في هذه الحارة الخربة." قلتُ له بلهجة تحدّ.

"أنا لستُ هنا لكي أسرق. أنا هنا لكي أجعل منك أسعد إنسان في الدنيا، وهذا فقط لأنك تستحق ذلك."

"أن أعطيك رزمةً من النقود لن يجعل مني شخصاً سعيداً." قلت له مستفسراً.

"لقد امتلكتُ للتوّ ذاكرة شكسبير."

شعرتُ بأنّ النمر خرج لتوه من وكره. لم يكن لدي أية فكرة عما كان يعنيه.

"إذا كنتَ مستعداً أن تنسى من باعك إياها- ذاكرة شكسبير- أو أن تتكتم على رؤيتك لي أو الإقامة في غرفتي، فسوف أمضي قدماً بهذه الصفقة."

"ماذا حدث بعد ذلك؟" سألته.

"أخذتُ رزمة أوراقه، قرأتُ صفحةً واضحة بشكل جلي، رفعتُ سماعة الهاتف واتصلت ببوينس آيرس من أجل مدخراتي، ونظفتُ حساب عمري البائس كله. في غضون ذلك لم أكن أقدر على تذكر النص المشتعل لذاكرة شكسبير، بعدئذ أيقظتني الإنفجارات المتتالية من النوم. وعلى نقيض كوابيسي التي كان عليّ أن أنتظرها حتى وأنا مدرك لوجودي في مشهد قديم، هذه المرة خرجتُ من قضية شكسبير هذه خالي الوفاض، نظيفاً، وفارغاً إلاّ من القصة. "

بين وقت وصولي ومغادرتنا تعطّل المصعد.

"إذن نمشي،" أعلن بورخس، وهكذا هبطنا الطوابق الخمسة في العتمة، حيث راح بورخس ينقُر بعصاه سعيداً أمامنا وهو يشقّ الطريق. كنتُ منذهلاً كيف أنَ قصّته قد شحنته بزخمٍ كبير. كان يمسك بإفريز

twitter @baghdad_library

الدرج بقوة وهو يجرّنا خلفه، فيما أليشيا تتمسّك بي. عندما خرجنا إلى ضوء النهار ثانيةً، أوقفنا تاكسي وغادرنا باتجاه المطار المحلي.

ولكن على الرغم من سرعتنا الزائدة، حين وصلنا المطار قيل لنا بأن الطائرة ستغادر في التاسعة والربع، متأخرة لساعة كاملة. لم يأبه بورخس للتأخير. كان همه ونحن نقف منتظرين أن يقنعني بأن أهل قرطبة أناس طيبون جداً، يمتلكون أفضل حسٍ للطرافة والبساطة في الارجنتين وبأنّ المدينة جميلة.

أتى باص الطائرة. كان الشاعر معتاداً على صعود الأدراج الشاهقة، ومع مساعدة الركاب الذين كانوا يدفعونه بلطف باتجاه الأمام وجدنا أنفسنا في الداخل. اشتغل المحرك مطلقاً صوتاً مدوياً. ظللنا واقفين لمدة ثلاثين دقيقة، محشورين داخل الباص المختنق. قال بورخس إنها رحلة طويلة، وكان مندهشاً بأننا مانزال في نفس البقعة. أخيراً نزل السائق واختفى. بعد ربع ساعة أخرى طُلب منا أن ننزل من علبة السردين تلك. بعد نصف ساعة أخرى طُلبَ منا أن نصعد ثانيةً، هذه المرة درنا أرض المطار بكاملها لكي نصل إلى متجر المطار الذي كان يبعد أمتاراً قليلة فقط عن المكان الذي انطلقنا منه. كان الصباح يخفي ألغازَه.

عطل في المحرك استدعى العودة إلى المتجر الصغير. كان عمال الميكانيك في حالة اضراب. قبل يوم فقط كانت المدينة مطرزة بالقصاصات الملونة ومسيرات العمال الذين كانوا يحتجون على الإتحاد الموسّع الذي كان يحاول ضمّ هيئة (SMATA) إليه وربما اغتيال زعيمها. الآن، لا أحد يعلم فيما إذا كان سبب تأخيرنا هو عطل في المحرك، أو الإضرابات، أم السياسة الوطنية.

أُعلن عن موعد طائرتنا في الأوقات التالية: ٩: ، ٤٥ ١٠: ، ٣٠ ١١ : ، ٣٠ ١٢: ، ١٥ ٣: ، . .

انتظرنا على الطاولة نأكل سندويش الجبن والهامبرغر، ونحتسي القهوة، ونتبادل الأحاديث اللانهائية. وهل هناك أفضل من هذا؟

ناقشنا الزمن، موضوع محاضرته. وناقشنا الكمال. كان بورخس حميمياً تارةً، هزلياً تارةً، ومن ثمّ حزيناً تارةً أخرى. كان بريئاً، مغتبطاً، حكيماً بنضج، عنيداً، لطيفاً، وتواقاً. كان مزاجه يتبدّل مثل وجهه. عندما كان يتحدث عن أولوياته المفضلة- هيراقليطس، تيسترتون، سوفوكليس، ميلتون- كانت ذائقته وحداثيته لاتصنّفان زمنياً. حين جلسنا أخرجتُ انطولوجيا للشعر الإنكليزي وقرأتُ له وردزورث، ومن بعدها قصيدة فروست "ليس بعيداً، ليس في العمق". كان يردّد الأبيات التي أحبّها، وكان صوته يملأ الكلمات بأهمية إيقاعية. كان يحب عبارة جون دن "Oh, my America" والتي سماها "شعر نبوي".

"بالمناسبة، عيناي تتحسنان،" قال.

كنتيجة لسلسة من الحقنات اعتقد بورخس بأنه أصبح يرى بشكل أفضل نسبياً.

"أستطيع التعرف على أنفك. إنه مدبّب، كلا؟ وهناك عينك وذقنك،" قال وهو يتلمّس وجهي. "و ماهذا؟ بارنستون، هل ترتدي ربطة عنق؟"

"نعم."

"مارأيك أن نتقايض؟"

شعرت أليشيا بالذعر. لقد اعتبرت ربطة عنقي الصوفية شتائية جداً من حيث وزنها وصيفيه جداً من حيث لونها.

twitter @baghdad_library

"بالطبع، أقايض. ولكن هل أنت جاد ؟"

"بورخس جادّ؟ بعض الناس يقولون إنني رجل مبادئ. هل هذا ماتعنيه بالجادّ؟" كان تقريباً يغني. "أعتقد أنني لست رجلاً جاداً."

"هذا صحيح. أنت من الوزن الخفيف- مجرد صديق أدبي ودود."

"شعرتُ بالقلق للحيظات." قال بحماس. "لا أريد أن أكون جاداً. انتبه، قلتُ جاداً."

خلعتُ ربطة عنقي وناولته إياها. بدوره نزع ربطته. منذ أن توفيت والدته واظب على ارتداء ربطات العنق السوداء. هذه الربطة كانت شاحبة، رقيقة، بائسة، وهي هدية من كاتب أنكلو - ارجنتيني صديق هو ويليام شاند. بالتأكيد لم تكن أكثر ربطاته أناقةً. غالباً ماكان بورخس يتأنّق رسمياً مثل لورد أندلسي. في رحلاته الأمريكية كانت بدلاته رزينة ولكن بألوان أكثر حرارة، ومن صوف عالي الجودة، في حين ان ربطات عنقه، التي هي إما زرقاء أو حمراء، فكانت تختارها ماريا. وضع ربطتي الأرجوانية الصوفية، وهي ربطة كنتُ مغرماً بها.

"أعتقد أنني أرتدي فراشاً حول عنقي. إذا بقينا هنا مدة أطول سوف أتمدد عليه. ماذا تقول؟" سألني.

"سوف أحضر لك مخدّة."

كان بورخس يحبّ أن يأخذ إغفاءةً بعد الظهر بشكل اعتيادي. بعد سبع ساعات من الإنتظار شعر بالإعياء. كانت أليشيا جورادو في البدء غاضبة جداً، ومن ثمّ حانقةً، وأخيراً مرهقة. وراحت تكتب رسالة احتجاج إلى محرر صحيفة (La Prensa).

"لماذا يا أليشيا، حين يكون هناك العديد من الأشياء الخاطئة في وطننا ؟"

أجابت أليشيا قائلةً بأنَ جميع البيرونيين رجال عصابات ويستحقون القتل، ومعهم أيضاً المتمردون، وجيش الشعب الثوري، وبقية السياسيين الذين بلا قلب. "ومغتصبو النساء أيضاً." أضافت.

"ولكن من سيبقى؟" سأل بورخس.

أمضى بورخس حوالي الساعة وحيداً في مقهى المطار الموحش والكئيب. كان وحيداً جداً وكأنه في شقته. وبينما أسجّل هذه التفاصيل أنظر الآن إلى صورة فوتوغرافية لبورخس في الكافيتريا. خلفه تبدو الكراسي السوداء المرتبة بشكل عشوائي مثل بيانو سريالي. القبة البيضاء، لكمّه اليساري تكاد تلامس عصاه. إنه يتكئ بكلتا يديه على العصا في وضعية انتظار نموذجية. قبة قميصه تلمع في أعلى معطفه. إنه ينظر بشكل مستقيم نحو الأمام. من هذه الزاوية تبدو فقط عينه اليسارية الميتة مرئية. إنه ينظر إلى الخارج مثل نمرٍ ينتظر، غارقاً في التفكير، كتوماً، معتاداً على الأزل.

وبينما كان بورخس يجلس بلا اكتراث عرفتُ أنه لم يكن يبتكر قصةً أو قصيدة. أم هل كان يفعل ذلك حقاً؟ ربما كان قد اشترى لتوه روح شكسبير، أو عثر عليها مع نسخة قديمة غير معروفة من كتاب توماس تراهنر (قرون من التأمّل) في أحد أقبية المكتبات في لندن. ولكن بينما كنتُ أراقبه بدأتُ أتذكر "نصّ الله" وهي واحدة من قصصه حلّت فيها نعمة الفهم. الراوي، تزيناكان، ينحدر من إحدى قبائل المايا في عصر الفاتح بيدرو دي الفارادو الذي اجتاح البلد وأودع تزيناكان في سجنٍ مبني من الحجارة. سنوات عديدة تنقضي لدرجة أن تزيناكان ينسى طريقة حساب الوقت. إنه آخر كهنة الشفقة الذي جرّب سكينه البركانية

twitter @baghdad_library

في صدور ضحاياه. ولكن كان هذا منذ وقتٍ سحيق- ولكن ليس سحيقاً جداً كأن نقول أوّل أيامِ الخلق الذي يستطيع أن يتذكّره الآن. سنوات العتمة جعلت منه شاعراً أو رؤيوياً، ذلك أنه رأى الله في ضوء متوهّج، في سيفٍ أو في الدوائر البرعمية لزهرة. في لحظة صفاءٍ خاطفة يفهم نصّ النمر. النشوة لاتكرر رموزها، والأيام ستمحو أثره، وما من حياةٍ أخرى ستكون قادرة على فهم الصّيغة. مع ذلك، لقد استطاع أن يفهم.

كان بورخس يحلم بتلك القصة. لا، بل لقد حلم بها منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت، لكنه مايزال يحاول أن يسرق معلومات إضافية من تزيناكان، الكاهن الهندي. حتى إنه نسي الإسم الذي خلعه على بطله السجين. (إنه لايعيد قراءة قصصه، هذا من شأن الآخرين.) يبدو الشاعر متحفزاً وغارقاً في النبل فيما يحاول أن يرسم خطته في استرجاع معلومات عن خرافة عتيقة، وعن كاهنٍ متوحّش جعله ينتظر طويلاً في زنزانته. في كافيتريا المطار، ذاك الهنديّ المنكوب الذي عذّبه ألفارادو المتحضّر، يسمح لنفسه بعشرين دقيقة من التحديق الأزلي، وبلمحةٍ عبر نعمة الفهم.

"أكره أن أوقظكَ من هواجسك يابورخس، لكننا على وشك أن نغادر."

"كيف يمكن أن أعطي المحاضرة؟ إنها الخامسة الآن. هذا الرجل، ألوكو، غني جداً، لكنه، على فكرة، إنسان بخيل."

أليشيا، بورخس، وأنا، صعدنا على متن الطائرة. كانت الساعة تدق السادسة مساءً قبل أن نصل إلى قرطبة وكان ألوكو بانتظارنا في المطار. لم أستطع أن أخفي إعجابي باسمه الإيطالي، والذي عنى لي

إيقاعياً "المجنون" حين يُجمع الحرف الإغريقي الأول من اسمه "O" مع الكلمة الإسبانية "loco" والتي تعني "المجنون". كان ألوكو يضع نظارات سميكة وغاردنا بصحبته. هو الآخر أمضى يوماً كاملاً في المطار.

انطلقنا في رحاب المدينة الكولونيالية العتيقة والجذابة، ومررنا بجانب تمثال الفاتح كابريرا كاراباجال، مؤسس المدينة، وأحد أجداد بورخس. شيءُ ما غير صحيح في شخصية ألوكو، وكنتُ مرتاباً. اتجهنا بالسيارة إلى المسرح حيث كان مقرراً أن يعطي بورخس محاضرته. وعلى الرغم من تأخير يوم كامل كانت القاعة تغصّ بمن فيها. الجمهور، وبمحض الغريزة والتجربة معاً، كان يحدس أن شيئاً غير صحيح يدور في الهواء. قبل اسبوع كانت أجهزة الأمن قد اعتقلت تسعة من الطلبة وهم في قاعاتهم، حيث أوثقوهم، وأطلقوا عليهم النار، ورموا بجثثهم خارج المدينة.

عندما اقتربنا من المسرح تباطأت سيارتنا. مئة او مئتان من الشباب الذين لم يستطيعوا الدخول رأونا. بدؤوا يضربون أقدامهم في الشارع، يصيحون ويهتفون بورخس! بورخس! بورخس!

كان يجب أن نتوقف في تلك الأثناء. لكن ألوكو ضغط على البنزين وأكملنا مسيرنا. اجتاحني غضب كبير. واستمرّ بورخس يردد: "لم أسمع في حياتي أناساً يهتفون بورخس في الشوارع." كان منذهلاً، سعيداً بهتافات الناس، ومرتبكاً لايعرف إلى أين نحن ذاهبون. "ماذا عن محاضرتي؟" قال لي.

"اقفل راجعاً،" قلتُ لأولوكو. "دعنا نعود إلى المسرح."

twitter @baghdad_library

"يجب أن نذهب إلى المكتبة،" قال ألوكو. "لايوجد وقت للمحاضرة، أنا آسف أن أقول هذا. لدي محلّ ممتلىء بالزبائن ممن ينتظرون بورخس طوال بعد الظهر."

"اقفل راجعاً."

انتابتني رغبة عارمة بأن أمسك بالمقود لكنني كنتُ أجلس في الخلف مع بورخس. كان ألوكو يخون بورخس والناس الذين في المسرح.

"المشكلة هي الأمن. يوجد العديد من الناس داخل ذلك المسرح، ويوجد أيضاً الكثير من المشاغبين في الشوارع، معظمهم من الطلبة. يتسع المدرج لخمس مائة شخص فقط، ويوجد الآن سبع مائة متجمهرين في الداخل. يمكنك أن تتأكد بأن السلطات لن تسمح بالمحاضرة."

"أنتَ تكذب،" قلتُ له.

وتابعنا سيرنا.

"انظر، بارنستون، أنا لا أحبّ هذا،" قال لي بورخس بالإنكليزية. "هذا أمرٌ جدي، أتيتُ إلى هنا لكي أتكلم لا لكي أوقّع كتباً."

"إنه بخيل، كنتَ محقاً تماماً في تقييمك له."

"هؤلاء الناس ينتظرونني لكي أتحدّث إليهم اليوم. بالطبع، يمكن أن أقدم لهم محاضرة بائسة، لكن هذا لن يثنيهم عن عزمهم. لقد احتشدوا هناك مستعدين لأن يسمعوا أيّ شيء أقوله، وعلى الرغم من أنهم مخطئين في ذلك، لكنني لاأستطيع أن أغيّر استقبالهم السعيد لي. الناس كرماء معي جداً."

"بسبب هذا الوغد، لن تسنح لهم الفرصة لأن يكونوا اليوم كرماء."

"صحيح أنني كنتُ قلقاً، لكنّ المحاضرة بكاملها في رأسي. كنتُ سأتحدث عن الزمن."

"ليس الآن يابورخس. هذا المأفون مجرد كلب."

"بارنستون، أنتَ قاسٍ جداً تجاه الكلاب."

في مكتبة ألوكو وقع الشاعر مطيعاً سبعين أو ثمانين نسخة من أعماله الكاملة. هذه الطبعة الأولى من أعماله الكاملة كانت باهظة الثمن مثلما كانت بشعة، لكنها مفيدة للإقتناء. الغلاف الأمامي كان يظهر صورة مرعبة لبورخس، مثل سجين أطلق عليه الرصاص في سجن مظلم ولم يستطع أن يبتسم أو يحلق ذقنه. وكما هي العادة، كان الشاعر يبتسم بنبل كلما ناوله أحدهم كتاباً للتوقيع. ونادراً ماكان ينسى أن يتبادل أطراف الحديث مع كلّ وجهٍ لامرئي يقابله.

"دعونا نذهب،" قال بورخس لي ولأليشيا حالما حلّت الإستراحة من التوقيع. أصرّ على الركوب في التاكسي والتوجه إلى الفندق الذي كنا ننزل فيه.

كان بورخس شارداً، يشعر بالملل بشكل كبير، لكنه لم يخسر نبله. وبينما كنا ننتظر في بهو الفندق لم يبد عجوزاً البتة، بل كان متعباً، غارقاً في ذاته. لم يسبق لي أن رأيته هكذا من قبل. دخلنا غرفة العشاء وجلسنا وحضر بعض اصدقائه القدامى لرؤيته. وشيئاً فشيئاً استعاد بعض قوته بصحبتهم، وقبل أن نتناول أي طعام كان يتحدث إليهم، يمزح ويضحك، ويتبادل القصص معهم. بعض الجالسين على الطاولة أعطوه نظاراتهم وكان يجربها الواحدة تلو الأخرى. كان مرحاً وسعيداً. كان طبيبه قد نصحه بعدم العبث بعينيه خشية أن يرهقهما. لكنه لوهلة كان يظن بأنه يستطيع الرؤية بشكل أفضل بواسطة نظارات الحظّ هذه. ناولته نظاراتيّ الشمسيتين المذهبتين. قال إنها حسّنت بصره. كنتُ أشك في ذلك لكنه لبسهما طوال ذاك المساء. في تلك الليلة، وعلى الرغم من

twitter @baghdad_library

خديعة المجنون ألوكو، ظلّ بورخس سعيداً بشكل كبير.

"كيف نمتَ البارحة؟" سألتُ بورخس في الصباح التالي.

"نمتُ بشكل جيد لأول مرة منذ شهرين."

كنتُ قد أعطيته بعض المسكّنات واقترحتُ أن يتناول نصف حبّة.

"اعتياديأً أرى كابوسين في الليلة الواحدة. ولكن عندما أرى كابوساً أدرك على الأقل بأنني نمتُ قليلاً، وأقول لنفسي في الكابوس: انظر، أنتَ لاتعاني من الأرق. إما أرى نفسي في الشارع والحشود تهصرني أو أنني في البيت أتنقّل من غرفة إلى غرفة إلى مالانهاية. الكابوس الأول أكثر رعباً."

جلسنا في غرفة العشاء وحيدين. تناولنا فطوراً عجائبياً ونحن نتآمر ضد العالم. بورخس احتقر محاضرته التي لم يعطها أبداً، حديثه الذي بلا زمن.

"بورخس، تقول لي إنك تخشى أن تنسى، بدون ملاحظات تسجلها، النقاط الرئيسية عندما تلقي محاضرة. الليلة الماضية حقّقت الكمال. لم تنسَ شيئاً."

"ولم أتذكّر شيئاً. ولكن، انظر، هناك أمر آخر أكثر غرابةً: لم أقل شيئاً غير صحيح. كان لصمتي جمال الشعر اللامرئي. لامرئي مثل الوهم الذي يجب أن تدرك بأنه الأساس لكل مانحلم به كواقع."

كان بورخس يسخر من العالم بادئاً بنفسه. تحدث عن شاعر أرجنتيني مشهورٍ من القرن التاسع عشر لكنه أصبح منسياً الآن.

"المسكين. الشيء الوحيد الذي خلّفه كان الكمال." قال بورخس بشكل فجائعي.

"وأنت، بورخس، ماذا خلّفتَ؟"

"ليس الكمال." قال، "هذا مؤكّد. هل كان ويتمان كاملاً؟ كم يبدو الكمال مملاً! كان ويتمان مخطئاً في شعره مثلما كان فروست مخطئاً في الغالب. كانت لديهما القدرة على أن يجازفا ويكونا مخطئين. لهذا السبب كانا شاعرين جيدين. هل تعرف، يا ويليس، أن بودلير الذي تحبه كثيراً، كان دائماً كاملاً. على الأقل كانت قوافيه كاملة. ولكن حتى في أفضل قصائده يمكن أن تجد كلّ انواع الكليشيات السمجة."

وبينما كان بورخس يسخر من فكرة الكمال ذاتها تذكّرت مديح تفيزتان تودوروف لفكرة عدم الكمال في العلم. حتى فكرة الحقيقة المطلقة تناقض سبب وجود العلم؛ النقص هو ضمانة الإستمرار. النقص في الفن بالنسبة لي هو بمثابة ضرورة للقصائد الحية.

"تعال، بورخس. أنت مصيب في هجومك على الكمال، لكنك لست عادلاً تجاه بودلير، الذي كان يملك أصالةً وروحاً لم يمتلكهما أحد من مجايليه. صحيح أنه استخدم بعض العروض المكرورة. أنت نفسك تحبَ قوافيه "البسيطة". لماذا تسمح لويتمان ببعض الأخطاء وتحرق بودلير من أجل بضعة كليشيهات في شعره؟ ومع اقتراب نهايته، كما تعرف، توقف عن الحلم بالجزر والسعادة وراح يكتب قصائد خارقة عن سكان المدن الفقراء والمرضى واليائسين ..."

"ولكنك تعلم بأنني معجب بتشارلز بودلير،" قاطعني قائلاً. "وكيف لي أن لاأكون؟ لكنك يجب أن تحترم غرابتي أيضاً. أليس لدي جدة من أصل انكليزي؟ صورته، تلك الصورة الأخيرة، كم بدت متألمة، ويمكن أن أقول صريحة. بودلير عانى. ثم راح يقوم بكل تلك الحركات السخيفة والعقيمة للفوز بالإحترام في النهاية. ماذا يعني أن يدخل الأكاديمية الفرنسية؟ هل يمكن أن تتصور أن مروّج إدغار بو كان يرغب

twitter @baghdad_library

الحصول على قبول الأكاديمية الفرنسية؟ صورة بودلير، كما أتذكرها، مثلها مثل أية صورة في كل الكتب، هي صورة تشبه كافكا. هل تتذكر تلك اللقطة المعذبة لكافكا وهي تظهر وجهاً يميل إلى الوسامة لكنه مع ذلك يبدو خارجاً لتوه من مستعمرة جزائية؟"

"هللو"

إنه ألوكو. كان بائع الكتب البائس هذا مصراً على دفع نقود لبورخس مقابل المحاضرة التي لم يلقها. عرض عليه مايعادل ١٥ دولاراً. كان ذلك صعب التخيّل. رفض بورخس استلام أي شيء البته.

"لا، لا، لا!" كان يجادله بورخس.

لم يكن بورخس يكترث إذا غشّه أحدهم، وكنتُ اتساءل كيف سيتعامل مع هذه المسألة البسيطة. كان مزاجه رائعاً هذا الصباح.

"ألوكو، هل توجد دور صدقة في هذه المدينة؟"

"نعم." أجاب بائع الكتب متحمّساً. "لدينا دور صدقة للمصابين بالسرطان والجذام والعمى."

احمرّ وجه بورخس. قال لي بالإنكليزية إنه لن يسمح لهذا الرجل بفرض النقود عليه لقاء محاضرة الصمت تلك.

"قولي لي الآن، أليشيا، هل أنت مصابة بالجذام؟"

"بورخس!" استنكرت أليشيا.

"أليشيا، هل أنتِ الآن مصابة بالسرطان؟"

"كلاّ!" أجابت بسحرٍ لذيذ. "ما الذي تهدف إليه؟" أجابته بنبرة تحدّ وعناد. كانت أليشيا ثاقبة النظر عندما كانت ترغب بذلك. لايستطيع المرء أن يتجاهلها ويهرب بريشه. ولكن، وفيما كان يدير ظهره لها، كان بورخس ينظر إلى ألوكو ويحدّق فيه ملياً.

"سينيور ألوكو. سينيورة جورادو تقول لي بأنها ليست مجذومة. كما أنها ليست مصابة بالسرطان. أنا سعيد جداً لسماعي هذه التأكيدات والأخبار الحسنة، مثلما أتوقع أن تكون أنت. الآن، وبما أنني سألتُ عن إمكانية التبرع لبعض دور الصدقة- مما يقع خارج تجربتي- يجب عليَّ الآن أن أفكّر بشكل أناني. تبرّع بالنقود للعميان."

ولدى انتهائه نهض وودّع بائع الكتب وغادرنا جميعاً إلى الخارج. هناك كان ينتظر صديق بورخس المحامي كارلوس ألفيريز الذي أشرف على قضية طلاقه. كان هو أيضاً رجل أدب ويحب أن يناقش أعمال فلوبير وبروست. كان قد نشر عدة دواوين شعرية ليس فقط في مدينته قرطبة بل في بوينس آيرس أيضاً حيث كان يعيش. كان ألفيريز طويلاً ممشوق القامة ويوحي بالتسلط وقد أسعده اللقاء بموكّله.

"أريد أن أصطحب بارنستون وإليشيا في جولة في مدينة قرطبة،" قال بورخس شارحاً لكارلوس. "أنت تعلم، لدي أجداد من القرن السابع عشر كان لهم اسهام في تأسيس هذه المدينة."

لقد كتب بورخس قصيدةً عنَ التأسيس الخرافي لبوينس آيرس، والتي كان أول من اكتشف موقعها جوان دياز دي سوليس، وهو مكتشف كان يبحث عن معبرٍ إلى الشرق الأقصى- كان طموحاً جامحاً، وأثناء إبحاره عبر نهر ريو دي بلاتا، دياز دي سوليس قُتل وأكله الهنود. ينتشل بورخس مدينته الأم من براثن الزمن ومن بداياتها قائلاً:

بالنسبة لي هي مجرد خرافة أن يكون لبوينس آيرس بداية.
أشعر أنها خالدة كالماء والهواء.

twitter @baghdad_library

وضعنا أشياءنا في سيارة كارلوس وأسرعنا هاربين من الفندق ومن مضيفنا المتعطّش للمال. كان كارلوس ألفيريز قد احتسى الكثير من النبيذ على الغداء. كان له إيقاعه الخاصّ وهو يتجول بنا عبر شوارع المدينة القديمة، وقرب تمثال الفاتح المؤسس كابريرا كابرجال.

قال بورخس: "هذان كانا اسمان لي، كابريرا وكابرجال. في تلك الأيام كانت العدالة قضية سهلة. العدالة كانت السيف. كانت جميلة في المعارك، والعدالة والمثل كانت تعني من أنت. لو كنتَ أحد هؤلاء الفاتحين، فإنّ المجازر المرعبة وإحراق الكتب وتدمير المعابد الحجرية ونسف المدن لم تكن سوى أفعالٍ في خدمة الله والملك والمجد الشخصي. في تلك الأيام أنتَ تمثّل البطل النموذجي (الإسطوري). الآن، أن تكون جنرالاً فهذا مازال يعني العائلة، لكنه قد يعني أيضاً الفساد، وكاثوليكية انتهازية- لم أستطع أبداً أن أفهم الكاثوليكية، كاثوليكيتي، لكنني لاأحبّ الأوبرا والبيروقراطية- والعدالة في وقتٍ كهذا تعني التعذيب، القتل، وأكثر مظاهر السلوك الإنساني وحشيةً. أستطيع القول إنّ كلّ التقدم الخادع لقرننا يمثّل نوعاً من الضمير المحسّن. أخيراً استطعنا أن نهشّم الكثير من الأيقونات. لم نعد نأبه لها ولانقف بخشوع أمامها. ولن أنكر بأنني احتجتُ لحياةٍ بكاملها كي لا أحترم وأخشى أجدادي الفاتحين والضباط، ومن ثمّ كتبتُ قصيدةً عن صورة كابريرا كابرجال. تلك كانت سنوات امتدت طوال حياتي خلطتُ فيها بين الشجاعة والجبن."

الفاتح

كابريرا وكابرجال، هذا كانا اسمان لي.
ارتشفتُ زجاجةَ النبيذ حتى آخر قطرة.

لقد متَ وبعثتُ إلى الحياة مراراً. أنا
النموذج. الآخرون مجرَد بشر. وكان زعمي:
من أجل اسبانيا والصليب كنتُ الجندي الجوال
وفوق شواطئ وبلدانٍ لم يطأها أحدٌ
في قاراتٍ كافرة أشعلتُ الكثير من الحروب.
في البرازيل الصاخبة حملتُ الراية وتقدمت.
لا الملك ولا يسوع ولا الذهب الأحمر
كانت أسباباً محرّضة وراء جرأتي التي
بثّت الرعبَ في صفوف الكفّار.
أجل، عدالتي كانت السيف.
كان جميلاً في المعركة الدموية وقائداً لها.
أما البقية؟ هذا لايهمّ. لقد كنتُ شجاعاً.

على نقيض الكثير من المدن الإرجنتينية، تمتلك قرطبة عدداً من الكنائس والبيوت الكولونيالية. لكنها لم تكن بنفس الغنى والرهافة الموجودة في كوسكو أو مدينة مكسيكو. (لم تكن الإرجنتين تملك ذهباً.) ويتصف جمالها بالرقة، كما هو الحال مع الجدران الخشبية والحجرية الواضحة لسكن الملوك والراهبات، بأعمدتها العارية التي تزينها مدافع فولاذية قديمة، إضافةً إلى النوافير، والزهور التي تتناقض حياتها القصيرة الساطعة مع الخشب والحجر القديم. مررنا قرب الجامعة التي كانت موقعاً لمذبحة حديثة، ومن ثمَ عبرنا إلى حدائق المدينة. يستسلم الفارس للنوم تحت شجرة الصفصاف في تلك الحدائق وعندما يستيقظ تكون حبيبته قد فرّت

twitter @baghdad_library

هاربة. لكنه سرعان مايعود للنوم، غير راغبٍ بالإستيقاظ حتى تعود ثانيةً إلى ذراعيه. إنه مدفونٌ هناك مع أحلامه.

فجأةً يصحو كارلوس ويتذكّر الوقت. عدنا مسرعين باتجاه المطار. أدهشني كارلوس الذي كان يمارس هواية سباق السيارات. حسبتُ أننا لن نتأخّر.

لا أعلم كيف تنبّه بورخس، لكنه قال لي: "ويليس، اعتقد أن كارلوس مخطئ. إننا نهرع مسرعين بالإتجاه المعاكس. ربما يريد أن يأخذنا إلى توكومان."

"أو باتاغونيا."

انحرفنا باتجاه طريقٍ جبلي حيث كان كارلوس، الذي بدأ القلق يسيطر على ملامحه، يقتفي أثر إشارة مرورٍ مألوفة. وراح يزيد من سرعته كأنما كان ضامناً وجهتنا الصحيحة. أليشيا التي كانت تجلس في الخلف مدت يدها وأمسكت بذراعي.

"ربما كانت أمامنا فرصة التأخّر عن الطائرة يا ويليس." قال بورخس متوجّساً.

ضغط ألفيريز على المكابح وكأنه يريد أن يتوقف، وانقذف بورخس باتجاه الأمام ملامساً الواجهة الزجاجية. أمسكتُ بكتفه الأيسر واصطدمنا معاً بحافة التابلو. وبدلاً من أن يتوقف استدار مضيفنا نصف استدارة وعدنا نسرع عكس الإتجاه.

"أريد فقط أن أختصر المسافة." قال لنا.

"لا تأبه لموعد الطائرة يا كارلوس،" قلتُ ممازحاً. "أنت تعرف أن بورخس يحبّ قرطبة، ويحبّ بشكل خاصّ صحبتك. أنت صديقه ومحاميه، أليس كذلك؟"

عندما بدأ التحدث ثانيةً خفف سرعته بشكل كبير. لم أكن اعتقد أن موتنا في حادث سير يعادل في قيمته الوصول في الموعد المحدد.

"الوصول في الموعد المحدد فعل قرصنة للزمن،" قال بورخس. "هذا مايقوله أوسكار وايلد. ياله من رجل ذكي."

"الوصول في الموعد المحدد يمكن أن يكون أيضاً فعل لصوصية للحياة." أضفتُ.

"وهدرٌ مرعبٌ للوقت،" أضافت أليشيا.

كنا نحاول أن نقنع محامينا بأننا حقاً ثلة من المتسكعين الذين لايكترثون للساعات والطائرات أو أين نمضي ليلنا. غير أنَ السيارة راحت تنهب الطريق العام بأقصى سرعةٍ. أخيراً خففنا سرعتنا لدى مرورنا فوق طريق رملي واتجهنا إلى مدخل غير نظامي للمطار. قفز كارلوس من وراء مقوده وأسرع باتجاه مكتب القطع. وعلى الرغم من أنه كان مضيافاً وحريصاً، لكننا وجدناه يهرول أمامنا. لم يكن بورخس قادراً على مجاراته في الركض- وكانت الطائرة بالطبع متأخَرة لمدة ساعة كاملة.

بعدما ودعنا صديقنا، المحامي، صعدنا إلى الطائرة. سأل بورخس فجأةً: "أين هي حقيبتي؟"

طلبتُ من المسؤول أن يوقف الطائرة لدقيقة واحدة. خرجتُ راكضاً واتجهتُ إلى مكتب القطع ثانيةً. هناك رأيت كارلوس، كان مايزال واقفاً غارقاً في التفكير وعلى وجهه ابتسامة حنينٍ لصداقة فريدة. ودعته للمرة الأخيرة وأنا أتناول منه حقيبة بورخس التي كان يحملها بصفاء في يده اليمنى.

twitter @baghdad_library

"أشعر كأنني نجمُ مضمارٍ للسباقات." قلتُ لبورخس وأليشيا وأنا أدخل كابين الطائرة. "هل تعتقد بأنني يجب أن أغادر ثانيةً وأسابق الطائرة إلى بوينس آيرس؟"

"حسن، سوف تفوز بالطبع." طمأنتني أليشيا.

بعد انتهاء سباقنا العجيب إلى الطائرة الفضية حلقنا عائدين إلى بوينس آيرس، يهدهدنا الهدير الهادئ للمحركات. كنتُ أتلو الشعر على بورخس طوال الرحلة. قرأتُ هوبكينز وجون دن وروثكة وفروست. وكان بورخس قد عثر على فكرة لقصيدة من تعليق لي حول قصيدة فروست "البتولا": "تلك القصيدة هي ذاكرة فروست المستحيلة."

حين اقتربنا من مدينة ريوديلا بلاتا رحتُ أقرأ "السوناتات المرعبة" لجيرارد مانلي هوبكينز. لاحظتُ أنها كانت المرة الأولى التي تُقرأ فيها "السوناتات المرعبة" لهوبكينز على متن الطائرة بين بوينس آيرس وقرطبة. مع ذلك ماذا يمكن للمرء أن يفعل أثناء الهبوط سوى ذلك؟

أستيقظُ وأشعرُ هبوطَ الظلام، لا النهار.
أية ساعاتٍ، آه أية ساعات سوداء أمضيناها
في هذا الليل! أية مشاهد، أيها القلب، رأيتها، أية طرق سلكتها!
بل سوف أقول المزيد، في تأخر ضوء النهار،
وأقول هذا ببعض الحنكة. ولكن عندما أقول ساعات
فإنما أعني سنوات، وأعني الحياة. نحيبي
صرخاتٌ لاحصر لها، صرخات مثل رسائل أرسلتها
إلى عزيزٍ يعيش، ياللحسرة، بعيداً.

في المدينة أنزلنا أليشيا أولاً. ما إن وصلنا منزل بورخس في التاكسي التي تقلنا ورحتُ أدفع للسائق، كان شاعرنا يعلم تماماً أين هو. خرج بنفسه وغادر السيارة من الجهة الخاطئة، حانياً رأسه بتأنٍ. وجد نفسه في منتصف الشارع المضاء واتجه متثاقلاً نحو الرصيف. كان ذلك خطيراً جداً. وبينما كانت السيارات العابرة تمرّ مسرعة، رأيته للحظة يقف وحيداً، عاجزاً، ينتظر. حين نزلتُ كان قد صعد إلى حافة الرصيف. كان متعباً من الرحلة، وفخوراً قليلاً بعمله الإنتحاري ذاك.

أمام بابه قرعنا الجرس، ولكن لم يجب أحد. أخرج بورخس مفاتيحه وأدار القفل.

"المزلاج محكم الإغلاق، وهذا يعني أنّ فاني موجودة في البيت." قال. "ولابدَ أنها نائمة بما أنها لاتتوقع رجوعنا في وقتٍ متأخر. هذا أنا أعود إلى بيتٍ خالٍ. أستغرب لماذا؟" قال بتشاؤم. "من فضلك اتصل في وقت متأخر الليلة."

"بالطبع."

فتحت فاني الباب وهي تتثاءب.

"كيف كانت الرحلة؟" قالت وهي تمسح شعره وتعدّل من وضع ياقته حتى قبل أن يدلف من المدخل.

"كانت تامّة." أجابها. "ألقيت محاضرة مثالية. لم أتلعثم أو أنشز. أحببتُ قرطبة، لكنه لم يتح لي التحدث عن الزمن. اعترضتنا بعض المشاكل مع رجل مجنون."

"بورخس، وداعاً، وشكراً على الرحلة الطيبة."

يجب أن تأتي غداً، عندما ألقي حديثاً عن ليوبولدو لوغونس.

twitter @baghdad_library

أريدك ان تقابل قريبتي الفرنسية العجوز. سوف تعشق وجهها."

"سوف آتي."

في المساء عدتُ إلى زنزانتي الممتعة. صديقتي آماندا أورتيغا، المصورة الفوتوغرفية التي تسكن في البناية المقابلة تريد أن تراني. تحدثنا لبعض الوقت. كانت والدتها تحتضر، وهي مارونية لبنانية الأصل تتقن العربية. والدها، وهو يهودي اسباني من سوريا، كان قد توفي منذ فترة. وبما أنها تنحدر من بلد عربي، وثلاثة من أجدادها هم عرب، كان الإرجنتينيون يسمونها (التركية) وهو استخدام شائع في المكسيك أيضاً. آماندا ساعدتني في إعداد كتابي عن فن الفوتوغرافيا. كانت قد اصطحبتني في إحدى الظهيرات إلى الساحة الكبيرة في لابلازا دي مايو، وكانت تغصّ بمئات الألوف من الناس حيث استمعنا إلى إلزابيتا تصيح عبر المايكرفون. أبديتُ عندئذ ملاحظة غير ودودة بحق بيرون. وكيف لي أن أكون عكس ذلك؟ كان شعبه قد اخترع طبقة "المختفون" وكان على الارجنتين أن تكمل نهاراتها ولياليها الدموية تحت التعذيب والإغتيالات.

"لم يكن صالحاً للإرجنتين، لقد فرط ببلاده، وسبب لها الإفلاس، ،وكان ديماغوجياً. مع ذلك قام ببعض الأشياء المفيدة لصالح العمال ومهما يكن السبب فقد ربط نفسه بالطبقة الدنيا. في خطاباته كان يتوجّه إليهم وكأنّ لهم أهمية. ما من أحد آخر فعل أو سيفعل ذلك."

علمتني أماندا التواضع، حتى فيما يتعلق بالبيرونيين الذين يقتل نظامهم الدموي الآن الشعب الإرجنتيني. فكّرتُ بأولئك السفاحين الذين رسمهم بورخس بواقعية شديدة– أو برومانتيكية كبيرة. هل كانوا أفضل

حالاً من أولئك الأوغاد الذين يصفَون "المختفين"؟ وهل يمكن أن يكون بعض هؤلاء -متنكرين بأقنعة ومهمّات أخرى- هم أنفسهم نفس الأوغاد القتلة؟ هل كانت تجوالاتهم الخاصة في الحارات، بطرائقها المتوحشة، مختلفة عن عمل البوليس العسكري الوطني؟ لقد فضّل بورخس أولئك الرجال ذوي الشعر الأحمر من قصة (الغريب) بخناجرهم ذوات النصال القصيرة. لقد وصفهم بالقساة والمخبرين المخيفين المسؤولين عن أعمال قتل متعددة، وهم ينتشرون عندما يكونون فقط سكارى أو مقامرين، أو الإثنين معاً. هل كانوا حقاً محطّ إعجاب؟ أيَ شيء نبيل يمتلكه هؤلاء، هم الذين استغلوا جوليا بورغوس ومن ثمّ قتلوها لأنها أصبحت موضوع لذة فيما بينهم- قتلوها لكي يحافظوا ربما على صداقاتهم الشاذة؟ هل كانت والدة بورخس محقة في عدم رضاها عن القساة الذين رسمهم ابنها الرقيق، بل هل كانت محقة في احتقارها لهم؟ لماذا يكون عراك السكاكين ممتعاً؟ ربما كان كذلك في القصص فقط، وفي العمل الدرامي مثله مثل الخطف والإغتصاب والأفعال الأخرى للنظام. المشهد المطلق هو الحرب. كلّ جيلٍ يتعلّم ذلك.

بعد بضع ساعات عندما غادرت أماندا أُصبت بالإنهيار. لم يكن برفقتي ساهر الليالي. قبل أن أخلد للنوم، فكّرتُ، على أية حال، بإخلاصي للحكيم العجوز الذي أصبح أدبه وشخصه معاً جزءاً حقيقياً من حياتي، وسوف يبقى كذلك. أنا لستُ ممن يعبد الأبطال، ولا أشعر بشكل خاص باحترام للسلطة، أوِ للشخصيات البارزة أو (قد يبدو المصطلح سخيفاً) للملوك. (عملي الأول- كنتُ في العشرين من عمري- كان في مدرسة لولي العهد اليوناني.) كنتُ أحبّ فقط أن أقرأ وأكتب

twitter @baghdad_library

وأسافر وأتعرف على أصدقاء وعلى عشيقة. مع ذلك هنا كنت مع بورخس الذي كان يمثّل لي الكاتب الحي الخالد. لقد تعودت دائماً أن أشعر بالراحة، حتى وأنا شاب صغير، وأنا برفقة شعراء، أحترمهم وأجلّهم كثيراً: الإسبانيان بيدرو ساليناس وفيسينتي ألكساندر، والإغريقيان أنجيلوس سايكلينوس وجورج سيفيريس- وجميعهم الآن من الأموات. والآن أنا مع بورخس، نصف أب ونصف طفل، وذلك بسبب اتكاليته وروحه الخلاقة الرائعة، وبسبب (لا) التي يقابل بها العالم التقليدي كطفل. أن تكون "مع بورخس" يعني أن تكون مع قسطنطين كفافي أو ويتمان أو سافو أو سان جوان ديلاكروز أو وانغ وي أو أنطونيو ماتشادو. وثمة المزيد، ولكن هؤلاء، بالإضافة إلى بورخس، كانوا الشعراء الذين كنتُ الأقرب إليهم. تعلمتُ المزيد من بورخس الشخص أكثر مما تعلمته من أي كتاب تقريباً، مع هذا، أكرر، صوت الشخص والصوت المطبوع على الورق كانا الشيء نفسه. ولو لم يكن هناك ورق سوف يبقى الشخص صوتاً للأدب، وحكيماً، "مثل أولئك القلة من الحكماء الموجودين في العالم،" كما يقول لويس دي ليون في إحدى قصائده. لقد أصبح بورخس "عادتي".

كنتُ أزداد إعياءً تحت ثقل قسمتي النادرة، وانهرت.

كانت محاضرة ليوبولدو لوغونوس ممتازة. وقد سجّلتها. بعد حديثه في المعهد في بوينس آيرس، كان بورخس يوقّع كتباً. بعدها ذهبنا إلى بيت خالته، وهي سيدة عظيمة من عمر بورخس، تلثغ بشكل طبيعي بحرف الراء الفرنسي في اسبانيتها. كانت قد عاشت طوال عمرها في أوربة. التقطتُ لها صورة في شبه الظلام عبر دفع فيلمي. كانت صورة درامية، أو هي كانت شخصية درامية، شفتاها مزمومتان، إحدى عينيها

في العتمة، والأخرى في قلبك. نقاط بيضاء غير منتظمة تزيّن فستانها الداكن هي بمثابة جواهر فارسها المنتظر. يدها اليمنى تبدو ناتئة من الصورة (صورة فوتوغرافية بقياس ٣ (4\مثل مهرّج ريبمراند في لوحة (حراسة ليلية) عندما يُزاح الطلاء ونكتشف أن المسيرة الليلية ليست سوى تسكّع في عزّ الظهيرة. عنقها سبعة أنهار تتحرك باتجاه دلتا وجهها الشاحب. حول عينها المرئية حقاً ثمة دوائر، بل زبدٌ لبياض جزيرة وكواكب داخلية.

كان بورخس يحبّ خالته صوفيا كثيراً. كان مشحوناً بالغبطة، ولأنه كان مع عائلته كان يسرد لنا بسرية (ولكثيرين غيرنا بالتأكيد) كيف كان قد أملى قصّتة (الغريب) على والدته. ظهرت القصة في عام ١٩٦٦. والدته، ليونور، كرهت الحبكة وما قالته عن النساء، لكنها كتبتها بدقة كاملة كما أملاها بورخس عليها. وما إن اقترب من نهاية سرده، توقّف قليلاً. لكنها استمرت في الكتابة.

"الآن، انتهت القصّة،" قالت أمه.

"لكنني لم أعطكِ النهاية."

"لا، ولكنني كتبتها أنا."

"كتبتها أنتِ؟"

"كلاّ، لم أكتبها. فقط نسختُ مالم تقله بعد. "اليوم قتلتها." لابدّ أنك ستكتب هذا. لايوجد طريقة أخرى. أنا نسختُ النهاية فحسب."

أعاد بورخس سرد حديثه مع والدته وقال:"كانت أمي محقة. تركتُ الأسطر الأخيرة من الخاتمة تماماً كما نسختَها."

بعد بضعة أيام تلت الزيارة، كنت أتناول الطعام مع بورخس.

twitter @baghdad_library

"مالذي أعطاك إياه عماك؟"

"ربما بعض الذاكرة، بعض السمع، وإحساس آخر بالزمن. تتذكّر قصيدتي "في مديح ظلّ". أصرّ دي جيوفاني على ترجمتها تحت عنوان "في مديح الظلام" وهكذا كان للطبعة الإنكليزية بكاملها عنوان خاطئ. جيوفاني لم يفهم حالة الشخص الأعمى. نحن لسنا في الظلام، نحن في الظلّ."

ظلُّ بورخس حرّك فيّ شجوناً. كانت تلك حالته- وحدته، تأمّله، رؤياه. في الوقت ذاته، كان ظله يمثّل حالته الجوهرية في ارتباطه مع متصوّف الظلام والألم والخلوة والرؤيا، الإسبانيّ سان جوان ديلاكروز.

"أرى أن سطورك عن الزمن بدأت تأخذ طابع فلسفة ديموقريطيس،" قلتُ له، "حيث تمزق عينيك من أجل أن تفكّر" وتجد أن "شبه الظلّ بطيء ولايسبب أي ألم ويسيل على منحدر قرب الأزل." هذا يمثّل رؤيا يوحنّا المعمدان "لليلٍ هادئ من اللهب الذي يحترق ولايسبب ألماً." شبه ظلك البطيء، هو ليله الهادئ، وليلك وليله يحترقان ولايسببان أيّ ألم. ويوحنّا، الأعمى مثلك، يعيش دائماً دونما شعاع من ضوء، حتى يحرق نفسه ويذوب في ضوء تجلّياته. لا أريد أن أوغل أكثر في المقارنة، لكنني أرى الظلام- أو الظلّ، إذا أردت- كحالة من الضوء، والضوء الضروري، الذي هو بمثابة المركز السرّي، وهو أيضاً أنت."

"إنك تدخل عماي."

"أنتَ الذي تخلّيتَ عنه."

بعد عيد الميلاد ذهبتُ إلى جزيرة إيستر. مجلة (هوليدي) أرسلتني هناك لمدة اسبوع. أرسلتُ لهم برقية تقول: أرغب بتغطية قصة وأخذ صور في جزيرة إيستر.

وكان جواب البرقية:

إن كنت تقصد جزيرة إيستر فالجواب نعم.

كنتُ بشكل طبيعي أقصد جزيرة إيستر. وقد أدركوا أنني أقصد جزيرة إيستر، وادركوا شيئاً ما حولي.

ذهبت. وكنتُ استثنائياً. لقد غصتُ فيها. وثملتُ مثل بقية الناس في الجزيرة في رأس السنة ورأيت الصليب الجنوبي كما لم أره من قبل، وتحدثتُ إلى امرأةٍ باسكونيّة في كهفها، وامتطيتُ خيولاً متوحّشة ودرتُ الجزيرة. رأيتُ حقولاً شاسعة من الشعير والبطاطا الحلوة، وطبول إيسو الزيتيه، وتماثيل عملاقة تحدّق في المحيط. وشعرتُ بالإكتئاب بسبب كتاب بابلو نيرودا عن الجزيرة الذي رأى المستوطنة المظلومة برومانسيته العالية كفردوس لايمكن الوصول إليه، دون أن يذكر كلمةً واحدة بأن محتلّيه من تشيلي، من كلّ حكومة وعهد، فعلوا مابوسعهم لتدمير ثقافتها- لغتها ونظامها الأبجدي ودياناتها الوثنية. الباسكونيون (سكان الجزيرة) يعيشون في بيوت صفيحية وفي الكهوف، في حين يعيش التشيليون في عماراتٍ حديثة. لغة الجزيرة لايمكن التحدث بها في المدارس. سجّلتُ تاريخ الجزيرة المليء بالخطف والأمراض والدمار وذلك استناداً إلى وثائق تاريخية ومذكّرات البحّارة. واستمتعتُ بكلّ لحظةٍ أمضيتها هناك.

عدتُ إلى الإرجنتين مشحوناً بكل تلك الغبطة، عابراً من جديد شفق سانتياغو حيث كان الشاعر الشجاع نيكانور بارا يجلس في صباحات الأحد خارج كاتدرائية سانتياغو ويقرأ قصائده، قبعته بقربه كإشارة لجمع التبرعات لصالح "أهل وفناني تشيلي المقموعين". عندما

twitter @baghdad_library

وصلتُ بوينس آيرس كانت والدة أماندا قد توفيت. كان بورخس يقوم برحلة قصيرة إلى أمريكا ولن يعود قبل أن أغادر من جديد. وتشاء الظروف أن لا أراه في مدينته بوينس آيرس ثانيةً. ذاك الخريف (ربيعنا) الإرجنتيني شهد عزل إزابيليتا وتنصيب نظامٍ دموي أكثر ديكتاتورية.

مع كلَ الغنى الذي اكتشفته في بوينس آيرس، ومع كلَ الأصدقاء، بدت الإرجنتين بلداً خاوياً. خاوية، ولكن ليست "كالجبال الخاوية" التي ألهمت الصيني وانغ وي خلوته، وصمته الشفّاف العميق.

كانت الإرجنتين خاوية. ذلك أنّ بورخس لم يكن هناك.

في أمريكا الشمالية

twitter @baghdad_library

عندما أصحو، أصحو على ما هو أسوأ

ويليس بارنستون: كيف ترى إلى تلك الصحوة المؤقتة، المثيرة والمخيفة معاً، عندما نتأمل مندهشين كيف يحدث أن عقولنا تفكّر وتتكلّم؟ دائماً أصحو على دهشة أنني موجود، وأنني أنا.

بورخس: عندما أصحو، أصحو على ما هو أسوأ. إنها دهشة كوني أنا نفسي.

"فيما يلي نصّ المقابلة الإذاعية التي أجريتها مع بورخس في عام ١٩٨٠ عبر أثير راديو WFIU (الإذاعة الوطنية) خلال زيارة الشاعر لجامعة بلومينغتون في إنديانا، الولايات المتحدة:

ويليس بارنستون: هذا إذا كنتَ ترغب ببيضة قاسية مسلوقة؟

بورخس: لماذا، نعم.

ويليس: وسوف أكسرها لك.

بورخس: انظر هنا، إذا لم تكسرها فأنا غير قادر على كسر بيضة مسلوقة. ليس بيضة مسلوقة!

ويليس: شيءٌ جميل أن تحضر بيضاً مسلوقاً إلى المحطات الإذاعية، كلاً؟

بورخس: مزجٌ فائق، كما أشعر. بيض مسلوق ومحطات إذاعية!

twitter @baghdad_library

ويليس: بورخس، هل أنت مستعد لأن تضع ذلك في قصيدة؟

بورخس: كلا، لن أفعل. مع ذلك أشعر أن كل شيء صالح لأن يوضع في قصيدة. كل الكلمات صالحة. في الحقيقة، كلّ شيء. أي شيء يمكن فعله، كما تعلم، ولكن أشياء قليلة يمكن الكلام عنها.

ويليس: لدي بعض الأسئلة. ربما كانت متحذلقة، ولكن آمل أن لاتكون أجوبتك كذلك.

بورخس: سوف تكون ملغومة، نعم.

ويليس: نعرف أن الوعي متجسّد في كلّ كائن انساني آخر، مع ذلك نملك إدراكاً لعقولنا فقط. أحياناً نصحو، كما هو الحال، على معرفة محيّرة بالوجود المنفصل للعقل؟

بورخس: حسناً، ولكن هذا سؤال يتعلق بطبيعة الماهية الذاتية، كلاً؟ أنا لاأؤمن بالذاتية ذلك أنني لو فعلت فسوف أصاب بالجنون. ولكن بالطبع هي حقيقة مثيرة للغرابة أننا موجودون. في ذات الوقت أشعر بأنني لا أحلمكَ- أو لنقل بشكل آخر بأنك لاتحلمني. ولكن حقيقة هذه الحيرة تجاه الحياة يمكن ان تكون في صلب الشعر. الشعر كلّه يتألف من الشعور بالأشياء على أنها غريبة، في حين أنّ البلاغة كلها تتألف من التفكير بالأشياء على أنها عامّة وواضحة. بالطبع تحيّرني حقيقة وجودي، وتموضعي في جسد إنساني، ونظري عبر عينين وإصغائي عبر أذنين، وهكذا دواليك. ربما كان كل ماكتبته هو مجرد استعارة، ومحض تنويع على ذاك الموضوع الجوهري المتعلّق بحيرتنا أمام الأشياء. في هذه الحالة، أعتقد أنه لايوجد فرق جوهري بين الفلسفة والشعر بما أنّ كلاهما يرمز لنفس النوع من الحيرة، مع وجود استثناء واحد وهو أن

الجواب في الفلسفة يُقدّم بطريقة منطقية، في حين أننا في الشعر نستخدم الإستعارة. إذا كان عليك أن تستخدم اللغة، فهذا يعني أنك يجب أن تستخدم الإستعارات دائماً. وبما أنك تعرف أعمالي (دع اللفظة تمرّ، فأنا لا أفكّر بها كأعمال حقاً) وبما أنك تعرف تماريني، أعتقد بأنك شعرت بأنني دائماً مصاب بالحيرة، وأحاول دائماً أن أجد أرضية لحيرتي واندهاشي.

ويليس: عندما قال أحد معجبيك في ولاية سينسيناتي: "ليتك تعيش لألف سنةٍ أخرى،" أجبته: "أتطلّع بسعادة إلى موتي." ماذا كنتَ تعني بذلك؟

بورخس:أعني أنني عندما أكون محبطاً- وهذا غالباً مايحدث للكثيرين منا- فإنني أجد عزاءً حقيقياً في فكرة أنه بعد بضع سنوات أو أيام سوف أكون ميتاً وبالتالي فإنَ كلّ هذا الإحباط يصبح بلا معنى. أتوق إلى أن أُمحى. ولكن إذا اعتقدتُ أنَ موتي سيكون مجرد وهم، وأنني بعد الموت سوف أستمرّ، فإنني عندها سأشعر بأنني بائس جداً جداً. لأنني، والحقّ يُقال، مرهقٌ ومريضٌ من نفسي. الآن، بالطبع إذا كان عليّ أن أستمرَ دون أن أمتلك ذاكرة شخصية بأنني كنتُ يوماً بورخس، ففي هذه الحالة لن يهمني شيء، لأنه من الممكن أنني كنتُ المئات من الناس الغريبي الأطوار قبل أن أولد، لكن هذه الأمور لن تقلقني، بما أنني سأكون قد نسيتها. عندما أفكّر بالفناء، بالموت، أفكّر بهذه الأشيا ، بكثير من الأمل، وبشكل غير متوقّع. يمكنني القول إنني شرهٌ للموت، وإنني أريد أن أتوقف عن المشي كلّ صباح، مكتشفاً دائماً: "ها أنا ذا، وعليّ أن أعود إلى بورخس."

ثمة كلمة في الإسبانية أظنك تعرفها. لاأدري إن كانت ماتزال قيد

twitter @baghdad_library

الإستخدام. عوضاً عن أن تقول (تصحو) تقول (recordarse) أي أن تسجّل نفسك، تتذكّر نفسكَ. اعتادت أمي أن تقول: "أريد أن أُسجّل لنفسي في الثامنة." كلَّ صباح كان ينتابني ذاك الشعور لأنني كنتُ بشكل أو بآخر غير موجود. وعندما أستيقظ كنتُ أشعر دائماً بالإحباط. والسبب هو أنني مازلتُ أنا. هي ذا نفس اللعبة السخيفة القديمة ماتزال مستمرة. عليّ أن أكون شخصاً ما. يجب أن أكون بالضبط ذاك الشخص. وتترتّب عليّ التزامات معيّنة. إحدى هذه الإلتزامات هي أن أستمرَ في الحياة طوال يوم بكامله. عندها يتمرأى أمامي كلّ ذاك الروتين، حيث كلّ الأشياء تصيبني بالإرهاق. بالطبع عندما تكون شاباً، لاتشعر بهذه الطريقة. تقول لنفسك كم أنا سعيد أنني عدتُ إلى هذا العالم المثير. لكنني لا أعتقد أنني شعرتُ يوماً بهذا طوال حياتي. حتى عندما كنتُ في ريعان الصبا. خاصةً عندما كنتُ شاباً. كلاّ، كان لدي حالة أقرب إلى التخلّي. الآن، أستيقظ وأقول: عليّ أن أواجهَ يوماً آخر. وادع الأمور تسير على ذاك النحو. أظنّ أنّ الناس يشعرون بطرق مختلفة لأنّ الكثيرين منهم يجدون في الخلود نوعاً من السعادة، ربما لأنهم لايدركونها.

ويليس: لايدركون ماذا؟

بورخس: يدركون حقيقة أنّ الإستمرار في العيش سيكون، دعنا نقول، أمراً رهيباً.

ويليس: سيكون جحيماً آخر كما تقول في إحدى قصصك.

بورخس: أجل، سيكون كذلك، أجل. بما أنّ هذه الحياة هي لتوها جحيم، فلماذا نطلب المزيد من الجحيم، ونطالب بجرعاتٍ أكبر وأكبر؟

ويليس: لمدة مئتي عام؟

بورخس: نعم. بالطبع يمكنك أن تقول بأنّ هذه السنين ليست موجودة. ذلك أن مايوجد حقاً هو اللحظة الراهنة. اللحظة الراهنة تبقى دائماً رهينة الماضي ورهينة الخوف من المستقبل. حقاً، متى نتكلم عن اللحظة الراهنة؟ إذ إنَ اللحظة الراهنة هي تجريدٌ مثلها مثل الماضي والمستقبل. في اللحظة الراهنة ثمة دائماً شيء من الماضي، وشيء من المستقبل أيضاً. إنك تنزلق طوال الوقت بين هذه وتلك.

ويليس: لكن بالتأكيد تمتلك لحظات عظيمة من النشوة خلال حياتك؟

بورخس: أجل، وأظنّ أنّ هذا ينطبق على الجميع. لكنني أتعجّب. أعتقد أنَ هذه اللحظات تكون دائماً أكثر جمالاً عندما نتذكّرها. ذلك أنك عندما تكون سعيداً، فأنت بالكاد تكون واعياً للأشياء. الوعي بالأشياء يقود إلى اللاسعادة.

ويليس: الوعي بالسعادة يسمح للشكّ بالتسرّب.

بورخس: لكنني أعتقد أنني عرفتُ الكثير من لحظات السعادة. وأظنّ أن جميع البشر عرفوا أيضاً. هناك لحظات، دعنا نقول، من الحبّ، من السباحة، من التحدث إلى صديق، ودعنا نقول هناك لحظات من المحادثة، والقراءة، وحتى الكتابة- أو، لنقل، عدم الكتابة، لحظات ابتكار شيءٍ ما. عندما تجلس لتكتب فأنت لم تعد سعيداً لأنّك تصبح قلقاً بشأن مشاكل تقنية. لكنّك عندما تتمعّن وتتفكّر بشيءٍ ما، أظنّ تتاح لك الفرصة عندئذ لأن تكون سعيداً. وثمة لحظات تنزلق خلالها إلى النوم، فتشعر بالسعادة، أو على الأقل أنا أشعر. أتذكّر المرة الأولى التي تناولتُ فيها حبوباً منومة. (كانت فعالة جداً، لأنها بالطبع كانت

twitter @baghdad_library

جديدة عليّ). كنتُ أقول لنفسي: الآن أنا أسمع ذلك الترام ينعطف عند الزاوية ولكن بعد هنيهة لن يكون بإمكاني أن أسمع نهاية الهدير أو الضجة التي يحدثها لأنني سأكون وقتها قد خلدت للنوم. كنتُ أشعر بأنني سعيد جداً جداً. وكنتُ أفكّر باللاوعي.

ويليس: هل يهمّك الإعتراف الأدبي؟ هل تسعى للشهرة؟

بورخس: كلاً، كلاً. هذه الأشياء غير موجودة. في نفس الوقت عندما تأتي إليّ- وربما قد أتت إليّ- أشعر أنه يجب أن أكون ممتناً. أعني إذا أخذني الناس على محمل الجدّ، أعتقد بأنهم سيكونون على خطأ. ولكن مع ذلك يجب أن أكون ممتناً لهم.

ويليس: هل تحيا من أجل القصة التالية، القصيدة التالية، المقالة أو المحادثة القادمة؟

بورخس: أجل أحيا.

ويليس: يبدو لي أنك رجل محظوظ لأنك تمتلك هواجس لانهائية لكي تبتكر وتسجّل. هل تعرف لماذا كان قدركَ أن تكون كاتباً؟ ذاك القدر أو ذاك الهاجس؟

بورخس: الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني أحتاج لتلك الهواجس. وإذا كان الأمر غير ذلك، فلماذا أستمرّ في الحياة؟ بالطبع لن أقدم على الإنتحار، ولكنني سأشعر بلاجدوى وجودي. هذا لايعني القول بأنني أفكّر كثيراً بما أكتب. ما أعنيه هو أنه يجب أن أكتب. لأنني إذا لم أكتب شيئاً وأبقى ممسوساً به، فإنني سأكتبه مع ذلك وأتخلّص منه.

ويليس: في كتابه (الجمهورية) يبذل أفلاطون وقتاً لابأس به ساعياً إلى تعريف العدالة، أو نوع من التعريف العامّ. هل هذه الفكرة صالحة

لنا شخصياً؟ هل حياتك، التي تنتهي بالموت، اختبار عادل في الحياة؟ أم هي خيانة بيولوجية موجّهة ضد كلّ من العقل والجسد؟ أفلاطون يتحدث عن العدالة العامة. إذا أخذنا بعين الإعتبار حقيقة الموت، هل تؤمن بعدالة خاصّة؟

بورخس: أعتقد أنّ العدالة الوحيدة هي العدالة االخاصة. أما فيما يتعلق بالعدالة العامة فأنا أتساءل فيما إذا كان شيئاً كهذا موجود.

ويليس: هل تعتقد بأنّ العدالة الخاصة موجودة؟ كيف نقيّم الفناء ويوم الحساب؟

بورخس: منذ اللحظة الأولى من حياتنا نعرف فيما إذا كنا نتصرف بشكل خاطئ او صحيح. يمكننا القول إنّ يوم الحساب مستمر طوال الوقت، وأننا في كلّ لحظة من حياتنا نتصرف بشكل خاطئ أو صحيح. يوم الحساب ليس الشيء الذي يأتي في النهاية. إنه مستمرّ طوال الوقت. ونحن ندرك، ببعض الغريزة، متى نتصرف بشكل خاطئ أو صحيح.

ويليس: هل ثمة من خيانة بيولوجية في الحياة بسبب الموت؟

بورخس: لا أفهم ماذا تعني بالخيانة البيولوجية. البيولوجيا تبدو غامضة لي بعض الشيء. لا أدري إن كان بإمكاني قبول تلك الكلمة، كلاّ؟

ويليس: خيانة فيزيائية، إذن؟

بورخس: حسناً، فيزيائية، لابأس. أعتقد أنني أفهم ذلك. أنا رجل بسيط الذهن. إذا كنتَ تصرّ على تلك الكلمات الباذخة مثل فيزيائي وبيولوجي.

twitter @baghdad_library

ويليس: نحن بصدد لغة كان يمكن لوالدك أن يستخدمها، صحيح؟

بورخس: أجل، كان يمكن أن يستخدمها، لكنه من النادر أن فعل ذلك، كونه بروفسور في علم النفس. وكان شكاكاً أيضاً.

ويليس: أمضيتُ سنة كاملة من حياتي، عندما كنتُ طالباً، أبحث عن مركز الوعي. لم أجده بتاتاً.

بورخس: لا أعتقد أنك تستطيع. إنه يخادعك دائماً.

ويليس: لكنني مع ذلك اكتشفتُ بأنّ البحث عن الذات أمر ساحر ولاتمكن مقاومته.

بورخس: أجل هو كذلك. بالطبع، بما أنني أعمى، أجد أنني أفعل ذلك بشكل أو بآخر طوال الوقت. قبل أن أُصاب بالعمى كنتُ دائماً أجد ملجأً في مراقبة الأشياء، ورؤية الأشياء، في القراءة أيضاً، لكنني الآن محكومٌ بالتفكير. أو، وبما أنّ استطاعتي على التفكير ليست جيدة جداً، هربتُ إلى الحلم، بمعنى أنني أذرو حياتي من خلال الحلم. وهذا يعني أيضاً أخذ جرعات طويلة من العزلة، لكنني لاأعبأ بذلك. لن يكن بمقدوري تحمّل ذلك في الماضي. في الماضي، كنتُ أحلمُ بأنني أعيش في بلدة اسمها أدروغ جنوب بوينس آيرس. وعندما كان عليّ أن أذهب في رحلة لمدة نصف ساعة وليس بحوزتي كتاباً كنتُ أشعر بالحزن. ولكنني الآن أستطيع أن أمضي ساعات وساعات بدون كتب لأنني لا أقرؤها. لذلك لاأرى العزلة بالضرورة مبعث كآبة. حتى عندما تنتابني حالة من السهد فإنني لا أكترث ذلك لأنّ الوقت يمرّ. الوقت يشبه منحدراً سهلاً، كلاّ؟ هكذا أدع حياتي تستمرّ. عندما لم أكن أعمى كنتُ دائماً أشغل وقتي بأشياء مختلفة. الآن، أنا لا أفعل شيئاً من هذا القبيل. فقط أدع حياتي تستمرّ.

ويليس: مع ذلك أنت تستمتع بكل الأوقات التي تقضيها مع الآخرين.

بورخس: لكنني بالطبع أعيش بالذاكرة. واظن أن الشاعر يجب أن يعيش بالذاكرة، إذ ماهو الخيال، على أية حال؟ أعتقد أن الخيال مصنوع من الذاكرة والنسيان. إنه نوع من المزج بين هذين الشيئين.

ويليس: ومع الوقت تعتاد على ذلك؟

بورخس: أجل. كلّ شخص يصاب بالعمى يحصل على نوع من المكافأة: شعور مختلف بالوقت. ليس الوقت شيئاً يجب أن نملأه في كلّ لحظة بشيءٍ ما. كلاً. تعرف أنه يجب عليك أن تعيش فحسب، وتدع الوقت يعيشك. وهذا يخلق نوعاً من الطمأنينة. أعتقد أنها طمأنينة كبرى، أو مكافأة. هبةُ العمى تعني أنك تشعر بالزمن بطريقة مختلفة عن سائر الناس،كلاً؟ يترتّب عليك أن تتذكّر وأن تنسى. يجب أن لا تتذكّر كلّ شيء لأنَ شخصية فيونس التي ابتكرتها تصاب بالجنون لأنَ ذاكرته لانهائية. بالطبع، إذا نسيت كلّ شيء، فسوف لن تكون موجوداً. ذلك أنكَ توجد في ماضيك. وعكس ذلك فأنت لاتعرف حتى من أنت، وماذا كان اسمك. عليك أن تقبل بالمزج بين العنصرين، كلاً؟ الذاكرة والنسيان، وندعو ذلك بالخيال. وهذا اسم له رنين عالٍ.

ويليس: أعرف أنك لاتنجرف مع الكلمات ذات الرنين العالي لأنك رجل أدب.

بورخس: كلاً، بل لأنني أنظر للكلمات بعين الريبة. رجل الأدب بالكاد يؤمن بالكلمات.

ويليس: لنعود إلى سؤالي الأصلي: كلما أوغلت في اكتشاف

twitter @baghdad_library

نفسي، شعرتُ كم كان ذلك ساحراً ولا يُقاوم، لأنني كلما اعتقدت أنني أوغلتُ عميقاً في ذاتي، كلما كنتُ أتوارى، وأصبح غير متأكّد من أيّ شيء، حتى من وجودي نفسه.

بورخس: يقول هيوم: عندما حاولتُ أن أبحث عن نفسي لم أجد أيّ أحدٍ في البيت. هذا هو واقع الحال في العالم.

ويليس: يسير المرء من الهلوسة إلى الكابوس.

بورخس: تزورني الكوابيس كلّ ليلة تقريباً. زارني كابوس هذا الصباح. لكنه لم يكن كابوساً حقيقاً.

ويليس: وماذا كان؟

بورخس: كان الكابوس على الشكل التالي: رأيتُ نفسي في مبنى ضخم جداً. كان مبنىً من الآجرّ. كان ثمة العديد من الغرف الفارغة. غرف ضخمة فارغة. غرف آجرّية. بعد ذلك رحتُ أتنقّل من واحدة إلى أخرى، وبدا لي أنه لاتوجد أبواب على الإطلاق. وكنتُ دائماً أجد طريقي إلى باحات عامة. بعد مرور بعض الوقت من الصعود والهبوط، رحتُ أنادي بصوت عال، ولكن ما من أحد أجاب. ذاك المبنى الخرافي الضخم كان خاوياً، وقلتُ لنفسي: ماذا، بالطبع، هذا حلم المتاهة. لن أجد أي باب، ويجب عليّ أن أجلس في واحدة من هذه الغرف وأنتظر فحسب. وكنتُ أستيقظ بين الفينة والأخرى. وقد حدث هذا بالفعل. عندما أدركتُ الحقيقة قلتُ: هذا كابوس المتاهة، وبما أنني كنت أعرف كلّ شيء عنه، لم تأخذني المتاهة. كنتُ أجلس فقط على الرخام.

ويليس: ورحتَ تنتظر فحسب.

بورخس: انتظرتُ للحظة ومن ثمّ استيقظت.

ويليس: هل تنتابك كوابيس متكررة أخرى؟ وماهي؟

بورخس: ثمة اثنان أو ثلاثة. في هذه اللحظة أعتقد بأنّ المتاهة هي الكابوس الذي مايفتأ يعود. وثمة كابوس آخر، وهذا يأتي من عماي. إنه كابوس محاولتي القراءة وعدم قدرتي على ذلك لأنّ الحروف تصبح حيّة، حيث يأخذ كلّ حرفٍ مكان حروفٍ أخرى، وهكذا تصير الكلمات قصيرة في البداية عندما أحاول أن أفسّرها. لكنها أيضاًكلمات هولندية طويلة بحروف صوتية متكررة. أو، إن لم تكن كذلك، فإنّ المساحات بين السطور تتسع، وأرى أن الحروف تطلق أغصاناً. كلّ هذا يحدث بحروف حمراء أو سوداء، فوق كلّ هامش للورقة، ويزداد حجمها إلى درجةٍ لاتُطاق. بعد ذلك، وللحظة متوحشة واحدة، أفكّر: لن يكون بمقدوري نسيانها وسوف أصاب بالجنون. وهذا يبدو أنه يتكرر طوال الوقت. وبعدما فقدتُ بصري خاصةً، بدأتُ أرى حلم القراءة ذاك بشكل متكرر، حلمُ عدم قدرتي على القراءة بسبب أنّ الحروف تصبح حيّةً تُرزق. هذا واحد من الأحلام التي تزورني. والأخرى أحلامٌ عن المرايا، وعن أناسٍ ملثّمين. أعتقد أنّ لدي ثلاثة كوابيس جوهرية: المتاهة، الكتابة، والمرايا. ولكن هناك أيضاً كوابيس أخرى مألوفة بشكل أو بآخر لجميع الناس، لكن تلك هي كوابيسي الثلاثة المتكررة. إنها تأتيني تقريباً كل ليلة. وهي تبقى معي لمدة دقيقة أو أكثر بعدما أستيقظ. في بعض الأحيان، تأتيني قبل أن أستسلم تماماً للنوم. معظم الناس يحلمون قبل أن يخلدوا للنوم، ومن ثمّ يستمرّون في الحلم لفترة قصيرة بعد الإستيقاظ. إنهم يسكنون في بيت معلّق في منتصف الأشياء، كلاّ؟ بين اليقظة والحلم.

ويليس: إنه أيضاً المكان الذي تجمع منه معظم مادتك في الكتابة، أليس كذلك؟

twitter @baghdad_library

بورخس: أجل، هو كذلك. دي كوينسي وآخرون- ثمة تقليد أدبي رفيع يدور حول ذلك. لابدّ أن دي كوينسي كان يشتغل على كوابيسه عندما قام بتسجيلها كتابةً، كلاّ؟ لأنّها كوابيس رفيعة. فضلاً عن ذلك، هي كوابيس تعتمد على الكلمات. الشيء الصعب في كتابة الكابوس هي أنّ شعور الكابوس لايأتي من الصور. بل، وكما يقول كولريدج، إنّ الشعور هو الذي يمنحك الصور.

ويليس: هذا تمييز جذري لأنّ معظم الناس يظنون العكس. إنهم لم يستكشفوا المسألة جيداً.

بورخس: عندما تكتب تلك الصور، فإنها يمكن أن لاتعني لك أيّ شيء. هذا ماتتحصّله من إدغار بو ولفكرافت. الصور مفزعة في حين أنّ الشعور ليس كذلك.

ويليس: وأعتقد أنّ الكاتب الجيّد هو الذي يأتي بالصور الصحيحة التي تتوافق مع الشعور.

بورخس: مع الشعور، نعم. أو هو القادر على إعطائك شعور الكابوس باللجوء إلى أشياء أو مواضيع شائعة. أتذكّر كيف وجدتُ برهاناً على ذلك لدى الكاتب تشيسترتون. يقول انه يمكن أن نتخيّل بأنّ ثمة في نهاية العالم شجرة يكون شكلها ذاته شريراً. الآن، هذه كلمة رفيعة، وأعتقد أنّها ترمز لذاك النوع من الشعور، كلاّ؟ الآن، من الصعوبة بمكان وصف تلك الشجرة. ولكنّك، على سبيل المثال، إذا فكّرتَ بشجرة مصنوعة من الجماجم أو الأشباح فإنّ ذلك سيبدو سخيفاً. ولكن الذي قاله هو "شجرة يكون شكلها ذاته شريراً". هذا يعكس أن تشيسترتون قد رأى حقاً كابوساً عن الشجرة. كلاّ؟ لو لم يكن الأمر كذلك، كيف يمكنك أن تعرف شيئاً عن الشجرة؟

ويليس: لطالما تساءلت مندهشاً لماذ يتحرك لساني، ولماذا تخرج الكلمات من فمي أو تتشكّل في رأسي. هذه الكلمات هي مثل ثوانٍ في ساعة، إنها تحدثُ أصواتاً من تلقاء نفسها.

بورخس: غير أنني أعتقد أنه قبل الإستسلام للنوم فإنك تبدأ، أو على الأقلّ أنا أبدأ، بالتفوّه بجمل غير مفهومة. وأعرف وقتئذٍ أنني على وشك الدخول في النوم. عندما أسمع نفسي، أو أسترق السمع لنفسي أغمغم بشيءٍ غير مفهموم، هذه إشارة جيدة أنني سأكون نائماً بعد لحظة.

ويليس: حسناً. كنتُ سأسألك عن الكلمات التي تحدث أو تتشكّل في أفواهنا. ولطالما أنّ الوقت موجود فإنّ الكلمات تأتي. من هنا أيضاً الأفكار. غير أنني لا أُعمل إرادتي في نطق هذه الكلمات، بل حتى لا أعمل إرادتي كي أريد حدوثها. إنها تملكني فحسب.

بورخس: لاأعتقد بأنّ هذه الكلمات ترمز لأي معنى. على الأقل أنت لاتعرف المعنى.

ويليس: أنا لاأعني تلك الكلمات التي تأتينا قبل الإستسلام إلى النوم. أعني كلّ تلك الكلمات التي تأتي إليك في هذه اللحظة بالذات، أو تأتي إليّ. بكلمات أخرى، لاأعرف لماذا تخرج الكلمات من فمي في هذه اللحظة. قوة ما تدفع بها إلى الخارج. أنا لستُ هناك أقوم بتنسيقها. إنني لاأفهم ذلك، إنها أحجية جوهرية بالنسبة لي.

بورخس: لكنني أعتقد بأنّ هذه الكلمات تأتي مصحوبةً ببعض الأفكار. وإلاّ ستكون عبثية لاطائل منها.

ويليس: لكنني أشعر مثل ساعة حائط مبرمجة حيث ثوانيها تدقّ،

twitter @baghdad_library

وحيث الكلمات تخرج. لاأملك أية فكرة، ولو نصف منطقية، عن السبب الذي يجعلني أتحدث إليك الآن. ولماذا أنتَ تجيبني. إنه لغز ضخم.

بورخس: نعم، وأظنّ أن عليك أن تقبل بذلك.

ويليس: أنا أقبلُ بذلك وإلاّ أُصبت بالجنون.

بورخس: أجل. تلك هي المسألة. ويمكنك أيضاً أن تقول بأنك لو حاولت التفكير يمكن أن تُجنَّ.

ويليس: نعم.

بورخس: التفكير يجب تجنّبه، صحيح؟

ويليس: حسنٌ، إذا حاولت أن تفكّر لماذا تفكّر، فأنت لاتستطيع التفكير بذلك. مع ذلك أحياناً أسير في الشارع ولا أقول من ذا الذي يمشي في الشارع، بل من ذا الذي يفكّر أنه يمشي في الشارع؟ وعندها أشعر أنني فعلاً في حيرة من أمري.

بورخس: بعد ذلك تنتقل لتفكّر بمن يفكّر أنّه يفكّر أنه يفكّر، كلاّ؟ لاأعتقد أنّ هذا يرمز إلى أيّ شيء. هذه مجرّد لعبة نحوية، مجرّد كلمات.

ويليس: يبدو الأمر كمرآة.

بورخس: يمكنك أن تنتقل إلى صيغة أخرى: يمكن أن تشعر بألم جسدي قوي. على سبيل المثال، صدمة كهربائية أو وجع الأسنان. عندما تشعر بذاك الألم فأنت مع ذلك لن تشعر به. إذن، تقول، حسناً، هذا وجع أسنان، ومن ثمّ تعرف أنك شعرتَ بالألم. ويمكن أن تنتقل إلى شيء ثالث وتقول، حسناً، أعرف أنني أعرف. ولكن بعد ذلك لا أعتقد أنك قادر على الإستمرار. يمكنك أن تقوم بذلك بشكل ناجح داخل نفس

اللعبة، لأنك ستفكّر بنفس الشيء في كلّ مرّة. ولكن لا أعتقد أنك قادر على القيام بذلك أكثر من ثلاث مرات. إذا قلتَ، أنا أفكّر أنني أفكّر أنني أفكّر أنني أفكّر أنني أفكّر أنني أفكّر، فهذا لن يكون حقيقياً بعد المرة الثانية ربما. قرأتُ كتاباً لجون ويليام دن تحت عنوان (تجربة مع الزمن) يقول فيه بما أنك، إذا كنت تعرف شيئاً، تعرف أنك تعرفه، وتعرف أنك تعرف أنك تعرفه، وتعرف أنك تعرف أنك تعرف أنك تعرفه، عندئذ تنبثق صور لانهائية من الذوات لدى كلّ انسان. لكنني لا أعتقد أنه يمكنك البرهنة على ذلك.

ويليس: كيف ترى إلى تلك الصحوة المثيرة والمخيفة معاً، عندما نتأمل مندهشين كيف يحدث أن تفكّر عقولنا وتتكلّم؟ دائماً أصحو على دهشة أنني موجود وأنني أنا.

بورخس: عندما أصحو، أصحو على ماهو أسوأ. إنها دهشةُ أنني أنا نفسي. فلان الفلاني ولد في بوينس آيرس في عام ١٨٩٩، فلان كان في جينيف.

ويليس: لماذا لستَ رجل بيكنغ، أو الإنسان الذي سيعيش لأكثر من خمسة ملايين عام من الآن؟

بورخس: مرّة تصوّرتُ نوعاً من الأخيولة وكانت لغايات أدبية. وهي أن نتبدّل في أية لحظة إلى أناسٍ آخرين. الآن، بما أنك تحوّلت إلى شخص آخر، فأنت لست بالضرورة واعياً لذلك. مثلاً، في لحظة ما سأصير أنا أنت. وأنت ستصير أنا. ولكن بما أن التبدّل كامل فأنت لاتملك ذكريات، أنت لاتعرف أنك تتبدّل. أنت تتبدّل دوماً. يمكن أن تكون الرجل على القمر، مع ذلك أنت لن تعرف بذلك، بما أنه، عندما تصبح الرجل الذي على

twitter @baghdad_library

القمر، فأنت تصبح ذاك الرجل الذي على القمر مشروطاً بماضيه، بذكرياته، بمخاوفه، بآماله، وهكذا دواليك. ذاتك الماضية تكون قد بُترت.

ويليس: الذات الماضية تتعرض للمحو.

بورخس: أجل. يمكنك أن تتبدّل إلى شخصٍ آخر طوال الوقت دون أن يدري بذلك أحد. ربما شيءٌ كهذا يحدث دائماً. سيكون بلامعنى بالطبع. يذكّرني هذا بقصة، مجرد قصة، ولكن الأشياء صالحة فقط من أجل غايات أدبية. ليست غايات أدبية كبيرة الأهمية، بل تصلح فقط لقصص الحيل.

ويليس: ثمة دائماً قوة حاسمة في كلّ منا لكي نخرج من أنفسنا ونعانق العالم. إنها تعبر عن نفسها بكل الطرق: جنسياً، وعن طريق الكتابة، والكلام، واللمس-

بورخس: وعن طريق العيش.

ويليس: عن طريق العيش. نحن ذواتنا فقط، ولكن يوجد دائماً دافع قوي لأن نهشّم خلوتنا عبر احتواء المزيد فيها. للشاعرة سافو مزقة شعرية تلخص فيها هذا الأمر قائلةً: "لا أستطيع أن آمل /بأن ألمسَ السماء بذراعيَّ/." حتى وإن كانت لاتستطيع- فإنّ طموحها هو أن تلمس السماء.

بورخس: إذا كنتُ أفهمك جيداً فأنت تقول إننا نهرب من أنفسنا طوال الوقت، بل ويجب أن نفعل ذلك.

ويليس: إننا نحاول أن نتّسع لنكون أكثر مما نحن، لنخرج ونلمس ماهو خارج دائرتنا.

بورخس: أظنّ أننا كذلك. ولكن لاأظنّ أنه يجب أن تقلق حيال ذلك.

يجب أن لاتشعر بالشقاء حيال ذلك. رغم أنك تعرف أنه لايمكننا أن نحقق ذلك، بل لانستطيع تحقيقه على الإطلاق، إلاّ بشكل غير كامل.

ويليس: لانستطيع أن نحقق ذلك، ولكن فن العيش يقتضي أن نجرب كلّ حركات السعي نحو ذلك. هذا مايساهم في عملية الكتابة، والحب، بل ويساهم في كل الأشياء التي تجمع البشر بعضهم ببعض.

بورخس: بما أننا وهبنا -ماذا؟- عدداً معيناً من السنين وكان علينا أن نشغلها بشكل أو بآخر، فلماذا لانحاول تلك الأشياء. وعلى أية حال، نحن محكومون بدورة حياة. وإذْ نفعل ذلك نشعر بضجر صارخ.

ويليس: من الواضح أنك تعتبر عملك المستقبلي أكثر أهميةً من انجازاتك السابقة.

بورخس: عليَّ أن أفعل ذلك.

ويليس: أيّ شيء أقلّ قيمةً سيكون كارثياً. مع ذلك أنا مندهش أنك تعتبر قصائدك الجديدة أقلّ أهميةً من دواوينك السابقة.

بورخس: أنا فقط أعرف قيمة السابق بشكل جيد.

ويليس: أنا مقتنع بأن قصائدك الجديدة هي الأكثر قوةً من حيث ذكاؤها وعواطفها. القصائد الأخيرة تعبّر عن يأس شخصي لاتسمح به في قصصك أو مقالاتك.

بورخس: كلاّ، أعتقد أنك مخطئ. أنت ترى إلى قصائدي على أنها جيدة. أنت قرأتها في ضوء القصائد المبكرة، في حين لو أنها أتت إليك على أنها مكتوبة من قبل شاعر مغمور فسوف ترميها جانباً. ألا تعتقد ذلك؟ عندما تقرأ شيئاً كتبه شاعر تعرف أعماله فإنك تقرأ نصوصه الأخيرة كما تقرأ الصفحات الأخيرة من رواية طويلة، ولكن هذه

twitter @baghdad_library

الصفحات ستفقد معناها بدون الصفحات التي جاءت قبلها. عندما تفكر بشاعر فأنت دائماً تفكر بقصيدته الأخيرة على أنها رفيعة، ولكنك إذا تناولتها بمفردها فربما لن تكون كذلك.

ويليس: أجل ولكن تساعد أيضاً القصائد الأخيرة القصائد الأولى من حيث أنها تساهم في خلق شخصية تراكمية للصوت. بدون هذه القصائد الأخيرة فسيكون لقصائدك الأولى وقعاً اقلّ.

بورخس: أعتقد أنّ كلاً منها يساعد الآخر.

ويليس: لأنها تخلق صوتاً واحداً كلياً. عندما يقول بليك شيئاً طريفاً، فهذا طريف بسبب أن بليك لايقول عادةً أشياء طريفة، ولهذا نسارع إلى القول: هذا هو بليك يحاول أن يكون ذكياً في جملة مكثفة.

بورخس: يكتب بليك بشكل عام جملة طويلة النفس ومتأملة!

ويليس: بالنسبة لي قصائدك الجديدة هي من أكثر نصوصك قوة من حيث فطنتها ومشاعرها.

بورخس: دعنا نأمل ذلك. أنا لاأراها بهذه الطريقة. هي مجرد تمارين. علاوة على ذلك، أنا أشعر بالوحدة من أجل شيء ما، وأشعر بالحنين، وهذه القصائد هي مجرد اختبارات حول كوني قد عدت إلى بوينس آيرس أو حول أشياء معينة هربتُ منها. إنها مكتوبة فقط لإكمال الكتاب الجديد الذي أكتبه. لكنني آمل بأنك على حقّ.

ويليس: وأنت تقف أمام المرآة أو تسجّل حلماً في قصيدة، فإنّ رسمك الدقيق لجوانيتك العاطفية صفة أصبحت ضائعة في الشعر الحديث. أمرٌ حسنٌ أنك لاتبالغ في تقييم قصائدك الأخيرة، لكن عليك أن تعرف أنك كنت ربما مخطئاً في حكمك.

بورخس: ولكن آملُ أن أكون مخطئاً. سأكون سعيداً لو أقنعتني، لكنني لا أستطيع. لاأريد أن أكون على حقّ. لماذا يجب أن أكون على حقّ؟ لماذا يجب أن أصرّ على أن ما أكتبه شيء سيئ؟

ويليس: هل هناك قصيدة تدور عادةً في رأسك وتصطدم بها؟ هل هي فعل اعتراف بشيء عامّ، مثلما تذكّرت فجأةً أنك تحبّ والدك أو أمك؟ هل أنت من يهبط على القصيدة أم القصيدة هي التي تهبط عليك؟

بورخس: يمكن أن أقول إن القصيدة هي التي تهبط عليّ، وهذا يصحّ أكثر في حال القصة القصيرة. عندئذ أشعر أنني ممسوس، ويجب أن أتخلص منها، والطريقة الوحيدة للتخلص منها هي تسجيلها على الورق. ولاتوجد طريقة أخرى لفعل ذلك، وإلاّ ستظلّ مهيمنة.

ويليس: تقول إنّ قصائدك هي مجرد تمارين، ولكن تمارين في أيّ شيء؟

بورخس: أظنّ أنها تمارين في اللغة. هي تمارين في اللغة الإسبانية، تمارين في إيقاع الشعر، وتمارين في الوزن. وبما أنني لستُ وزّاناً جيداً، فأنا أحاول الهرب بكلّ هذا. وهي أيضاً تمارين في الخيال. فيما يتعلق بالقصة القصيرة، أدرك أنه يجب أن أفكر بالقصة بوضوح وتجانس أولاً قبل أن أباشر بكتابتها. والعكس لايصحّ. فإذا لم أفكّر تأتي القصة بكاملها على شكل دفق عشوائي من الكلمات. يجب أن تكون أكثر من ذلك. يجب أن تعني القصة ليس فقط الكلمات ولكن ماهو وراء الكلمات. أتذكّر مقالاً قرأته ربما كان لستيفنسون يقول فيه: "ماهي الشخصية في كتاب؟ الشخصية في الكتاب هي مجرد خيطٍ من

twitter @baghdad_library

الكلمات." الآن، أعتقد أنّ هذا غير صحيح. يمكن أن تكون الشخصية خيطاً من الكلمات، ولكن يجب أن لاتعطينا هذا الإنطباع. ذلك أننا عندما نفكّر بشخصيات من أمثال ماكبث أو لورد جيم أو الكابتن آخاب، فنحن نفكّر بتلك الشخصيات على أنها موجودة فيما وراء الكلمات المكتوبة. صحيح أننا لانعرف كلّ شيء عنها، ولكن ثمة الكثير من الأشياء التي حدثت لها هي بالتأكيد موجودة. على سبيل المثال، نقرأ عن شخصية بأنها فعلت كذا وكذا. في اليوم التالي تفعل هذه الشخصية شيئاً آخر. ليس بالضرورة أن يقول الكاتب هذا. نشعر أنّ لهذه الشخصية لياليها من النوم، وأنها رأت أحلاماً كثيرة، وأنّ الكثير من الأشياء قد حدثت لها لانعلم عنها شيئاً. أحياناً نتصور دون كيخوته وهو طفل، على الرغم من أنه لاتوجد كلمة واحدة في رواية سرفانتس عن طفولة دون كيخوته، كما أتذكّر. إذن يجب أن تكون الشخصية أكثر من مجرد خيط من الكلمات. وإذا لم تكن أكثر من مجرد كلمات فسوف لن تكون حقيقية. ولن تنال اهتمامك. ودعنا نقول، حتى عندما تكون الشخصية موجودة ضمن عشرة أسطر: "واحسرتاه، المسكين يوريك، كنتُ أعرفه جيّداً، يا هوراشيو." فهذه الشخصية موجودة بحد ذاتها. مع ذلك هي موجودة كخيط من الكلمات ضمن عشرة أسطر، وربما أقلّ من ذلك.

ويليس: وهي موجودة في فم شخصية أخرى فقط. وهي لاتقدم نفسها أبداً على الخشبة.

بورخس: أجل في فم شخصية أخرى. مع ذلك فأنت تنظر إليها كشخصية حقيقية.

ويليس: ونشعر بالرأفة تجاهها.

بورخس: ونشعر بالرأفة تجاهها. شكسبير يضع هاملت في مقبرة. لقد ظنّ أن جعل هاملت يحمل جمجمة، جمجمة بيضاء- وكان يرتدي ثياباً فاحمة- سيخلق صورةً فعالة. ولكن بما أنه يستحيل عليه أن يحمل جمجمة ولاينطق بأية كلمة، كان عليه أن يقول شيئاً. وهكذا يأتي يوريك إلى الوجود من خلال تلك الضرورة التقنية التي استخدمها شكسبير. وصار يوريك موجوداً إلى الأبد. من هذا المنظور يكون يوريك أكثر من مجرد خيط من الكلمات. أعتقد أن ستيفنسون كان يدرك كلّ هذا، بما أنه كان كاتباً، وابتكر شخصيات كثيرة، وتلك الشخصيات كانت اكثر من مجرد خيط من الكلمات.

ويليس: وبكلمات عشر استطاع أن يقهر الزمن.

بورخس: أجل. هذا غريب جداً، أليس كذلك؟

ويليس: لدي سؤال شخصي جداً.

بورخس: الأسئلة الوحيدة الممتعة هي الأسئلة الشخصية. وليست تلك التي تتطرق إلى مستقبل الجمهورية، ومستقبل أمريكا، أو مستقبل الكون! تلك الأشياء لامعنى لها.

ويليس: أعتقد أن جميع هذه الأسئلة كانت شخصية.

بورخس: يجب أن تكون شخصية.

ويليس: هل لديك مشاعر أبوية تجاه أصدقائك؟ أم أنّ هذه الكلمة "أبوي" غير مناسبة على الإطلاق؟

بورخس: كلاً، هي ليست مشاعر أبوية.

ويليس: الجميع متساوون؟

twitter @baghdad_library

بورخس: أخوية، رفاقية، ولكن ليست أبوية. بالطبع، بما أنني رجل عجوز فمن المتوقع أن أكون أبوياً، ولكنني لست هكذا حقاً. الآن، ماسيدونيو فرنانديز ظنَ أنَ المشاعر الأبوية خاطئة. قال لي، "مالذي أشترك به مع ابني؟ نحن نتتمي إلى جيلين مختلفين. أنا مغرم به، ولكن هذا هو خطأي. وهو مغرم بي. وذاك هو خطؤه. يجب حقاً أن لانهتمّ لبعضنا." لكنني قلت له:"أجل. ذاك لايتبع القاعدة. يمكن أن تهتمّ به بالرغم من كلّ المماحكات. افترض أنّ مماحكاتك كانت بسبب أنك تقلق من أجله كثيراً، أو أنك لم تفعل الشيء الصحيح تجاهه. ثمة الكثير من الهراء حول كيف أنّ الآباء غير مسموح لهم بأنّ يحبّوا أولادهم، وأنّ الأبناء غير مسموح لهم بأن يحبوا آباءهم."

ويليس: استمرّ.

بورخس: بالطبع، كان قد هجر أسرته. ثمة شرح واضح: لقد هجرهم لكي يعيش حياته الخاصة.

ويليس: لننتقل من الآباء إلى الهلوسة. تتحدث كثيراً عن ألأحلام. ما الذي تعنيه بالحلم؟ وكيف يختلف الحلم عن حالات أخرى من اليقظة؟

بورخس: لأنَ الحلم ابتكار. بالطبع، يمكن أن تكون اليقظة ابتكاراً أيضاً: جزءاً من جوانيتنا، وهكذا دواليك. لكننا لانفكّر بها بهذه الطريقة. فيما يتعلق بالحلم، أنت تعلم أنّ كلّ هذا يأتي من ذاتك، أما فيما يتعلق بتجربة اليقظة فإنّ الكثير من الأشياء التي تأتي إليك ليس منبعها ذاتك، إلاّ إذا كنتَ تؤمن بالجوانية. إذن أنت حالم طوال الوقت، سواء أكنت نائماً أو مستيقظاً. أنا لا أؤمن بالجوانية، ولا أعتقد أنّ أحداً يؤمن بها.الفرق الجوهري بين تجربة اليقظة وتجربة الحلم أو النوم

يجب أن يكمن في حقيقة أنّ تجربة الحلم يمكن أن تولّدها بنفسك، وتبتكرها بنفسك، وهي تنشأ من ذاتك.

ويليس: ولكن ليس بالضرورة أثناء النوم.

بورخس: كلاً، كلاً، ليس بالضرورة أثناء النوم. عندما تفكّر بقصيدة فهناك اختلاف بسيط بين حقيقة كونك نائماً أو حقيقة كونك مستيقظاً، كلاً؟ وبالتالي هما يرمزان للشيء ذاته. إذا كنتَ تفكّر، إذا كنتَ تخترع، أو إذا كنتَ تحلم، فإن الحلم بالتالي يمكن أن يتراسل مع الرؤية أو النوم. هذا ليس مهماً جداً.

ويليس: مثلنا جميعاً أنت شخص أناني. لقد مكثت مع ذاتك، استثمرت وغصتَ في أغوار عقلك، ونقلت ملاحظاتك إلى الآخرين.

بورخس: حسنٌ، وهل هناك شيء آخر أستطيع فعله؟ يجب أن لا يلومني أحد، وأن لا أكون موضع لوم من أحد.

ويليس: لأنك نقلت ملاحظاتك الذاتية للآخرين، فأنت بالتأكيد لستَ بدون ذات. مع ذلك، فإنّ منحك عملك للآخرين، بالإضافة إلى منحهم نوعاً من الحوار السقراطي، يمثل بحد ذاته فعلاً من السخاء لنسل أخلاقي نادر بغرابة.

بورخس: أضف إلى أنني أحتاج ذلك، لأنني أستمتع به كثيراً.

ويليس: مع ذلك أخشى أنّ هذا النسل من السخاء الأخلاقي يكاد ينقرض. واحدٌ مثلك، محصّنٌ بالعمى وبولائه للمؤلفين القدامى، يمكن أن لايظهر ثانيةً. وهذا ما يجعلني أقلق أكثر قليلاً، ومن ثمَّ أشعر بالتشاؤم خوفاً من أن لايظهر هذا الإنسان الأخلاقي والفنان ثانيةً.

بورخس: هي أو هو سيضيع إلى الأبد!

twitter @baghdad_library

ويليس: هل أنت رجل أخلاقي؟

بورخس: نعم، أنا جوهرياً أخلاقي. ودائماً أفكر بالأشياء من منظور الصواب والخطأ. أعتقد أن الكثيرمن الناس في بلادي، على سبيل المثال، يملكون شعوراً ضعيفاً بالقيم. الناس هنا، في أمريكا، على وجه العموم، يفكرون بالشيء على أنه إما صحيح أو خاطئ، كالحرب في فيتنام مثلاً، أو غير ذلك. في بلادي تفكر بالشيء على إنه إما رابح أو خاسر. وهنا يكمن الإختلاف. ولكن هنا بلد الطهرانيين والبروتستانت، وكل ما يأخذ بالإعتبارات الأخلاقية، في حين أن الدين الكاثوليكي يأخذ بالظرف والطارئ- بمعنى أنه يتجه إلى الإلحاد الجوهري.

ويليس: فيك الكثير من المتعة يا بورخس. إنك كالأطفال، تتمتع بالأشياء، وتمتلك حسّاً عظيماً بالمفارقة.

بورخس: يجب أن أكون كذلك. أحياناً أتساءل فيما إذا كنتُ قد كبرت. لا أظن أن أحداً يكبر.

ويليس: كلا، مامن أحد منا يكبر. عندما كنتُ أشعر بالتعاسة في الماضي، بسبب الحب أو أشياء حمقاء من هذا القبيل-

بورخس:كلاً، ليست حمقاء. هذه الأشياء جزء من كل تجربة انسانية. أقصد حقيقة أن تُحبَّ أو أن تُحَب، وهذا جزء من أية سيرة،كلاً؟ ولكن إذا جئت إليّ وقلتَ: أنا أحب فلان أو فلانة، لكنني رُفضت- أعتقد أن كلّ إنسان يقول هذا. كل منا رُفض يوماً ورفض هو بدوره. كلا الأمرين موجودان في أية تجربة إنسانية. شخص يرفض آخر ويُرفَض بدوره. هذا يحدث دائماً. بالطبع عندما يحدث لنا هذا، كما يقول هينه، نكون تعساء جداً.

ويليس: أحياناً عندما لاأكون سعيداً أريد أن أموت، لكنني كنت أعرف أن هذا مجرد إشارة على أنني أريد الحياة.

بورخس: فكرت بالإنتحار مرات عديدة، لكنني كنتُ دائماً أضعه جانباً. كنتُ أقول لماذا عليّ أن أقلق مادمت أملك هذا السلاح القوي: الإنتحار. وفي نفس الوقت لم أستخدمه أبداً- على الأقلّ لاأظنّ أنني استخدمته أبداً.

ويليس: أنت تقريباً أجبت عن سؤالي. كنت أريد أن أقول بأنَ فكرة الإنتحار كانت مجرد إشارة للرغبة في الحياة، لدرجة أن الإنتحار الكاذب الذي كنت غالباً ما أتصوره كان رغبة يائسة في العيش بشكل أفضل وأكثر كمالاً.

بورخس: عندما يفكر الناس بالإنتحار، فإنهم يفكرون فقط بما سيفكره الناس عنهم عندما يعرفون أنهم أقدموا على الإنتحار. وبالتالي هم، بمعنى من المعاني، يستمرون في الحياة. إنهم يفعلون ذلك بشكل عام كشيء من الإنتقام. كثير من الناس يقدمون على الإنتحار لأنهم غاضبون. إنها طريقة لإظهار غضبهم وانتقامهم. وأن تجعل شخصاً آخر يشعر بالذنب حيال ماتفعله، وهذا بالتأكيد خطأ بارز.

ويليس: الإنتحار هو رومانس الرجل الشاب بشكل عام، وباب مزيف يفتحه فقط الفتيان أحياناً. ولكن ماذا عن النقيض؟ لماذا تلك الرغبة في الحياة؟ لماذا هذا الشعور المتأجج الذي يدفع الشاب إلى الموت والكاتب إلى القلم؟ لماذا هذه العاطفة المحترقة للحياة؟

بورخس: لو كنتُ أستطيع أن أجيب عن ذلك لفسّرت لغز الكون، ولا أعتقد أنني قادر على ذلك، كلاَّ؟ بما أنّ غيري جميعهم فشلوا. لقد

twitter @baghdad_library

عرفت انتحارات كثيرة. كثيرون من أصدقائي أقدموا على الإنتحار. في الحقيقة، الإنتحار بين رجال الأدب في بلادي أمر شائع. ربما أكثر من بلادكم هنا. لكنني أعتقد بأن معظم هؤلاء انتحروا بدافع الرغبة في احتقار شخص آخر، وجعل هذا الشخص يشعر بالذنب حيال موتهم. في معظم الحالات يكون هذا هو الدافع. في حالة ليبولدو لغونوس أعتقد أنه كان يحاول أن يجعل من شخص آخر قاتلاً.

ويليس: في بعض الأحيان يكون هناك إعياء ورغبة بالتحرر عندما يكون الناس مرضى جداً.

بورخس: بالطبع هناك نوع آخر من الإنتحار. عندما عرف صديق لي بأنه مصاب بالسرطان قام بالإنتحار وهذا شيء معقول. هذا الإنتحار ليس ضد أحد. أعتقد إنه الشيء الصحيح.

ويليس: لم يبق لدي أي سؤال إلاّ إذا كنت تريد أن توجه لي سؤالاً.

بورخس: كلاً، أريد فقط أن أشكرك على لطفك، وعلى هذه المقابلة الممتعة لأنني فكرت بها في البداية كمحنة، لكنها لم تكن محنة. على العكس، كانت تجربة ممتعة جداً. وكنت سخياً جداً وانت تزودني بأفكارك، وتمدّني بإيحاءاتك متظاهراً بأنني أنا الذي كنتُ أفكّرها. لقد فعلت كل شيء، وتتعامل معي بكل مهارة، وأنا ممتنٌ لك. شكراً، بارنستون.

شكراً لك بورخس.

ما قاله سينيكا في تاكسي شيكاغو

ربما كنت مذعوراً . لكنني لا أعتقد أنني خائف ، وأنا أرحب بالموت . ولكن ليس اليوم ، في صحبتنا هذه ، حيث أنت بجانبي وماريا على بعد بضعة مقاعد في الخلف . ربما ذات يوم في بوينس أيرس ، عندما أشعر بشكل خاصّ أنني وحيد والمطر يهطل . المطر وقت ملائم للحزن كما تعرف من خلال الشعراء الوجدانيين .

كان من المفترض أن يصل بورخس وماريا في ذلك النهار الربيعي إلى نيويورك قادمين من بوينس آيرس. وكان من المفترض أيضاً أن أمكث معهما قرابة الشهر. كنا نتحدث عبر الهاتف من قارة إلى قارة ونقوم بالترتيبات، ولكن ما من مكالمة عمل مرت دون أن يطغى الأدب عليها بسرعة، أو بآخر حادثة طريفة راهنة من حياته في بوينس آيرس. وفجأة وصلت منه برقية تحدد موعد وصوله إلى نيويورك، موقعةً باسم بورخس.

كان نهاراً مشمساً وسعيداً. وصلت إلى مطار كيندي الدولي باكراً على غير عادتي. كنتُ أعيش في تلك الآونة من عام ١٩٨٠ في بروكلين، في منطقة كوبل هيل قرب الجسر. تأخرت الطائرة لمدة ساعة كونها توقفت على غير برنامجها في سانتياغو دي تشيلي. وما إن توقفت الطائرة بجسمها الفضي حتى أُفرغت من ركابها حالاً. خرج

twitter @baghdad_library

الركاب زوجين زوجين بشيء من الظفر. أنتظرتُ حتى آخر شخص عبر البوابة. سألتُ أحد الموظفين فيما إذا كان قد بقي آخرون أو أن هناك طائرة أخرى.

"هناك شخص واحد بقي على متن الطائرة،" جاء الجواب الواثق.

غداً، قلتُ في نفسي. كنتُ وحيداً. مكثتُ على بعد ثلاثين قدماً لأكثر من عشرين دقيقة عند المدخل ناظراً في كل الإتجاهات. بعدئذ- ليس في اتجاه الطائرة، بل من الخلف- استدرتُ ورأيتُ ماريا. كان بورخس يجلس بكبرياء على كرسي ذي عجلتين. كانت ابتسامته كبيرة كالسماء. انزعجتُ لرؤيته جالساً على الكرسي- هل كان ذلك منذ وقت طويل؟- غير أنني سرعان ماعرفت أن الكرسي كان من أجل عماه، وليس صحته.

"ماريا! بورخس!"

"مضت سنة على آخر مرة التقينا بها؟" قال بورخس

"كلاً، بل أربع سنوات."

"تبدو وكأنها سنة." أصرَّ.

"كيف حال القديس جيمس الأصلي؟" سألتُ. "هل مازالوا يقدمون لك مقعداً وثيراً قرب المرايا ويخدمونك بشراب الشوكلاته الساخن في منتصف الليل بحيث تستطيع أن تستمرَّ في الحديث؟"

"إنهم مايزالون مؤدبين ولطفاء مع زبونهم الجيد، هذا الرجل العجوز."

"أهلاً بك في مشفى القديس جيمس،" قلتُ له.

وقف بورخس على قدميه. لا أذكر لماذا لكنني كنت أسرّ في أذنه بضع أبيات من القصائد العظيمة لكويفيدو والتي تبدأ ب (الحياة تبدأ

بالدموع والروث). وراح بورخس يكمل الأشعار. عدنا ثانيةً إلى البداية. (ماذا كان سيحدث لو أنني غادرت المطار، ظاناً أنهما ليسا على متن الطائرة، وظلاً هناك وحيدين؟ أية فكرة تلك!)

من ذاكرته راح بورخس يسحب القصائد الغنائية التي تناسب مدينتنا الخاصة، مدينة القديس جيمس.

دعها تذهب، دعها تذهب، ليباركها الله
حيثما كانت.
يمكنها أن تفتّش العالم الشاسع الواسع بأسره
سوف لن تجد رجلاً آخر مثلي.
الآن عندما أموت أريدكم أن تلبسوني حذاءً
بربطات مفتوحة،
معطفاً أنيقاً وقبعةً من ماركة ستيتسون.
علّق قطعة ذهبية من فئة العشرين دولار على ساعتي
كي يعرف الأولاد أنني متّ واقفاً.

"دعنا نذهب إلى البلدة،" قلت.

"هل تعرفين ماريا،" لاحظ بورخس،"فقط قبل بضع ساعات تركنا الخريف في الإرجنتين. ولكن انظري هنا، في نيويورك، بدون تفكير إنه الربيع."

القمر لايعرف فيما إذا كان هادئاً وصافياً،
بل لا يمكنه حتى أن يعرف أنه القمر.

twitter @baghdad_library

واتجهنا لجمع الأمتعة. لم يؤثّر الكرسي على بورخس. بمعنويات عالية، مملوءاً بالحنكة والحيوية، أخذ ماريا من ذراعها، وراح يلفح بعكّازه ظهيرة نيويورك المبكّرة.

ذلك المساء كنا نعبر جسر بروكلين. اصطحبتُ سيارتي من مكان إقامتي في شارع ساكيت واتجهنا إلى مانهاتن حيث كان بورخس وماريا سيقضيان ليلتهما. في اليوم التالي كنا في شيكاغو- مدينة كارل ساندبيرغ، كما سماها بورخس- حيث كان مقرراً أن نقدم حديثاً للطلاب الخريجين في جامعة شيكاغو. وما إن غادرنا بروكلين، مدينة والت ويتمان، متجهين صوب مانهاتن، مدينة واشنطن إريفنغ، استشعر بورخس لحظة تاريخية ذات تأثير عظيم. كنا فوق جسر بروكلين، جسر هارت كرين، ومايكوفسكي ولوركا- جميعهم كانوا مثله غرباء على المدينة، وكانوا قد عاشوا هناك وكتبوا عن تجلياتها. لاحظ بورخس قائلاً: "ناطحتا مانهاتن تحلقان باتجاه الأعلى مثل طائرتين من ماء."

عندما عبرنا الجسر تماماً بورخس قال: "بارنستون، هل تمانع إذا عدنا فوق الجسر مرة ثانية؟"

حين وصلنا إلى نهاية الجسر قرب شوارع (تشاينا تاون) المربكة استدرت وعدت إلى بروكلين. في بروكلين مررنا قرب الناطحة القزمة المسماة (شهود يهوه) برسالتها الفوسفورية في الأعلى الموجّهة إلى الله والتلاميذ. استدرنا مرة أخرى وقدت السيارة ببطء شديد. راح بورخس بكل إجلال يردد أبياتاً من قصيدة هارت كرين (إلى بروكلين بريدج):

كم فجراً في صقيع راحته المتموجه
ستغرقه أجنحةُ النورس وتبلله،

فارشةً دوائر بيضاء من النزاع، البناء الشاهق
فوق الخليج المقيد ومياه تمثال الحرية.

"غريب كيف أن الرجل الذي كتب عن [الأوتار الكورالية] لذاك [المذبح وتلك القيثارة] يرمي بنفسه في نفس المياه في لحظة يائسة، بل في لحظة لامعنى لها- كاثرين آن بورتر قالت إنه كان ثملاً في بداية المساء- ويغرق. أعتقد أنه كتب أفضل قصائده في مكسيكو، تلك القصائد السريعة المتشظية، لكن يبدو أنه كان يعرف بأن لحظته قصيرة، [لحظة في الريح]. لقد كتب قصيدة (البرج المكسور) هناك."

مدّ بورخس يده ثانيةً إلى بنك ذاكرته وراح يقرأ مقطعاً من (البرج المكسور):

وهكذا دخلتُ العالم المكسور
أقتفي أثر الصحبة الرؤيوية للحب، صوتها
لحظةٌ في الريح (لا أعرف كيف تبعثرت)
ولكن ليس إلى أمد طويل يتيح لنا خياراً يائساً.

أوصلتُ بورخس وماريا إلى شقتهما في شارع بارك أفينيو الذي كان قد أسسه ناشرو دوتون لأنفسهم. في الصباح التالي كنا نستقلّ الطائرة إلى شيكاغو.

الطيران مع بورخس ليس تجربة بسيطة. كان يدعي أنه لايستمتع بالضياع مع تلك الطيور المعدنية الضخمة. الطائرات الصغيرة أفضل.

twitter @baghdad_library

أتذكّر نظرته المشعّة عندما غادر الجندب الحديدي ذات المحرك الواحد في إحدى صباحات الربيع في بلومينغتون. هبط مدرج الطائرة بذراع واحدة مبسوطة باتجاه الأفق. توقف، وأدار رأسه باتجاه الأعلى، عيناه تضحكان بحبور فيما كان يتفحّص السماء. وكأنه كان يجرب حالةً صوفية، مغمغماً بالكلمات: "للسماء رائحة الذرة!".

بورخس قال إنه يفضّل الطائرات الأصغر لأنه يشعر بإحساس الطيران فيها، ويكون جزءاً منها. الطائرات الضخمة تجعله يشعر بالصغر والتبعثر. في العديد من الرحلات الجوية التي رافقته بها كان يستسلم للمحادثة التي لاتعرف التوقف حتى أكثر من مشاويرنا على الأقدام حول المدينة. وبما أنه لاتوجد عقبات- لاشوارع لنعبر، لاضجيج، لاعابر سبيل يصافح يده؛ بل مجرد فضاء مفتوح، صامت- كانت الطائرة تمده بنوع آخر من الحميمية والإلتزام. وكما دائماً، لم يكن بورخس قادراً على التفوه بجملة ليست خالدة وتصلح للتسجيل بين دفتي كتاب. غير أن بورخس وبسبب شغفه بالكتب والمكتبات، والتي كانت تمثّل مراياه اللامتناهية للتاريخ، كان يعرف الفرق الجدلي بين الحديث الشفوي والطباعة. الحديث حرّ ومتحرر من سلطة الكتاب. الشخصيات العظيمة للحوار الشفوي، أسلافنا الأوائل الذين أعطونا دياناتنا الشرقية والغربية، لم يكتبوا شيئاً.

"مالذي تشتغل عليه هذه الأيام؟" سألته.

"أودّ أن أعمل كتاباً عن أنجيلوس سايليسيوس. غير أنه دخل لتوه في قصة قصيرة، وربما كان هذا أفضل مابوسعي عمله. مع ذلك، ماريا وأنا نشتغل، على الكتاب." أضاء وجهه.

"بورخس، أشكّ أنك ترغب بالكتابة بما أنني أستطيع أن أرى

شعاعاً من الفضيلة الساخرة على محياك عندما تتحدث عن هذه الأشياء."

"سوف أخرج مرآتي وأتفحّص فيما إذا كنتُ فعلاً أملك ذاك الشعاع.، إذا كان الأمر كذلك، سوف أكون أكثر حرصاً. مع ذلك، شعاعٌ من الفضيلة ولا ظلّ من الذنب."

"إنك تملك كلّ عناصر المذنب الرسمي. وأظنّ أنك كنت ستقيّد إلى إسفين من الحديد الساخن في قرنٍ سابق في أي بلد يمتلك قواعد محترمة للفكر والسلوك."

"لكنني حاولت أن أكون هرطوقياً مناسباً. وأعتقد أنني فشلت في هذا أيضاً بسبب افتقاري للجدة كما هو حالي في محاولاتي الأخرى."

"من الواضح أنك إنسان من الضعف ينساق مع أية هبة بسيطة للريح."

"لقد أخذتَ كلماتي مني."

"المعذرة."

قلب بورخس الطاولات عليّ. هنا وجدتُ نفسي أعتذر، وكأنني بورخس يعبّر عن تواضعه.

"دعني أسألك سؤالاً شخصياً، بارنستون."

"حسبتُ أن كلّ الأسئلة شخصية. لكنني حسبتُ أيضاً أنك غير مهتم بالأحاديث الشخصية الصغيرة كما هو حال مضيفيكَ اليابانيين طوال الوقت الذي قضيته في اليابان. مع ذلك تفضّل."

مضى علينا أكثر من ساعة ونحن نتبادل الحديث بلا توقف منذ أن جلسنا في مقاعدنا وربطنا الأحزمة. ولأنني كنتُ أجلس مائلاً بشكل

twitter @baghdad_library

كامل باتجاهه، وبانتباهٍ مثير ومتعِب، بدأت عضلات معدتي تصرَ وكأنني موضوع في ماء متجمّد. بل لقد تحولت إلى جليد. لكنني لم أقل شيئاً.

"متى نصل إلى شيكاغو؟" سألني.

"تقريباً بعد أن تنتهي من طرح سؤالك."

"مارأيك بماريا؟" سأل بجدية وثقة.

"سبق وقلتُ لك. أنت لستَ أهلاً لها." لم أكن أنوي أن أجعله يهرب بتلك الفضيحة.

"أنا سعيد بأنك كشفت أمري- والأكثر من ذلك، سعيد بأنك تحترم ماريا."

"ليس صعباً أن تقوم بأيّ منهما. بالطبع أنا أحترم ماريا. هل تظن أنني اعمى؟ إنهارائعة."

"أعتقد ذلك أيضاً. ولكن انظر هنا، أحياناً أدرك أنها يجب أن تتحرر من صحبة هذا العجوز. كانت تحاول أن تذهب إلى اليابان. قلت لها سأكون سعيداً بالذهاب معها والموت في اليابان. لاأعتقد أنّ ذلك أفرحها. كانت نكتة بالطبع."

"أجل، أحياناً تكون النكتة هي الحقيقة الوحيدة التي نتفوّه بها."

"لقد انتصرت." قال. "أستسلم لك ولفرويد الذي لم يكن من كتاب النثر المفضلين لدي."

"هل تمانع في أن أسألك سؤالاً شخصياً أكثر صعوبةً؟"

"بالطبع. هل هناك أسئلة حقيقة بين الناس ليست شخصية؟ الأسئلة الأخرى هي عبارة عن ثرثرة وخرافات."

"إنه سؤال يتعلق بالموت. تتحدث مراراً عن عدم إيمانك بالله، وباليوم الآخر، وعن موتٍ ترحّب به، وتكون جاهزاً دائماً له. بالمقابل، أنت تتحدث كأي شاب صغير ينتظره "مستقبل واعد" حيث تقول بأنك لاتكترث بكتبك الأولى، ولا تكلف نفسك عناء قراءتها ثانيةً أو حتى امتلاكها، وتفكّر فقط بالكتب التي تخطط لكتابتها. وبسبب كلّ هذه التناقضات- على الأقلّ أنا أعتبرها تناقضات- أتساءل أنك عوضاً عن الترحيب بالموت لستَ مذعوراً منه؟ ربما كنتَ شجاعاً. مثل سقراط الذي امتدحته لشربه كأس السمّ وعلى نقيض يسوع الذي نادى بصوته عن الصليب. أتساءل هل أنت مذعور وشجاع في آن واحد، بما أن الإحساسين مترابطان."

"ربما كنتُ مذعوراً. لكنني لاأعتقد أنني خائف، وأنا أرحّب بالموت. ولكن ليس اليوم، في صحبتنا هذه، حيث أنت بجانبي وماريا تجلس على بعد بضعة مقاعد في الخلف. ربما ذات يوم في بوينس آيرس عندما أشعر بشكل خاص أنني وحيد والمطر يهطل. المطر وقت ملائم للحزن كما تعرف من خلال الشعراء الوجدانيين."

"خلال سنوات الجامعة عندما كنت أدرس مادةً في الرياضيات،كلّ ما أتذكّره هو أنّ الصفر واللانهاية يمكن استبدالهما الواحد بالآخر على أنهما متساويان من أجل خلق مشكلة في الجبر أو وسيط قابل للحل. هل يمكننا أن نعتبر الموت والخلود أمرين مترابطين؟"

"لماذا، نعم. ولكن إذا كان الموت والخلود مترابطين فهذا يعني ببساطة أنّ الخلود يعني ظلاماً أبدياً. بالنسبة للبعض هذا غير مرغوب فيه. بالنسبة لي هذا لابأس به. لهذا السبب أنا أؤمن بالخلود، على الأقل حسب الصيغة التي اقترحتها لي."

twitter @baghdad_library

في تأملاته في السيرة الذاتية يرى أنطوني كيريغان كيف انّ بورخس وجد في سؤال اللاوجود صيغته النموذجية من قلب الأمور: "كان بورخس ممسوساً بالنسيان، تماماً مثلما كان أونامونو، سلفه الأقرب في هذه القضايا، ممسوساً بالأبدية. في نفس الطريقة الإسبانية كان بورخس يتوق إلى ماهو نقيض الخلود: اللاشيء."

"ويليس، في هذه الطائرة ينتابني إحساس بالحميمية تماماً كما نشعر عندما تهرب القطة من الحقيبة وليس هناك مايهمّ. بالطبع، مؤخرتي بدأت تلتهب حيث أقبع هنا محاطاً بالأحزمة، غير أن الطنين الخافت للمحرك في الخارج وطنين الأصوات في الداخل يمنحنا غرفة صغيرة، فقط أنت وأنا. ماذا تعني لك ممارسة الحب مع المرأة؟"

"أنا أحبّذ تلك العادة،" قلت مندهشاً.

"أنا أحبّذ الصداقة،" أجاب.

"أجل، أعرف."

"هذا هو سبب اهتمامي بممارسة الحب مع المرأة، أقصد، بعد أن هجر آدم وحواء حلمهما في الجنة ودخلا زمن الساعة العنيدة، بدأنا نعرف الحب والصداقة والموت. وكما قال بولص، أو ربما كان يجب أن يقول، أجمل هذه الأشياء هي الصداقة. إذن مالذي تراه في تذكّر الحبّ؟"

"خير لك أن تتذكّر من أن لاتتذكّر على الإطلاق." قلتُ له بلهجة مفتعلة.

"أنا رجل عجوز شكاك، يحمل احتقار القرن العشرين للجانب العاطفيّ، وعلى الرغم من أنني مفارقة تاريخية أدبية فإنني أشعر أحياناً مثل واحد من أولئك الشعراء الرمزيين أو مثل شعراء الإنحطاط،

شاعري بودلير، صاحب الجزر والغانيات، أو فرلين، رجل الموسيقا، الثمل بحدائق النوافير والتماثيل حيث امرأة ما تنتظر مثل أفق جميل."

"بورخس، بدأت أشك أنك آدم الذي أُطلق سراحه حديثاً من الفردوس، وهو منهمك الآن في صيد محموم للذكريات الإيروتيكة. أنا سعيد جداً لرؤيتك تتصرف بشكل غير لائق بعض الشيء."

"مستقبلي محتوم مثل مطر إعتباطي. لكنني مازلتُ احتفظ ببعض الأحلام عن نسا، حقيقيات، وهي لم تظل بكليتها أحلاماً."

"هناك واحدة تجلس خلفنا فقط لوكان لديك عينان في رأسك."

"هذه غرفة صغيرة جيدة، أليس كذلك؟"

"أجل غرفة مصنوعة بخبث."

بدا حديثنا فعلاً ثانياً لذاكرة آدمه الخاصّ، آدم الذي أحبّه، ذاك المقذوف والمطرود، والذي يمتلك بالتالي الشعاع الخافت وإمكانية الحب الحقيقي داخل الزمن البطيء على الأرض، وهذا مايمثّل عزاءً."

آدم مطروداً

هل كان هناك حديقة أم حلم حديقة؟
ببطء داخل ضوئي الغامض، أسألُ اليوم،
بشكل يشبه العزاء تقريباً، فيما إذا كان الماضي
الذي كان فيه آدم، في سطوعه الرثّ
من البؤس الآن، السيّدَ يوماً، أم هل
كان افتراء الإله الذي حلمتُ به؟ عيناي
لاتملكان ذاكرةً واضحة عن الفردوس الآن،

twitter @baghdad_library

مع ذلك أعرف أن الفردوس موجود وأنه
يستمرّ، وإن لم يكن من أجلي. هي الساعة العنيدة
للأرض- عقوبتي- التناحر السفاحي
والحرب بين ذرية قابيل وهابيل وأتباعهم.
مع ذلك، وبالرغم من كلّ هذا، أن تكون قد أحببت فهذا كثير،
وأن تكون قد حققت السعادة وأنت تحاول منذ أمد طويل
أن تلمس الحديقة الحيّة، ولو ليوم واحد.

في مدينة أوهاري قابلنا مارجوري بانل وهي طالبة متخرجة، ذكية ولطيفة، من جامعة شيكاغو. وحين تجولنا بسيارتنا في المدينة كان الربيع تقريباً شيئاً محسوساً في الهواء. توقفنا أولاً عند مكتبة ستيوارت برنت وجلس بورخس بين الكتب سعيداً. بعدئذ كان الوقت قد حان للتوجه إلى الجامعة. في التاكسي جلست كل من ماريا ومارجوري في المقعد الأمامي. بورخس وأنا غطسنا عميقاً في المقعد الجلدي الأسود في الخلف. كان بورخس يحب الإتصال بالناس في كل مكان نكون فيه، لكنه بالطبع وبسبب كونه أعمى كان غالباً ماينتابه بعض الخجل- ولكن ليس دائماً، خاصةً عندما يبدأ أحدهم حديثاً معه. وسيتحدث عندها مع أي شخص كان، سواء أكان طالباً أو غريباً، وبنفس الصراحة والحماس التي يبديها تجاه صديق قديم. وبالنسبة لرجل يتحلى بتلك الخصال النبيلة والقديمة من الكياسة، كان دائماً جاهزاً لتقبّل أي صوت مجهول يغامر بمخاطبته.

"أنت من شيكاغو؟" سألتُ السائق.

"لا. أنا فقط أشتغل هنا. وماذا عنكم أنتم؟"

"بورخس والآنسة كوداما من الإرجنتين. مارجوري من بوستن. أنا من إنديانا."

"حسنٌ، أنتم أناس جوالون إذن. أنا أيضاً كنتُ في أوربة يوماً. هل سبق وكنتم هناك؟"

كان السائق في الستين من عمره، يميل إلى السمنة قليلاً تحت سترته ذات اللون الأحمر. كان يضع أمامه صورة زرقاء لمريم العذراء. كان لصوته موسيقا المدينة وصريفها الأخاذ.

"متى كنتَ في أروبا؟" سألته، "وماذا كنت تفعل هناك؟"

"كنت مجرد جندي. في الحرب." قال باقتضاب.

"هل شهدت العمليات؟"

"نعم. بالطبع شهدت العمليات. كنتُ مع جماعة المشاة. دخلتُ بعد أربعة أيام من وصول الحلفاء إلى شمال فرنسا عام ,١٩٤٤"

"وماذا كانت تشبه؟"

"اسمع يارجل. أنا آسف. أنا كنت البادئ بالحديث عن هذا. لكنني لا أتحدث عمّا شاهدته؟"

"تقصد..."

"أقصد لا أتحدث حقاً عما جرى بالفعل لأنني لا أفكر بذلك." خفت صوته وسكت.

"لماذا لا تفكر بما كان يجري؟" قلتُ بإصرار.

كنتُ أمارس الضغط عليه وكان السائق في حوزتنا. كنت أحبّ أن أستجوب الناس عندما أكون مع بورخس، وهذه المرة انتابني شعور عارم. غريزياً أحببتُ السائق.

twitter @baghdad_library

"تريد أن تعرف. حسنٌ. أعرف أنكم تريدونني أن أتحدث عن ذلك. لن أمانع. سوف أعطيكم الصورة اللعينة بمجملها بثلاث أو أربع كلمات. لا أفكّر بالحرب، ولا بكل تلك الأشياء في الماضي، لأنَ الذاكرة جحيم."

قبض بورخس على معصمي. وبصوت خفيض متوسّل همس لي:" هذا الرجل كان جندياً. لقد عرف المرارة. لقد عرف البؤس والآن هو يكره الذاكرة. الذاكرة جحيم. الذاكرة جحيم. ماذا تظنّ، هذه الكلمات يمكن أن يكون قد كتبها سينيكا."

بورخس أخبرَ مضيفينا في جامعة شيكاغو عن الإعلان الذي أطلقه السائق حول الذاكرة. كان من الواضح أن هذه الحادثة وتلك الكلمات الثلاث المشغولة جيداً، أقصد مَثَل سينيكا، كان قد دخل ذاكرته، إلى جانب قراءات هامة وتجارب سابقة. تذكرتُ فقط لاحقاً واحدة من سوناتاته تحت عنوان (الأبدية) والتي يتحدث فيها عن كلمات سينيكا الرهيبة ويؤكد أنه إذا كان هناك شيء واحد لايمكن الهروب منه فإنما هو الذاكرة: ذاكرة مصيرنا كديدان ورماد ومصيرنا المصنوع من أشياء أخرى جيدة أيضاً- مصهرالحداد، القمر، غبش المساء. تلك الأشياء الأخيرة تضيع في الأرض لكنها تستمرَ في الأبدية حيث تقوم الذاكرة بحفظها.

الأبدية

دعني أديرُ في فمي قصيداً
باللغة الإسبانية يؤكد ماكان سينيكا
قد قاله دائماً باللغة اللاتينية: لعنته الرهيبة
التي تعلن بأن العالم صيغة

للديدان. دعني أغني رمادَه الشاحب،
روزنامات الموت والإنتصار
عن تلك الملكة الضاجّة التي تحاول أن تهشّم
وتدوس رايات غرورنا.
ولكن هذا يكفي. مايمكن أن يكون قد بارك غباري
أنا لستُ جباناً لأنكر
وأعرف أن ثمة شيئاً واحد لايمكن أن يوجد:
النسيان. مع ذلك الأشياء الثمينة التي فقدتها
تستمرّ، وتتوهّج في الأبدية: السماء،
القمر، مصهر الحداد، وغبش المساء.

كان برنامج اللقاء بالجمهور الذي يتألف بمعظمه من طلاب خرّيجين، قد أعده ريكاردو غالون، وهو أكاديمي اسباني قدمنا للحضور. وتقرر أن نتبادل الحديث، بورخس وأنا، أمام الجميع. تحدث بورخس بدفء عن المدينة الباردة. وعلى الفور أخذ بألباب الحضور. وراح الطلاب بدورهم يضفون على المدرج المعتم اشراقاً سعيداً عبر عقولهم المتحفّزة التي كانت تستمتع بالحديث.

يجب أن أروي حادثة وقعت خلال أقل من ثانية في ظهيرة ذلك اليوم من عام ١٩٨٠ . كانت ثانوية وعابرة، لكنها تعطي توازناً لما يمكن أن يكون غبطة غير متحققة.

الخلفية. لسنوات عديدة مضت كنتُ مهتماً بالشعر النسائي. في عام ١٩٦٢ نشرتُ كتاباً لقصائد سافو في الإغريقية، مرفقاً بترجمة

twitter @baghdad_library

و دراسة. ابنتي أليكي وأنا قمنا بإعداد انطولوجيا ضخمة تدعى (كتاب النسوة الشاعرات منذ العصر الكلاسيكي وحتى الآن). وأنا أدرّس بشكل منتظم منهاجاً عن الشعر النسائي في جامعة انديانا والتي أعمل فيها كعضو هيئة تدريسية. مؤخراً نشرتُ كتاباً تحت عنوان (سافو والشعراء الغنائيون الإغريق). هذه علامات على اهتمامي بشعر النساء وقد بدأ قبل ثلاثة عقود عندما لم تكن الجامعات قد أسست بعد برامج لدراسة الأدب النسائي. بكلمات أخرى، كلّ المؤشرات تدل على أنني أفتقر لتاريخ شخصٍ عنصري تجاه النساء.

في حوارنا ذاك المساء قلتُ لبورخس: "عندما تفكّر بنفسك كممثّل من العصور الوسطى لكل رجل (Everyman) ماذا تقول عن ...." وفي اللحظة التي نطقتُ بها مفردة "كلّ رجل" وشوشة عالية ملأت المدرج. كانت كلمة ملغومة ويجب أن تثير الوشوشة. الكلمة المناسبة كانت "Everyperson" (كلّ شخص) والتي لم يكن بورخس قادراً على فهمها كشخصية من العصور الوسطى. تمالكتُ أعصابي. بدى بورخس منذهلاً. كنتُ متوتراً قليلاً، لكنني حاولت ان أتناسى ذلك، غير راغب بإيذاء التدفق. لم يسبق لي أن تعرضتُ للوشوشة على الملأ من قبل، وكوني من النوع المغامر، أنظر لجميع التجارب على أنها ممتعة. تابعنا حوارنا- لكنّ سينيكا تحدث، واعظاً ومحذراً، من قاعة مدرج شيكاغو.

بعد الحديث استأجرنا سيارة (ليمو) عائدين إلى بلومينغتون التي تبعد أربع ساعات ونصف باتجاه الجنوب. كان بورخس يتحلى بمزاج عظيم وراح يتحدث عن ألفونسو رايس كاتب المقال المكسيكي الذي كان صديقاً له وبطله السابق، وتحدث عن كارلوس غاردل الذي اعتبره

مسؤولاً عن خطف إيقاع التانغو من مستواه الجنسي العالي وشغبه في أحياء بالبرمو إلى انحطاطه الباريسي، وتطرق إلى بيرون الذي كان جباناً، وانتقل إلى القابالا التي كانت ترى العالم كخيط من الرموز اللفظية يتفوه بها إلهٌ رياضي.

كان سائق سيارتنا الليمو رجلاً أعجف، أحمر الشعر، يرتدي قبعة ملونة وسترةً جلدية قديمة. وراح ينادينا بألقاب السادة والسيدات ما إن دخلنا السيارة، لكنه لم يقل شيئاً بعد ذلك حتى وصلنا إلى مكان إقامتنا.

"هل سبق واعترفتُ لك بأنني نلتُ يوماً لقباً بريطانياً." قال بورخس من وراء الغيم.

"كلاّ، وأخشى أن أصاب بالدهشة عندما تخبرني."

"كان ذلك منذ عدة سنوات. أمرت ملكة انكلترا سفيرها في بوينس آيرس بمهمة تقليدي لقب الفارس."

"السير خورخي لويس!"

"من الآن فصاعداً يجب أن تعاملني باحترام خلال دروس الإنكليزية القديمة، بوصفي شخصاً يستحق تعليم الإنكليزية القديمة، بل وكوني مؤهلاً لتعليم الإنكليزية القديمة."

"ولكن كيف يمكن أن أفكر باحترام رجل هو مجرد "السير خورخي لويس" في الوقت الذي اعتدت على التفكير بأجدادك الذين كانوا يحملون ألقاباً حقيقية، مثل الكولونيل سواريز والكولونيل بورخس؟ ألقابٌ تحصّلوا عليها على أرض المعركة وليس وراء مقعد خلف الخطوط الأمامية."

twitter @baghdad_library

"عدتَ وأسقطتَ أقنعتي ثانيةً ياويليس."

"بل أسوأ من ذلك، أعدتكَ إلى رومانس أجدادك العسكريين. يجب أن أحذّر ماريا أن لاتدعكَ تزيل تلك الصور الصغيرة لأجدادك عن الطاولة في شقتك واستبدالها بصورة السير خورخي لويس برباط أو حزام مناسب. يجب أن أعترف أنك ستبدو مبتهجاً داخل الحزام."

"لستُ بالرجل الإنكليزي المبتهج، لكنني أعترف بانحيازي إلى الترجمة الإنكليزية لرواية (دون كيخوته) وتفضيلها على الأصل البربري."

"لقد قرأتُ بيير مينارد."

"ولو أنني أستطيع أن أقرأ العربية،" قال معلناً، "سوف أفضّل البذخ الرائع لريتشارد بورتن على الفقر الإسلوبي الإسطوري في النص الأصلي (لألف ليلة وليلة).

"حتى ولو أنه كان كان فيكتورياً فاسقاً كتب عن تجاربه الشخصية في مباغي البنغال؟"

"عليّ أن أعيد النظر بترجمة السير ريتشارد."

وصلنا جنوب إنديانا قرابة منتصف الليل. عندما سحبنا أنفسنا قرب النصب التذكاري لجامعة إنديانا حيث كان يسكن بورخس وماريا قفز السائق الصامت وفتح لنا الباب. كانت الحملة الإنتخابية لعام ١٩٨٠ تجري على قدم وساق بصخبها غير الطبيعي. راح سائقنا ينظر إلى الأعلى باتجاه بورخس رغم أنه كان في الواقع أطول قامةً من بورخس. شدّ قامته وقال له متلعثماً ولكن بعاطفة قوية: "أيها السيد لا

أعـرف مـا اسـمك ولا من تـكون. ولكـن هل يمكن أن تفكّر بالتـرشـيح للرئاسة؟ نحن نحتاج إليك." كان ذلك مطلباً لكنه ظل عنيداً.

مرّةً أخرى تحدّث سينيكا.

twitter @baghdad_library

بصر ضعيف في كمبريدج

"إنني أنظر إلى صور جميلة . لقد منحتني مشهداً لأشياء غرافيكية أجدها مثيرة . أرى غيوماً . أرى غرفاً حمراء ، أقماراً سوداء ، تدور في غبش مخضرّ . إنها ليست حروفاً ، على أية حال . هل يوجد حقاً صفحة تحت هذه الآلة ، أم هل ثمة فيلم صامت لسماوات الفردوس ."

عدنا إلى نيويورك ثانية ونحن نستقلّ تاكسي عبر جسر بروكلين. كان ذلك منتصف الليل. وكنا قد عدنا لتونا من كمبريدج. كنتُ قد رافقتُ بورخس إلى هناك؛ ذلك أن ماريا ظلت ماكثةً في نيويورك. كانت رحلته الأولى منذ سنوات إلى المدينة حيث في عام ١٩٦٨ كان بورخس محاضراً زائراً يشغل كرسي تشارلز إليوت نورتون في جامعة هارفارد. تحدّث عن كمبريدج بكثير من النوستالجيا ورأى فيها المكان الأفضل للإقامة في الماضي مشبهاً إياها بجينف، وراح يخترع أشباهاً لبورخس كانوا يعيشون في هاتين المدينتين، منهم بورخس الشاب الذي راح يتحدث إلى شبيهه قرب أرصفة الحدائق أمام مبنى تشارلز على شاطئ لاك ليمان، وفي مقاهي المدينتين.

مع ذلك، وبالرغم من كل حماسه، شيء ما جعله يرغب إما بالغاء

twitter @baghdad_library

الرحلة أو على الأقل الوصول متأخراً. في نهاية المطاف كان يذهب دائماً إلى مكانه الموعود ولكن ليس بدون احتجاج.

قبيل الظهيرة كنا على وشك أن نستقل القطار ونتجه إلى بوسطن. أنت تشتري البطاقات ونذهب بالطائرة. عندما اقتربنا من الطائرة تمهل بورخس. راح يتحدث عن خوان ماريشال، المؤرخ الإسباني في هارفارد، وعن زوجته سوليتا، ابنة الشاعر الإسباني بيدرو ساليناس. كان خوان صديقاً له، طيباً وشفافاً إلى حدّ المبالغة. وكان مقرراً أن يكون خوان في انتظارنا في (MIT) حيث كنا سنلقي حديثنا. لكن بورخس كان متشوقاً للتحدث عن رؤية ماريشال ثانيةً أكثر من كونه ذاهباً إلى كمبريدج.

"رجلٌ منقبضٌ بشكل حادّ ...،" قال. "قيل لي إنه يبدو كملك انكليزي وبهيئة رصينة كتلك التي نجدها على الطوابع الإنكليزية. لكنَّ ماريشال بالطبع أكثر ذكاءً وصفاءً من هؤلاء الملوك الإنكليز العاديين، ومن نجوم الأفلام العاطفية. إنها لمأساة ولغز في آن ماحدث لابنه ميغيل. أشار خوان إلى ذلك مرات عديدة لكنه لم يضف المزيد. لقد خبرتُ انتحارات أدبية عدة في الإرجنتين. أجل، الكتاب الهرمون يفعلونها عندما يقعون فريسة للمرض أو الغضب، وهناك أيضاً الشبان اليانسون يأساً مؤقتاً. ولكن لماذا بحق السماء قتل ميغيل نفسه؟ هذا غريب بالنسبة لي."

"إنه لأمرٌ غريب حقاً. لقد انتابني هذا الشعور أحياناً، غير أنني لست مرشحاً."

"أنا لستُ خائفاً من الإنتحار، لكنني لستُ بالتأكيد مشدوداً إليه، إلاّ عندما نتكلم بيوي كاساريس وأنا نتكلم ونمارس ألعابنا اللغوية.

هناك المفهوم، وليس الفعل. ذات مساء، ونحن بمزاج جيد، سألنا أنفسنا هل نجربه لنرى مايحدث؟ في الصباح التالي، عندما استيقظت، كان علي أن أفكّر بشكل جادّ فيما إذا كنت قد ارتكبتُ ذلك. ولكن ميغيل. لماذا بحق السماء ...؟"

"لا أعرف يابورخس، لكنني أتذكر سوليتا التي كانت حاملاً بميغيل قبل سنوات عدة. كان ذلك في عام ١٩٤٧ . أمضيتُ اسبوعاً كنتُ في زيارة شقيقها جيم (الذي كان قد ترك الجامعة لتوه) في بيت بيدرو ساليناس في بلتيمور. ورغم أنّ هذا الشاعر الإسباني كان في البلد منذ أكثر من عقد، كان يتحدث القليل من الإنكليزية. ولكن تلك الأمسيات التي سمعته فيها يتحدث عن الشعر والشعراء الإسبان حرفت اهتمامي باتجاه الشعراء الإسبان. في ظهيرة أحد الأيام بانت سوليتا على الباب. أتذكّر وجهها بكل وضوح كما أرى وجهك الآن أمامي. مرعبٌ أن تفكّر بشخص ما تتذكّره كانقباضٍ ممتع في بطن أمه، والذي سيكون لاحقاً طالباً وسيماً متخرجاً يكمل الدكتوراه في اللغويات في جامعة ستانفورد، والذي سيرمي بنفسه لاحقاً عن جسر كاليفورنيا باتجاه الأسفل أمام السيارات القادمة. في إحدى الظهيرات ذهبتُ إلى المقبرة في كمبريدج مع خوان. كانت المقبرة تشبه مزرعة قديمة خاصة في نيو انكلاند. كان يوماً جميلاً، مملوءاً بالهدوء،، وكانت المقبرة، التي هي حديقة أكثر منها مدفناً، مفعمة برائحة الزهور وعبق البراعم. موت ميغيل وضع خوان في المستشفى. كنتُ صغيراً عندما رمى أبي نفسه عن سطح أحد المنازل في كولورادو، لكن لم تتح لي الفرصة أبداً لكي أدفن والدي. يزورني احياناً بانتظام في الأحلام، وكان ذلك في السنة الماضية في الصين، حيث التقينا سراً وبكل غبطة. في مكان مجهول لايعرفه أحد."

twitter @baghdad_library

"بارنستون، أنت تجعلني أفقد الطائرة. يجب أن أشكرك على ذلك وعلى التحدّث كثيراً."

"أنت مهذب جداً، كما يقولون في الصينية. والأسوأ من ذلك، أنت تلقنني دروساً سيئة. افترض أنني أصبحتُ مثلك؟"

"سأقدّم لك تعازيَ المخلصة."

"أما لماذا أقدم ميغيل على الإنتحار، فما بمقدور أحد أن يعرف؟ هل يعرف ميغيل نفسه؟ أتذكّره شخصاً هادئاً جداً يتحلى بنبل وحكمة غير عادية بالنسبة لشاب في ريعان الصبا. ثمة جمال ما يكتنفه. ولكن من ذا الذي رأى تلك الأشباح؟ الأمر الشائع هو أن الإنتحار نتيجة لإكتئاب مرضي أو لتغيير في الدواء أو شيء آخر سخيف يحدث دائماً قبل الفعل. سخيف بالطبع لكن لامرد له."

"لوغينوس قتل نفسه، لكن الدافع كان الإنتقام. كان كاتباً بارزاً. جميعنا كان يجلّه ويرفضه، يقلّده ويتنصّل منه. لوغينوس قتل نفسه لأنه كان يريد أن يقتل أو يجرح صديقاً."

"بورخس، أنتَ أقل الناس ممن عرفتهم تفكيراً بالإنتحار. بالرغم من أنك تتأفف أحياناً من كونك بورخس ومن العيش في هذا العالم الذي هو غالباً ظلام متعب. أنا مستعد لكي أراهن عليك حتى آخر نفَس."

"ستكون أموالك في أمان."

"نستطيع أن نستقلَّ طائرة الساعة الخامسة. وسنمضي وقتاً أقلَّ في كمبريدج."

كان بورخس يحب أن يلعب مع السلطة. لم يكن ليفعل مايُفترض منه أن يفعله ككاتب أو كمواطن. كان ولاؤه للعائلة والأصدقاء. أما

بالنسبة للبقية فكان يمثّل أحد الهراطقة الغنوصيين في سورية أو الإسكندرية. كان يعشق تاريخ الفضيحة وتاريخ فنّ التهكم اللفظي الذي لم يكن أحد قادراً على ممارسته مثل سويفت وفلتير وشو أو كويفيدو. أحبَ صيغة احتقار الناس بالطريقة التي يسمح بها الكلب- "أوه، ياكلب الصحراء،" وهذا احتقار مسجّل في النسخة رقم ١٤٦ من كتاب (ألف ليلة وليلة)، أو مايمكن تسميته "أبجدية الإحتقار." احتقاره الجدي للسلطة يتجلى بشكل صارخ في حكاية شعبية التقطها في جينيف عندما كان يعيش هناك كشاب صغير خلال الحرب العالمية الأولى: "جواب ميغيل سيرفيت للقضاة الذين كانوا قد حكموا عليه بالجلوس على الإسفين: سوف أحترق، لكن هذه ستكون مجرد حادثة. سوف نواصل نقاشنا في الأبدية."

معارضته للسلطة العامة المعاصرة تصادفت مع نخبويته الأدبية والحفنة الشخصية جداً من الكتاب الكبار الذين ينفرد بهم، وفي الصداقة والزواج تجلت اتكاليته على الآخرين بسبب عماه، وفي نفس الوقت حنقه الشديد من أية مساعدة تقيّد حريته. ونحن الذين بقينا أصدقاءً له لعدد من السنين كنا مدركين تماماً نفوره المطلق من أولئك الذين يبالغون في تقديم المساعدة والعون. في عقله ثمة خطّ عصبي يميّز بين التحرر والسجن. عندما كان يشعر بالقيد يقوم على الفور بتحرير نفسه.

أحد أصدقاء بورخس القدامى الذين ساعدوه، ربما أكثر من أي شخص آخر، ليصبح معروفاً على المستوى العالمي من خلال ترجماته الإنكليزية وعقوده السيّالة كان نورمان ثوماس دي جيوفاني. قصة

twitter @baghdad_library

صداقتهما وتعاونهما ولاحقاً تبخّر كلّ رابطة بينهما تعكس طبيعة بورخس المتناقضة وتمثّل نموذجاً للصراع بين الإتكالية والحرية.

حياتي ارتبطت بشكل مبكّر بنورمان أو ديجي كما كان يسمّي نفسه عندئذ. كنتُ طالباً متخرجاً في جامعة ييل وأعيش في هافين الغربية في كوخ بارد بنوافذ مبقّعة بشكل سيء. ذات نهار من عام ١٩٥٦ كان صديقي الشاعر مارك ستراند- وكان عندها رساماً في مدرسة الفنون والهندسة- قد اصطحب معه زميله الطالب في كلية أنتيوك لزيارتي. وما إن عرف دي جيوفاني أنني أنجزتُ ترجمات بحجم كتاب لقصائد الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو حتى استحوذتُ تماماً على اهتمامه. واقترح أن يقوم بتحريرها، وأغراني بأن أضيف لها القوافي واشتغل معي على تنقية الكلمات، وخاصةً وضع حروف العطف وأل التعريف في سياقاتها الصحيحة والتي لم يكن مغرماً بها في تلك الأيام. وانتقل إلى سكني لبضعة أسابيع كيلا يضيع وقته ولكي أبقى في متناول يده. أنا بالتأكيد مدين لمهاراته في التحرير والإغراء. وكان ثمة الكثير من المغامرات المشتركة. لاحقاً، عندما كنتُ أحرر كتاب (فنون اسبانية) لصالح دار نشر ماكميلان طلبتُ منه أن يكون ضيفاً محرراً لعدد من الصفحات المهداة إلى قصائد بورخس. وقد أكمل لي المخطوط ووصلنا إلى انهاء عدد الصفحات المطلوبة للمخطوط قبل أن يفشل الملف بسبب انعدام التمويل. هذه القصائد المحررة لبورخس، ودون أية إضافات، سرعان ماوجدت طريقها إلى كتاب مستقل بعنوان (قصائد مختارة) للشاعر بورخس نشرتها دار ديلاكورت.

في مناسبة أخرى، وفي عام ١٩٦٧ طلب مني خوان ماريشال أن

أنظم أمسية شعرية لبورخس في الإنكليزية والإسبانية في مركز الشعر في مدينة نيويورك. سمع دي جيوفاني بالأمسية وكتب لي عارضاً عليَّ المساعدة. وأقيمت الأمسية في الربيع التالي- وكانت أمسية للذكرى حيث كلَّ قصيدة تبعها تعليق مطول من بورخس. بعد وقت قصير كان نورمان في الإرجنتين مع بورخس. وراحا يعملان معاً كشيطانين لمدة ثلاث سنوات- بل يجب أن أقول جيوفاني اشتغل مع بورخس- يهذّبان ويشذّبان ترجماتهما المتميزة للقصص والقصائد وتلك النصوص من أمثال (كتاب الكائنات المتخيّلة). وحصل دي جيوفاني على أول عقد رفضٍ مغرٍ من دار (نيويوركر) اهتمَ بالحقوق وحصل على امتيازات محترمة لنفسه لقاء ترجماته الإنكليزية. وكان سكرتير بورخس في الإملاء وكتابة الرسائل، فضلاً عن أنه كان رئيس عمله أيضاً. وأقنع بورخس التحضير للمقالة الفريدة التي تمس سيرته الذاتية، والتي ظهرت كخاتمة لكتاب (الألف وقصص أخرى ١٩٣٣-١٩٦٩). سافر كثيراً مع بورخس. كان يمثّل الأخ والعم والإبن وعندما تزوج بورخس حبيبة طفولته بعد أربعين عاماً من الإنتظار، كان دي جيوفاني هناك كخصم يساعد بورخس على فكَ هذا الزواج. وكان أيضاً خصماً لبورخس فيما يتعلق برفيقته الأخرى، والدته ليونور. كلَ هذا كان مباشراً ومعروفاً للجميع. وفجأةً في عام ١٩٧٢ افترقا، عملياً إلى الأبد، بالرغم من أن ثمة لقاء مؤقتاً بينهما في شيكاغو عام ١٩٨٢.

توقفت بشيء من التفصيل لكي أتحدث عن هذا التعاون والصداقة بما أنها تظهر نسقاً. لماذا تداعت هذه العلاقة القيمة؟ لم يكن السبب ببساطة شخصية نورمان. بورخس تحدَث معي مراراً عن نورمان. وكنتُ

twitter @baghdad_library

أصغي بشيء من الإمتعاض. كان بورخس يقول لي: "أنت شاعر، يا بارنستون، دي جيوفاني ببساطة قام بترجمة قصائدي." ولم أفهم ذلك كإطراء لي بل تعبير عن النفور من دي جيوفاني، ناهيك عن أنه حكم غير عادل بما أنّ ترجماته الشعرية والنثرية تُعتبر من قبل الجميع عالية التميّز. كنتُ أدرك أنّ مشاعر بورخس الأقوى تميل إلى حنقٍ مقيمٍ ضدّ دي جيوفاني. لماذا؟ لقد ترجما معاً لمدة ثلاث سنوات وأعادا كتابة الإنكليزية بل رجعا في أحايين كثيرة واختزلا الإسبانية كنتيجة للترجمة الإنكليزية.

في تعليقات أكثر تفاؤلاً كان بورخس يقول لي- وكان غالباً ما يكرر قصصه العجيبة- كيف أطلق على نورمان اسم "ناب".

"ناب؟" قلت.

"أجل، ناب. إشارة إلى نابليون.كان قصير القامة، واستلم مهامه مثل جنرال وكان يصدر لي الأوامر، وكنتُ أحياناً أطيعه. كانت تلك طريقته ومنهجه. هل أخبرتك كيف افترقنا؟"

المرة الأولى التي روى فيها بورخس هذه القصة كانت على مدخل بيته عندما كنا على وشك الخروج في نزهة مسائية. عندئذ، وعلى زاوية بارغوي وقرطبة في شارع مقهى القديس جيمس، وتحت المرايا المزدوجة حيث بورخس وأشباهه يشعّون، راح يكرّر القصة بالكلمات ذاتها.

"في الفترة التي كنت أحاول فيها أن أجد نفسي بعد زواجي الكارثي، اتصل بي دي جيوفاني ذات مساء، ليجعلني أعرف بأنه كان قد استخدم بعض مدخراتي ليؤمّن إيداعاً لشقة يمكن أن نسكنها معاً. في ذلك المساء- كان يوم أحد- في بيوي كيسر قلت لنفسي لقد بلغ

السيل الزبى. كنا نتاول العشاء وبين الحساء والوجبة الرئيسية نهضتُ واتجهتُ إلى الهاتف واتصلت به. قلتُ فقط ثلاث كلمات له: "نورمان، لقد انتهينا." وأقفلتُ السماعة. لم أره ثانيةً. اتخذتُ قراري في الوقت الفاصل بين الحساء والوجبة الرئيسية. بعدئذ عدتُ إلى الطاولة وقلتُ لأدولفو بأنني فسختُ علاقتي مع دي جيوفاني."

"تقصد ..."

"في الوقت الفاصل بين الحساء والوجبة الرئيسية،" كرر قائلاً بعناد. وكان يقهقه.

كان سبب انفصالهما متعلق ببقاء بورخس واستمراره. لقد مُدت له يد المساعدة، بل دعنا نقل عُزِّزت سمعته العالمية بواسطة نورمان ثوماس دي جيوفاني المليء بالحيوية والمغامرة. ولكن في النهاية أدرك بورخس أنه في سجن. لقد تم تكرار النسق، بتنويعات أخرى، مع مخلصين آخرين. هناك حجج معينة دائماً، غير أنّ الشرخ كان مرتبطاً بحاجة بورخس لتحرير نفسه من خدمات واتكاليات وإدارات زائدة.

كان لبورخس أم واحدة وأب واحد، ولا يمكن استبدالهما، على الأقل ليس بشكل دائم. يطرح أمير رودريغيز مونيغال بفصاحة أنّ الرغبة في قتل الأب، وإن كانت مكبوحة، تجري في تضاعيف أعماله وفي وقفته تجاه الماضي. علاوة على ذلك، لدى بورخس حاجة ساخرة للإنغماس بقتل آبائه الأدبيين القريبين. وعلى الرغم من أن مونيغال بارع في تحليله لرغبة بورخس بالتحرر من أبيه، بما في ذلك جميع الذين ساعدوه أكثر من اللازم، لم أسمع شخصياً من فمه سوى مديح غير مكبوح وإجلال واضح لأبيه. كان يعبر عن الشفقة تجاه عمى والده ومديح لمشورته

twitter @baghdad_library

وحكمته. ومهما تكن الأسحلة الأوديبية كامنة في ثنايا المتاهة الداخلية، إلاّ أنَّ تلك السكاكين لم تطفُ أبداً على السطح. وقفته العامة تشي بإشارة واضحة: والده كان الذكر الوحيد غير العسكري من أجداده الذي كان بورخس يحبّ أن يقلده. وغالباً ماكان بورخس يقول بكثير من الولاء العائلي أنه ينوي أن ينهي وينشر رواية والده غير المنتهية. لم ينجز الرواية ولم ينجز أبداً مشروعه في تأليف كتب عن سيليسيوس وسويدنبورغ. ولكن هذا لم يضعف مطلقاً ولاءه تجاه هؤلاء الأبطال. وحيثما يحلّ في شوارع مدينته، متجولاً في أحيائها الضائعة تحت المطر المسائي كان أبوه يعود إليه:

مطر

فجأة الظهيرة صافية وشاحبة
بسبب الضوء، حيث الآن مطر ناعم يهطل.
هطل ويهطل. الرذاذ شيءٌ
يحدث بالتأكيد في الماضي الذي ولّى.
كل من يسمعه يهطل يُطعم من الوقت ثانيةً
حيث الصدفة المحضة تبدأ بتلمس
زهرة اسمها الوردة وتكشف
الجوهر الشيق للون الأحمر.
هذا المطر، بعماء يسوّد الشبابيك،
لابدّ أن يُضيء حياً ضائعاً بقطراته
العالقة على العنب الأسود وعلى الشجرة التي تقسم

إلى نصفين باحةَ دارٍ توارت إلى الأبد.
مساءٌ رطبٌ يسترجع صوتاً، هو الصوت المطلوب:
أبي الذي عاد، لم يمت.

وعلى الرغم من حياةٍ من الكتب المقروءة في ذاكرته كان البحث والقراءات الواسعة ليست بالأمر السهل في تلك السنوات الأخيرة. قال لي مرةً، بمتعة الإستسلام، "أنجز الآن الأشكال الأكثر قصراً، قصائد وقصصاً قصيرة، ولكن ليس المقالات، بما أنها تحتاج إلى نوع من القراءة التي أصبحت صعبة جداً الآن بالنسبة لي." مع ذلك استمرَّ بورخس بنبش مقالات قديمة في محاولة تحريرها وتوسيعها. ونشر كتباً تحتوي محاضراته عن دانتي واستمرَّ بكتابة المقدمات الفريدة، بما في ذلك مقدمة لكتاب يحتوي مقدماته.

وبما أنه كان مهتماً بالذاكرة، لطالما استشهد بورخس بنصيحة والده في الإحتفاظ بذاكرة دقيقة عن الحدث: لاتسترجع ذاكرةً إلى وعي، إذ إنّ هذا قد يغيّر من طبيعة الذاكرة. إنّ التذكّر الثاني سوف يحتوي ليس فقط على الذاكرة الأولى بل على ذاكرة الذاكرة الثانية أيضاً للحدث، وهكذا دواليك، مما يؤدي إلى ضياع الذاكرة الأصلية.كان بورخس أيضاً وفياً لأفراد عائلته من الأحياء، غير أنه في أواخر أيامه كان يشعر بتهديد لرغبته بنوع آخر من الحرية: حرية الاختيار والإلتزام برفيقته الأخيرة، وحلّ عقود من الصداقة مع ماريا كوداما عبر زواجه قرب سرير موته. وكان ذلك ذروة حياة بورخس قرب موته، بل حسب رأيي، أكثر أفعاله نبلاً وأخلاقيةً ورومانسيةً.

twitter @baghdad_library

ولأنه واجه معارضةً مطلقة من عائلته الأرجنتينية، مالية وقانونية، كانت ردة فعل بورخس شبيهه بردود أفعاله تجاه محبّيه الآخرين. غير أن خصومه الآن هم أخته وأقاربه وخادمته فاني، وهي أيضاً كانت جزءاً من الأسرة. وفي الصراع بين الإتكالية والحرية اختار بورخس بشكل حاسم الحرية، والتي عبّر عنها بوضوح في أفعاله، وفي وصيته وتصريحاته العلنية. كان بورخس حراً ثانيةً ومات. لا أملك إلاّ أن أستحضر تلك الكلمات التي كان نيكوس كازنتزاكي قد نقشها على جرفٍ في جزيرة كريت التي اختارها لتكون قبراً لرماده. (لا أريد شيئاً، لا أخاف شيئاً. أنا حرّ.) السلطات البرانية الأخيرة قُهرت. في ذهابه إلى منفىً طوعي في جينيف (بما أنّ الطلاق والزواج غير شرعيين في الإرجنتين الكاثوليكية) تصرّف بورخس بحرية، منتصراً على السلطة، ومختاراً وقفته الخاصّة أمام الموت.

نورمان ثوماس دي جيوفاني عاد ودخل الصورة في قصة بوليسية من قاراتٍ ثلاث. بدأت الحادثة في جامعة تكساس، إحدى أكثر الأماكن المفضلة لشبح بورخس. في عام ١٩٦١ كان قد أمضى فصله الدراسي الأول في جامعة أمريكية. كان الراحل ميغيل انغويدانوس قد التقط صورة خارقة لبورخس ووالدته وهما يقفان وسيمين، متأنقين، مبتسمين مثل زوجين خرجا لتوهما من فيراري ليقفا أمام حجارة صدئة لطلل عتيق. في صيف ١٩٧٧ كنتُ أدرس في أوستن. وكان رئيس عملي مايكل هولكويست، الذي كان وقتها استاذ الأدب المقارن في الجامعة، وصار فيما بعد من أكثر الأصدقاء المحببين إلى نفسي. ذات يوم أخذني هولكويست جانباً وراح يسرّ لي بأمر هامّ.

"أظنّ أنك كنت صديقاً لدي جيوفاني."

"ما الأمر يا مايك؟"

"لقد قُتل في حادث سيارة في اسكتلاندة."

عصرني الحزنُ فجأةً، بما في ذلك حزنُ النقص الذي يشير إليه الموت وهو يعصف بالمرء ندماً.

"من أين حصلت على هذا الخبر؟"

"لا أستطيع أن أقول لك."

"لا أفهم."

"أنا آسف يا ويليس."

بعد اسبوع أو أكثر تطرقنا إلى الموضوع ثانيةً. كان هولكويست أقل انقباضاً لكنه كان مايزال كتوماً. "الأخبار جاءت من بروفسور ارجنتيني في التاريخ. وهي أخبار صحيحة بشكل مطلق."

"من أين سمع بها؟"

"من بورخس."

"سوف أكتبُ إلى بورخس."

احتفظتُ بخبر وفاة نورمان إلى السنة التالية. "ناب" رحل. كأنما وقت قصير مرّ منذ المرة الأولى التي ظهر فيها في ويست هيفن، وانتقل معي إلى سكني وراح يحثني على العمل على شعر ماتشادو. ذات يوم، وتحت هواء ناعم، كان قد أعلن متحدياً: "نعم، ويليس، من يعلم، ذات يوم ربما علقتُ في حبل الزواج، ولكن لن أنجب أطفالاً ابداً."

وكان أن تزوج بعد وقت قصير بريسيلا- أتذكّر مطراً غزيراً أطاح بالعروسين في إحدى نزهاته في بوسطن. كان لديجي قوة ثور. لاحقاً

twitter @baghdad_library

عدل عن قراره في إنجاب الأطفال.

"لماذا لاتريد أطفالاً؟" قلتُ مستهجناً. "ظننتُ أنك تحبّ أليكي حباً جماً."

ابنتي أليكي كانت تحبو، جميلة جداً فوق الرّخام مع بداية الربيع البارد.

"أنا لا أقصد أليكي." قال محتجاً، "هي واحدة من بين مليون، وهي ليست مشمولة."

استعذبتُ حبّه الفظّ لها.

ذكرياتي عن ديجي، ابن بستانيّ فوضوي إيطالي-أمريكي من بوسطن والذي كان قد أعطاه اسمه الإشتراكي نورمان ثوماس.

بعدئذٍ، ولدهشتي الكبيرة بعد عام من مغادرتي تكساس، قرأتُ أن دي جيوفاني قد نشر ترجمة جديدة لبورخس. وافترضت أنها ترجمة صدرت بعد وفاته هي حصيلة تعاونهما معاً. ولكن كلاً، إنه دي جيوفاني الحيّ جداً الذي قام بنشر هذا الكتاب الجديد.

لقد اكتشفتُ مفتاحَ اللغز.

في غضون ذلك عرف بورخس بأن دي جيوفاني مازال حياً، وتنفّس الصعداء. كان قد شعر بانزعاجٍ شديد لدى سماعه أخبار وفاته. وما إن وصلت التلميحات من اسكتلاندة وأوستن والإرجنتين وتمّ تخزينها انقشع الضباب الذي كان يحيط باختفاء نورمان وانبعاثه. والحقّ، أنه أثناء محادثة عابرة مع رجل من أوستن كان بورخس قد صرّح مجازياً بأنه لم يسمع كلمة واحدة من دي جيوفاني منذ سنوات، وكل مايعرفه هو أنه قُتل في حادث سيارة في اسكتلاندة.

وهكذا انتشرت الكلمة. بورخس، مثل بطل الذاكرة لديه فيونس، كان قد نسي تماماً مزحته الملغومة عندما وصلته أخبار موت نورمان بشكل دراماتيكي. القديس بولص بعد إعدامه التاريخي ظهر في زنزانةٍ في روما ليكتب إلى تلامذته (إذا كنا سنصدق أنه هو صاحب الرسائل)، وسنحت الفرصة لكل من مارك توين وإرنست همنغواي قراءة نعوتهما اللتين كُتبتا عن موتهما الكاذب- "لقد كانت أخبار موتي مبالغاً بها بشكل كبير"- علّق توين. كان بورخس- الذي ساعده سوء تأويل الآخرين والهفوة الصغيرة للذاكرة لديه- قد اخترع الموت العنيف لصاحبه القديم نورمان ثوماس دي جيوفاني.

خطونا داخل طائرة الساعة الخامسة المتجهة إلى بوسطن، ووصلنا مدينة الطهرانيين والأكاديميات العظيمة، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في غرفة لتناول العشاء. خوان وسوليتا كانا هناك، مثلما كان ستيفن غيلمان، بروفسور الأدب الإسباني في جامعة هارفارد وصهر الشاعر الإسباني خورخي غولين، بالإضافة إلى مجموعة من المدعوين. عندما ألقيت التحية على ستيفن، والذي لم أكن قد رأيته منذ سنوات، ابتسم وسألني متهماً فيما إذا كنتُ أمارس الآن دور دي جيوفاني في اصطحاب بورخس إلى المحاضرات. غمغمتُ بشيءٍ إليه. وبعيداً عن شعوري بالإضطهاد قليلاً شعرتُ بمحنة ماريا. وكما كانت غالباً تخبرني وتشتكي، كان عليها أن تعاني يومياً تقريباً من الإضطهاد عندما كان الناس الذين يرغبون في التحدث إلى بورخس يؤطرونها بوصفها وسيطاً يجب أن يُمتدح أو يُنتقد، ولكن لا أحد ينظر إليها بشكل طبيعي بوصفها شخصاً مستقلاً.

twitter @baghdad_library

انتهت محاضرة بورخس بشكل جيد، كما دائماً. وبعد انتهاء حديثه الرسمي وحالما اطفأت الميكروفونات، كان ثمة عطلٌ ما- ليس هناك من ماريا تخيط درينا عبر المتاهة. وبدا بورخس مغتبطاً داخل الهرج والمرج حيث كان يصافح الآخرين ويترك توقيعه بحروف صينية سرية على كتبٍ تقتنيها وجوهٌ لامرئية. وكان يحب بشكل خاص تبادل الأفكار مع صديقه جاييم ألازركين الذي كان بورخس قد أمسكه من ذراعه وذهبا معاً إلى غرفة أحد الطلبة ممن يمتلك جهازاً خاصاً للعدسات يمكن أن يكون مفيداً لبورخس. جاييم، الذي كان وقتئذ يدرس في هارفارد، درس القابالا في القدس مع جيرشوم شوليم، أحد المصادر المفضلة لبورخس عن العرفانية اليهودية.

كنتُ قد وافقتُ على اصطحاب بورخس إلى غرفة أحد الطلبة الكوريين، من اجل أن نجرِّب جهازه المصمم على تكبير الصفحة المطبوعة. كان يحدونا املٌ كبير، أو على الأقل كنتُ متفائلاً. وكانت ماتزال عالقةً في ذاكرتي خيبة أمل راهنة في جامعة بلومينغتون عندما فشل مخترعو موشورات العيون الطبية بعمل أي شيء لعيني بورخس على الرغم من أنهم كانوا يأملون بتحسين بصره. كنتُ آمل أنه من خلال مؤامرة بين بورخس والعلم معجزة ما يمكن أن تحدث. الخطوة الأخيرة على طريق الفشل وقعت ذلك المساء في كمبريدج.

الرحلة في حرم الجامعة كانت عجولة بشكل غير اعتيادي لأننا كنا نريدأن نلحق بطائرة منتصف الليل في عودتنا إلى نيويورك. بدت كمبريدج وبوسطن برمتها هناك لتلقي التحية على بورخس، وتمشي معه. في غضون الوقت الذي وصلنا فيه غرفة كيم لو التي تبعد عشر دقائق وبضع كوريدورات ملتوية التفّ حولنا العشرات. استطعتُ بأدب أن أترك

الجمهرة تنتظر خارج الباب فيما كان بورخس يجلس قبالة الآلة. فجأةً كنا وحيدين معاً وهدير الصمت يطغى على ماحولنا. وددتُ لو أنَّ بورخس كان يستطيع أن يقلّد الغنوصي الإسباني حنا المعمدان الذي سمع موسيقا الصمت وتسلق جبل الرؤيا، وهناك، بالقرب من كهف الأسد، نظر من علٍ ليشهدَ الضوء في كلّ مكان.

كان مقدرٌ على رؤيا بورخس أن تظلّ جوّانية مثل آفاقه الحلمية. بكثير من العناية وضع كيم جهازه فوق الكتاب وعدّل من وجه بورخس على العدسات الخاصة التي كانت بديلاً لشبكية كيم المنفصلة.

ردة فعل بورخس الأولى كانت ابتسامة عريضة. قال إنه رأى أشياء رائعة. زعم أنه شعر بسعادة فائقة لما رآه. إنه الآن على قمة باتموس، حيث تسلق بعيداً عن مخدته المصنوعة من حجر في كهف القيامة، وتجاوز أطلال الدير البيزنطي لأيوس جانيس وراح يصف البانوراما. في الحقيقة لم يكن سوى الحلاّق القشتالي سانشو، الذي اعتلى صهوة جواده الخشبي كلافيلينو، إنه سانشو بانزا الممثل السعيد الذي راح يقرأ بصوت عال فانتازيا عقله الخبيث.

"إنني أنظر إلى صور جميلة. إنك منحتني مشهداً لأشياء غرافيكية أجدها مثيرة. أرى غيوماً. أرى غرفاً حمراء، أقماراً سوداء تدور في غبش مخضرّ. إنها ليست حروفاً، على أية حال. هل هناك حقاً صفحة تحت هذه الآلة، أم هل ثمة فيلم صامت عن سماوات الفردوس؟"

بدأت عينا بورخس تضعف بشكل دراماتيكي في منتصف خمسيناته. لكنه استطاع التلاؤم بشكل جيد وكتب عن العمى ورأى نفسه يبدل هوياته، كما هو الحال في نصه (الصانع)، من هوميروس إلى

twitter @baghdad_library

ميلتون، الذي همّ بلمس زوجته الراحلة ليجد فقط الظلّ- كما حدث من قبل لإيناس في العالم السفلي (هيديس) عندما همّ بمعانقة والده. غير أنّ الظلّ ومديحه (في مديح ظلّ) صارا مركزيان في تجربته الشعرية. في كتابه الأخير (المتآمرون) ضمّ قصيدة بعنوان (في عماه) التي استلهم عنوانها من إحدى سوناتات ميلتون التي تحمل العنوان ذاته:

بعد مضي هذه السنين يدور قربي
سديمٌ عنيدٌ ومشعَ
محولاً الأشياء إلى شيءٍ واحد: متاهةً
بلا شكل، بلا لون، هي تقريباً
مجرد فكرة. ليلٌ ونهارٌ أوليان شاسعان
يزدحمان بالبشر، هما ذلك الخسوف من الضوء،
المنذر، الوفي، الذي لايتلاشى،
والذي يمكث منتظراً عند الفجر. أحتاج إلى بصر
لكي أرى أخيراً وجهاً ما. لا أستطيع أن أعرف
موسوعات قديمة وغير مكتشفة، متعة الكتب
التي تستطيع فقط يدي إدراك كنهها،
عصافير في المجرات وأقمار من ذهب.
بالنسبة للآخرين هناك يقبع الكون؛
في ضوئي المشطور: عادةُ شعري.

بالرغم من كلّ هذه التعويضات، يظل العمى أمراً غير مرغوب فيه

لدى بورخس، مثلما هو غير مرغوب لأي شخص كان. وماعدا تلك الشهور القليلة في إيطاليا وسويسرا عندما كانت صحته تتدهور كان عماه يعكس ظلامية إحساسه المتزايد بالعزلة، عزلةُ الأرق الإعتيادي. بورخس قال لي إن بصره يتحسّن. كان طبيبه يعطيه حقنات من الفيتامين ونصحه بأن لايسمح للآخرين بإجراء تجارب على عينيه. في عام ١٩٨٠ عندما كنا معاً في أمريكا اتصلتُ ببوسطن وحددتُ موعداً مع العيادة العينية والأذنية الشهيرة هناك. اتصلتُ ببورخس في واشنطن وكان يمكث في فندقه عند المساء.

"انظر بورخس، أنا قلق جداً."

لقد كان حقاً في أشدّ حالات التوتر. وكان ذلك واضحاً تقريباً في نبرة صوته. أدركتُ عندئذ أنّ كلانا على الهاتف أعمى، بل إنّ بورخس يتفوق علي بتجربته. العمى- أو غيابه- هو أيضاً عادةُ تفكير.

"ماذا جرى بحق السماء؟" سألته.

"تعرف أن بعضاً من أفضل أصدقائي صحفيون. هناك مونيغال، وهناك ..."

"ماذ يعني هذا؟" قاطعته.

"وهناك أيضاً غيرهم ممن يريدون أن يطرحوا أسئلةً، أولئك الذين يسترقون السمع إليّ لكنني لا أستطيع رؤيتهم أو !التأكّد فيما إذا كانوا حقاً صحفيين، أولئك الذين يستشهدون بي، ولطالما اختلطت علي الأمور في تصنيفهم كبشر."

"مالذي جرى اليوم؟"

"كنتُ أحضر مناسبةً رسمية في واشنطن اليوم عندما قدم إلي أحدُ

twitter @baghdad_library

الصحفيين. وعندما رأى أنني من الإرجنتين وكان يعرف شيئاً ما عن الأوبريت الموسيقي (أيفيتا) انبرى وسألني عن رأيي في إيفيتا. لا أقصد العمل الموسيقي ولكن عن العاهرة. أجل، عندما سألوني عن إيفيتا قلتُ إنها كانت عاهرة. وما إن نطقتُ بهذه الكلمة حتى عضضتُ على لساني لأنني كنتُ أعرف أن هذا التصريح سيكون في جميع الصحف في اليوم التالي. ولكن حقيقة الأمر أنها كانت عاهرة، وأنا لا أتحدث هنا بشكل مجازي، ولكن بكل دقة، عن مهنتها قبل أن يحولّها خوان بيرون إلى قدّيسة أرجنتينية ذائعة الصيت."

"أراهن أنَّ الصحف لن تذكر شيئاً من هذا القبيل."

"لم أستطع أن أمنع نفسي." تابع قائلاً. "الكلمات خرجت من فمي قبل أن أدرك ذلك. بالطبع أنت تعرف أن خوان بيرون حاول مرة أن يعيد تسمية مدينتنا الجميلة (لا بلاتا) باسم (إيفيتا) غير ان الإسم الوحيد الذي استطاع أن يختاره كان (لا بلوتا)."

"بورخس، أنا أحاول أن آخذك إلى طبيب عيون وأنت تطلق النكات عن إيفيتا العاهرة."

"يمكننا أن نتدبّر الأمر في بلومينغتون،" قال وكأنه يصل إلى حلّ وسط.

كان هذا بمثابة انتصار؛ في البداية كان مصراً على عدم القيام بأي تحرّك في هذا الإتجاه.

"لماذا تحبّ أن تتمنّع كثيراً؟" سألته ذات يوم.

"لأنني جبانٌ. أنا لا أحبّ الألم الجسدي. اسأل طبيب أسناني."

في إنديانا وبعد مضي عدة أسابيع في زيارتهما الثانية إلى

بلومينغتون، حيث كان بورخس وماريا قد قررا أن يمكثا لمدة شهر هذه المرة، استطعتُ أن أحدد موعداً لبورخس. وكان مقرراً أن يرى طبيباً رائداً يصمّم العدسات لأناسٍ فقدو عملياً بصرهم. وكان للطبيب سمعةُ من يجعلُ الأعمى يبصرُ.

خلال المراحل الأولى للفحص كان بورخس كثير التململ. والذي جعل الأمر أكثر سوءاً أنّ الطبيب المقيم الذي بدأ الفحص السريري كان يتحدث بلهجة ثقيلة من جنوب إنديانا حيث افترض أن بورخس شخص لايفهم، وراح يطلب مني أن أترجم ملاحظاته. بورخس يتحدث إنكليزية متينة جداً على الرغم من أنها، كما يؤكد هو نفسه، انكليزية من القرن التاسع عشر. كان قلقاً أكثر منه سعيداً. ولو أنها كانت مناسبة أخرى لكان سخر من كل هذه المفارقات، بل لكان استحضر مفارقة الفيلسوف زينو عن السلحفاة. ولكن نظراً لشعوره بالضيق اكتفى بالقول لماريا "هلاّ غادرنا؟"

"كلاّ،" أجابت ماريا بهدوء.

كان تأكيد ماريا كافياً. غير أنّ طبيبنا الرائد لم يكن قد حضر بعد. طبيبٌ ثانٍ على أية حال جاء، وأخذ دور الطبيب المقيم بسلطوية عجولة ووصف مشكلة بورخس بأنها انفصال شبكية.لم يكن هناك أية امكانية لإستعادة بصره من خلال عملية ليزرية، غير أنه اقترح أن بورخس يمكن أن يحسن كثيراً من رؤيته من خلال عدسات خاصة. وقمنا بتحديد موعد للإسبوع القادم لرؤية المختصّ الذي سيصمّم العدسات.

مشاكل اجرائية وأحداث مختلفة منعتنا من التقيد بذلك الموعد. اعتبرتُ نفسي مسؤولاً وشعرتُ بضيق شديد. غير أن بورخس اغتبط

twitter @baghdad_library

لتضييع الموعد مثل تلميذ رُفعت عنه المسؤولية وفرّ هارباً. قلتُ له هذا مستخدماً هذه الكلمات عينها. لم ينتقد بورخس استعاراتي المشوشة وغيّر الحديث عن عينيه وانتقل إلى عشقه للكلام الإسكتلاندي.

"انظر، لم يسمح الإسكتلانديون للعصور الأولى من الهرب منهم. الناطقون بالإسكتلاندية تعلقوا بالصّوتيات الجرمانية القديمة، ربما بمساعدة الذاكرة عندما كانوا يتحدّثون اللغة السّلتية. سمعتهم في إدينبره. بحروف الراء ذات الرنين المقعر والحروف الصوتية الأخرى الموقّعة. يبدو الإسكتلندي قريباً من لكنة شكسبير أكثر من أي ممثل على خشبة المسرح في لندن. وعندما يباشر الإسكتلندي بقراءة الإنكليزية القديمة بصوت عالٍ فإن ذلك بحد ذاته مجد ومتعة."

حادثة وحيدة على الأقل كانت قد وقعت في بلومينغتون وضعت على المحك وبرهنت على قيمة الرؤية لدى بورخس وإن كان ذلك قد تمّ عبر العين الثالثة لأفلاطون التي يسميها المخيلة- أو بشكل أدق عبر العين الخرافية للسّيكلوب. في إحدى الظهيرات المتأخّرة جاء بورخس وماريا لتناول الشاي في شقتي حيث كنت أقطن مع زرجتي هيللي فيدرا. في ذلك اليوم رأى كل شيء. وبينما كانوا يهبطون الدرج تحت الدرابزين الأنكلوساكسوني الطويل الذي يميّز البيوت العتيقة، قال بورخس: "أشعر أنني على متن سفينة. ثمة الكثير من الخشب حولي."

تحلقنا حول طاولة من المرمر. قلتُ لهم إنني اشتريت الطاولة منذ عدة سنوات في نيويورك. صاحب المخزن قال لي إنها من مرمر إسباني. قلتُ له من أيّ مكان في إسبانيا، أجاب إنها من "البرتغال".

"أنا مثل المرمر. أنا بورخس من إسبانيا، من إقليم العنب والفلّين

في البرتغال."

ولدت هيللي في برينغيبوس على جزيرة الأمير في (القرن الذهبي) على بعد ساعات قليلة من القسطنطينية. سُميت هيللي لأنها ولدت قرب هيليسبونت، بحر هيللي، حيث كان اسمها قد سقط من فوق ظهر الغيم الذهبي باتجاه البحر فيما كانت تفرّ مع شقيقها فريكسوس من السطوة المعتادة لغيرة الإله زيوس. طرح بورخس عدة أسئلة على هيللي عن اليونان ثم راح يشتكي من تجربته في أثينا.

"كنتُ في أثينا لبضعة أيام فقط غير أن السفير الإسباني ألقى القبض علي ورفض إطلاق سراحي من بين مخالبه. وللعلم، لم أصعد الأكروبولس. ولم تسنح لي الفرصة لرؤية البارثنون."

"بورخس!"

تذكرت صعودي لأول مرة إلى أعالي المدينة الرخامية. كان ذلك عام ١٩٤٩. الحرب الأهلية كانت قد انتهت، ماعدا أجزاء من كريت وقرب ألبانيا. ذهبتُ مع الشاعر الإنكليزي لويس ماكنيس الذي كان قد وصل لتوه إلى اليونان ليرأس المعهد البريطاني. بعد مئات من الأمتار تعثّر ماكنيس- أيرلندي وسيم فارع الطول- بكومة من الأنقاض وسقط على الأرض. اصطدم رأسه بشظية من الرخام، لكنه نهض ومسح الدم عن جبينه بمنديل كان يحمله، نظر إلى دمه وشعر بالسعادة لأنّ دمه امتزج بحجارة الأكروبولس في أول يوم له.

"هل كنت تسمع الموسيقا اليونانية، وخاصة الريبمبيتيكا؟ الرقصة الشعبية للحانات؟" قالت هيللي. "إنها من المنطقة التي ولدت فيها. القسطنطينية، سيميرنا، آسيا الصغرى."

twitter @baghdad_library

"الريمبيتيكا مثل التانغو القديم يرقصها نزلاء الحانات العامة،" قلت. "هناك البطل الشاب، المغامر، غير أن الكلمات في أغاني الحانات الشعبية هذه، وعلى الرغم من أنها تعبر أحياناً عن جرأة ذكية، تمتلك عواطف أوسع وهي أكثر تراجيدية وتجذراً. والإيقاع فيها لايصل إلى ذروة معينة كما هو الحال مع الموسيقا الأوربية. إنه يتدفق، ويستمر إلى مالانهاية."

وضعت هيللي شريط تسجيل. إنه تسيتسانيس. وهي ريمبيتيكا ثقيلة، تمثل الأغنية الشعبية اليونانية. ورقصنا. هيللي راقصة عالية المستوى. كان بورخس يرى كلَّ شيء بعينيه العمياوين. كانت الموسيقا مسكرة وظلت ماريا تردد: "لم يسبق لنا أن رأينا أو سمعنا شيئاً كهذا في اليونان." انضمت إلينا لبعض الوقت عندما جاء دور موسيقا الهاسابيكو، وهي رقصة نقابة الجزارين البيزنطيين. كانت تحديقة بورخس المسترخية مليئة باللذة المتوعّدة. وكان الشاعر قد اعترف بأن الموسيقا (باستثناء القليل من البراهما) هي فنه الأضعف، لكنه في تلك الظهيرة راح يراقبنا لمدة أكثر من ساعة ويستمع إلى أغاني الريمبيتكا. كان للكلمات وقع لغة اسبانية قديمة مألوفة لكنها غير مفهومة، وعيناه المراقبتان أوحيتا وكأنه ثمل تماماً."

بعد مضي عدة سنوات، وفي جينيف، في إحدى قصائده النثرية يستحضر بورخس موسيقا مسموعة من بعيد تنحدر من قمة هضبة: "هذه الليلة، ليس بعيداً عن قمة القديس بيير، موسيقا إغريقية عجيبة مليئة بالمغامرة كشفت لنا لتوها بأن الموت أكثر لاتصديقاً من الحياة، وبأن الروح تستمرّ عندما يكون الجسد فوضى."

عينا بورخس المراقبتان! أما فيما يتعلق بتحسّن الرؤية لديه فكان يعطي الإنطباع بأنه غير مكترث، على الرغم من أنه كان يمتلئ حماساً عندما كان يظن بأنه قد تعرف على شيء لم يكن يستطيع تمييزه سابقاً. لا أستطيع أن أقول لماذا كنتُ قلقاً بل وأشعر بالذنب حيال فقدانه البصر. ناهيك عن أنَ رؤيا الرجل الأعمى كانت محورية في إضفاء الشخصانية العميقة والمشاعر المتأججة على كتبه الأخيرة. كان الإنزياح واضحاً في القصائد من رجل يبصر إلى آخر أعمى يراقب. ومن بين الخصائص الأخرى لرؤيته المتبدلة هو العدد الكبير من الصّور الإنسانية لشخصيات شعرية أخرى- هينه، ويتمان، كيتس، براونينغ، سبينوزا- حيث يتركز اهتمامه على الشخص ككاتب، وبحنانٍ كريستالي.

وبعد تلميحات وآمال واعدة لتحسّنٍ يطرأ على بصره أصبت بخيبة أمل جديدة بعد رفضه في واشنطن أن يرى اختصاصياً من بوسطن، ناهيك عن خيبات أمل أخرى في بلومينغتون وكمبريدج. ولكن سرعان ماكانت تحلّ أفكار جديدة عن بورخس، خاصة ذكاؤه وإنسانيته، وبدأتُ أرى الأشياء من منظارٍ أكثر توازناً. لاأستطيع أن أمنع نفسي من العودة إلى الوراء، وتذكر ما يعتبره البعض تجربةً مهينة، على الرغم من أنني لا أشاطرهم ذلك. كان ذلك قد حدث قبل سنوات قليلة في مطار محلي في بوينس آيرس عندما كنا ننتظر طائرةً متأخرة كانت ستقلنا إلى قرطبة. كان على بورخس أن يذهب إلى تواليت الرجال. كنتُ قد رأيتُه مرةً يسير وحيداً إلى تواليت النساء في المطار. امرأة شابة قادته من يده ودلته على الباب الصحيح. في تواليت الرجال، ولكي ينسى ربما الغايات الأرضية لزيارته، كان يبدو في أحسن حالاته في إجراء الأحاديث.

twitter @baghdad_library

"بارنستون، هل تعرف لماذا كان هينه يحب أن يستقبل ضيوفاً ألمان في شقته في باريس خلال السنوات الأخيرة من حياته عندما كان مقيداً إلى ما يسمى فراش موته؟"

"بصدق، أنا لا أعرف. ربما كان يشتاق الروائح الحلوة العتيقة للطبخ الألماني وكان يريد أن يتبادل أطراف الحديث عن الملوك والنقانق."

"الآن، أنت تعرف أن هينه تعرض لمضايقات مهينة نتيجة كونه يهودياً أو بسبب يهوديته. ومثل الكثيرين من يهود القرن التاسع عشر البارزين كان عليه أن يجرب تحولاً تنكرياً. حدث ذلك لديسارالي وبعضاً منه لماركس ومانديلسون. تذكّر أن مانديلسون كان حفيد ذلك الحاخام الشهير في مسرحية شيللر (ناثان الحكيم)."

"لماذا كان يريد اذن أن يرى السيّاح الألمان؟"

بريق في عينيه كان بمثابة جواب كافٍ.

"لكي يبقى متذكراً لماذا لم يكن لديه أية رغبة على الإطلاق في العودة إلى ألمانيا."

غالباً ماكان بورخس يقول إن شعراءه في جينيف عندما كان مايزال شاباً هما والت ويتمان وهنريك هينه، حيث ان هذا الأخير كان يجسّد بالنسبة له اللغة الألمانية. أثناء فترة مرضه الطويلة في المنفى بعيداً عن ألمانيا كانت وقفة هينه زاهدة في وجه موتٍ لم تكن حتى طيور العندليب في شعره قادرة على أن تنقذه منه:

باريس، ١٨٥٦

السجود الطويل جعله معتاداً

على انتظار موته. خوفه الملموس
يعني الذهاب خارج البيت إلى هلوسة
النهار سائراً مع الأصدقاء. منهوباً
يفكّر هنريك هينه بنهر الوقت
الذي يجري ببطء بعيداً إلى
شبه الظلّ المقيم ذاك وإلى المصير
المرير في كونه إنساناً ويهودياً.
يفكّر بالألحان الفائقة التي كان
آلةً لها، مع ذلك يعرف
بأنّ العزف لايأتي من الأشجار أو العصافير
بل من الوقت ومن أوهام النهار النحيلة.
مع ذلك فإن طيور العندليب لن تنقذه، كلاً،
ولا الليالي التي من ذهب، ولا ورود الكلمات المغنّاة.

كان بورخس في حالة عشق مع اللغة الألمانية- ولديه قصيدة ممتازة عن اللغة الألمانية- ومع شعرائها وفلاسفتها. عندما ظهر في ألمانيا كان معروفاً إلى درجة أنه صار بطلاً شعبياً. كان يزعم أنه قد أحبّ الأدب الألماني وهجر الكتاب الفرنسيين، وخاصةً بودلير.

كنتُ دائماً أتضايق عندما كان يتحدث عن كرهه للكتاب الفرنسيين أو الإسبان (لم يكن ذلك صحيحاً فيما يتعلق بالإسبان، بدءاً من بطله سرفانتس) على الرغم من أنني لن أقدر أبداً التأكّد من تلك الآراء.

twitter @baghdad_library

ويكفي أن نقول بأن بورخس كان يربط سخريته من بودلير بقراءات متميزة من قصائده الهامة، وكلّ قصيدة كانت تبدو ساحرة إذا أخذنا بعين الإعتبار صوت بورخس الخاصّ وتعامله مع القافية، ناهيك عن تجويداته الرزينة.

ولكن فيما يتعلق باليهودي ومقارنته بالألماني فكان لبورخس تفضيلاته. كان غالباً يقول بأن الألمان فعلوا خيراً في الإبقاء على لهجتم الجرمانية المشتقة من اليبدية (Yiddish)، اللغة الأصل الأكثر تلوناً وغنىً. كان كافكا نموذجه الأرفع للنثر الفانتازي، مثلما كان ويتمان بالنسبة للطاقة التي يختزنها شعره المتنوع في مواضيعه والخصب في إحالاته. وبكثير من الإفصاح والحكمة والعلوّ تتنبّأ مقالته العبقرية المعنونة (كافكا وأسلافه) بالتناصّ والقراءة الضالة ونظرية استجابة القارئ. وكان يمكن أن تعنون ب (بورخس وأسلافه) حيث يمثّل كافكا الإبتكار الأدبي لبورخس.

هناك كنا إذن، كلانا يقف بجانب المبولة نتناقش في هينه (والذي كان قد تعلم بورخس قراءته بواسطة القاموس في بداية عشرينياته كوسيلة لتعلم الألمانية) ونتناقش في اللغة الألمانية ذاتها وكافكا. عندما انتهى بورخس من أداء واجبه واقفاً بجانب الجدار الرخامي لاحظتُ بأنّ حذاءه مبلّل بالبول.

أبدى بورخس ملاحظة قائلاً: "هل تعلم، الآن أستطيع أن أحلّ بعضاً من هذه المربعات. لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك قبل سنوات قليلة."

وراح يتلمس بأصابعه خطوط الرخام مقرباً وجهه من الحائط فوق مصافي البول.

"أستطيع أن أتعرّف على اللون."

"ماهو لونه؟"

"أصفر على ما أظنّ. أجل إنه الأصفر."

لم أستطع أن أجعل الشاعر يخرج من هناك وقدماه مبللتان بالبول.

"بورخس، المعذرة، حذاؤك ملطّخ بالوحل. دائماً يرافقك بوهيميّ متهتّك هو بمثابة شبيهك السرّي." تناولت مناشف ورقية وجفّفتُ حذاءه.

"أتدري، أحب أن أسير في الأحياء القذرة. أستطيع أن اتنفّس حين أسير في الأحياء القذرة."

كلما كان بورخس يتحدث عن الحارات الفقيرة أتذكّر نصاً مبكراً له عن مدينة باليرو في بوينس آيرس حيث ورد في سيرته عن إيفاريستو كاريبجو. ينتهي الكتاب بوصف للحيّ الإيطالي القاسي أيام طفولته: "حتى بوينس آيرس عميقة بشكل لايُدرك كنهه ولم يسبق أن أسلمتُ نفسي إلى شوارعها، ومهما تكن خيبات الأمل كبيرة أو يكون الألم، إلاّ أنني كنتُ أتلقّى عزاءً مفاجئاً- حيناً شعوراً باللاواقع، وحيناً آخر بغيتار في باحةٍ مخبوءة، الآن بفرشاة مع حيوات أخرى. هنا وفقط هنا ساعدتني انكلترا (يقول براونينغ) هنا وهنا فقط أتت بوينس آيرس لمساعدتي."

على الرغم من أن بورخس كان قد قبل بحالة العتم ودون أيّ أمل بتبدل راديكالي، لكنه كان يحبّ أن يهرّج حول بصره، كما هو الحال مع أشياء أخرى كثيرة. ذات مساء وفي إحدى المدرجات الصغيرة في بوينس آيرس حيث كان مقرراً أن يلقي محاضرةً احتجّ بغرابة انه لايستطيع أن يرى بشكل جيّد.

"حسنٌ، إذا كنتَ لاتستطيع، خذ نظارتيّ." اقترحتُ.

ناولته عدساتي ذات الإطار المذهّب والتي ارتداها طوال ذاك المساء.

twitter @baghdad_library

أعطى محاضرته ولاحقاً راح يوقّع الكتب وهو يرتديها. صورةٌ وهو يرتدي تلك النظارات أعيد نشرها مرات ومرات. في ذاك المساء جرّب نظارة كلّ مدعو على الطاولة، الواحدة تلو الأخرى. وكلما جرّب واحدة كان يذيع فضائلها وعيوبها ويصف رؤاه الغرائبية مع كلّ منها على حدة. لم يكن يفوّت أية فرصة لكي يمتّع نفسه.

عندما عدنا أدراجنا في رحلة طويلة بالسيارة عبر حارات بوينس آيرس الشعبية، رحتُ أراقب ليل ديسمبر الصيفي حيث غالباً ما تغص الشوارع بالمارة رغم الساعة المتأخّرة، أما الآن فكانت شبه مهجورة بسبب زخات مفاجئة من المطر. ظننت أن المناوشات في المدينة بين البوليس والمتمردين كانت متوقفة بسبب الطقس. ثمة شيء يأخذ باللب أثناء التحديق بمطر المدينة بعد منتصف الليل حيث أنتَ في سيارةٍ مسرعةٍ تنهب الشوارعَ التي سرعان ماتتوارى.

"بورخس، ماذا يجول في خاطرك الآن حيث أنك في هذا المساء استعدتَ بصركَ؟"

"بصري. كان لوالت ويتمان بصراً ولقد كان دائماً محطّ إعجابي بسبب ذلك. أقصد ذاك الذي ابتكر قلم والت ويتمان. لقد تعلمتُ ماهو الشعر الحديث منه وقصيدته "الليلك" عن الرئيس لينكولن لاتُضاهى. قصيدة (عندما أزهرَ اللّيلكُ لآخر مرة في باحة الدار) - ربما كانت أعظم مرثية في اللغة الإنكليزية. أما بالنسبة لويتمان الفاشل الذي لم يستطع أن يثبت في عمل واحد والذي كان ربما أكثر لاسعادةً منه بطوليةً: فأنا أتعاطف معه أيضاً، بل وأشعر بالقرب منه أكثر. ربما لا أستطيع أن أتعلم ماهو الشعر من والت ويتمان. مع ذلك إذا كنتُ أستحقّ هذا

الويتمان الفاشل، هذا الأخرق الأدبي، فسوف أتعلم من نقاط الضعف التي نتشارك بها معاً، ومن إحساسنا بفقدان الطمأنينة، من تلميحاتنا الشفّافة التي تعكس غرورنا الصغير الذي نخفيه في الفنّ. سوف أتعلّم من هذا المعلّم للإنسانية بأسرها."

تذكّرتُ قصيدة بورخس عن ويتمان. إنها تصور الشاعر العجوز، مثل بورخس، يملؤ المرآة بتحديقته ويعاني رؤيته الحائرة بكل شجاعة، كاشفاً بالتالي أنّ والتر مايزال يحاول أن يكون والت:

كامدن، ١٨٩٢

رائحة القهوة والجرائد.
الأحد ورتابته. الصباح
بعض الأشعار المجازية تطرّز
الصفحة التي يحدّق بها، البحور الشعرية العبثية
لزميلٍ راض. الرجل العجوز يستلقي
ممدداً أبيض في حجرته المحترمة
غرفة الرجل الفقير. بعدئذٍ بكسل
يملؤ المرآة المتعبة بتحديقته. عيناه
تريان وجهاً. غير مندهشٍ يفكّر: ذاك الوجه
هو أنا. بيدٍ متلمّسة يمدّ ذراعه
لكي يلمس اللحية الكثّة والفم المنهوب.
النهاية ليست بعيدة جداً. صوته يعلن:
أنا رحلتُ تقريباً مع ذلك فإنَ أشعاري تتفحّص
الحياة وبهاءها. لقد كنتُ والت ويتمان.

twitter @baghdad_library

"حسنً، أعتقد أنني سألتك عن بصركَ المستعاد ، وأنت تحدثني عن ويتمان. شكراً لك."

"ولكن لماذا ليس ويتمان؟ إنني لاأستحقّ هذا العملاق الطبيعي- بل أنا لاأستحق أولئك الشعراء، الشعراء الحقيقيين الذين أقرؤهم وأعيدُ قراءتهم. كم سيكون الأدب المعاصر مختلفاً لو لم تمنح أمريكا للعالم أعمال هذا الرجل الوحيد من بروكلين. ولكن، انظر هنا بارنستون، لقد شردتُ كما هي عادتي. سألتني سؤالاً جوهرياً حول الرؤية، على الرغم من أنك بالطبع كنتَ تلعب بكلمة "رؤية" وفي خلدك معنى مبهم ومستحيل وفي نفس الوقت تشير إلى عينيّ التعيستين. غير أنني أملك جواباً لكل منحىً من سؤالك، وهو جواب قصير وجميل: أنا باستمرار حائرٌ تجاه الأشياء."

"تستطيع أن تستخدم تلك اللازمة كجوابٍ لأي سؤال."

"ربما أستطيع بل ويجب أن أفعل ذلك. ثمة شيء مؤكّد حول الحيرة، أليس كذلك؟ إذ إنها تفتح الطريق أمام المعرفة وفي نفس الوقت تلغي الوصول. ربما كان بودلير محقاً تماماً- الشاعر الذي تحبّ والذي أراه عظيماً- عندما كتب ضدّ فكرة الوصول في قصيدته الرائعة عن غموض الخسارة. في هذه اللحظة خطر لي أنني منذ أمد طويل كنتُ مجحفاً بحق شاعر المدينة هذا الذي عانى بعمق، ذلك أننا نتقاطع معاً في عادة استخدام القوافي الواضحة والتافهة إلى مالانهاية."

لقاء خاطف في نيويورك

"أعتقد أنك تخترعني يابورخس ."

"لا ، أنت الذي تخترعني . غير أن ذلك هدرٌ للوقت ، إذ بما أنني اخترعتُ ذاتي فأنا بالضرورة أعدتُ تفكيك ذلك الشخص الذي اخترعته والذي يدعى بورخس . إنها لطمأنينة أن أتحرر منه ، ولكن لسوء الحظ أنا دائماً أنسى ، وها أنا ذا ثانيةً ، أعيد لعب بورخس في شيكاغو ، ونيويورك وبوينس آيرس ."

كان قد تقرر أن يلقي بورخس محاضرة رئيسية عن فرانز كافكا في ملتقى عام ١٩٨٣ لمعهد اللغات الحديثة في نيويورك. وكان من المقرر أن يصطحبه من الإرجنتين كارلوس كورتينيز، الذي كان قد أمضى في بوينس آيرس عاماً كاملاً للعمل معه، غير أن علاقتهما كانت قد تداعت لتوها في تلك الآونة. وقام بتقديمه بدلاً من كورتينيز ألستر ريد. كانت محاضرة مؤثرة. بعد قراءتنا لبورخس، تتغير قراءتنا لكافكا بشكل جوهري- إذا أردنا أن نبدّل عبارة قالها بورخس في معرض تعليقه النقدي.

في محاضرته "كافكا وأسلافه" يرى بورخس بأن "كلّ كاتبٍ يخلق سلفه. إذ عمله يبدّل من مفهومنا للماضي مثلما يبدّل المستقبل." ثمّ

twitter @baghdad_library

يقول متابعاً: "إن قصيدة روبرت براونينغ (خوف وهواجس) تشبه نبوءة في إحدى قصص كافكا، غير أن قراءتنا لكافكا تبدّل وتطهّر من قراءتنا للقصيدة." في الواقع، كان كافكا أكثر من أي كاتب آخر قد سيطر على اسلوب ولغة وروح بورخس. كان النموذج البدئي الأول الذي لم يستطع بورخس أن يتحرر منه تماماً. ترجم كافكا أعمال "الدكتور فرانز كافكا" مثلما أوصى أهله على شاهدة قبرٍ أشيدت مبكراً في براغ. والحقّ أن بورخس ترجم الطبعة الأولى من أعمال كافكا إلى الإسبانية في عام ١٩٣٨. يشير أمير رودريغيس مونيغال أن بورخس نشر (التحوّلات) في الإسبانية قبل بضعة شهور فقط من البدء بكتابه (بيير مينارد) وقبل ثلاث سنوات من (الحديقة والدروب المتشعّبة) عام ١٩٤١ والتي تمثّل مجموعته الأولى في القصّ الفانتازيّ. لقد منح كافكا بورخس الباعثَ العام للإنتقال من الشعر إلى القصة القصيرة الخارقة.

الآن، إنّ تتبع صيغته الخاصة في محاضرته (كافكا وأسلافه) استطاع بورخس في عصر انجازاته أن يخترع كافكا من خلال نفسه. كانت المحاضرة تغصّ بالحضور. وكان ذلك آخر ظهور لبورخس في أمريكا أمام حشد ضخم. بعد الحديث، ذهبتُ لمرافقته. لم أكن قد رأيته لسنوات، وكنت قد افتقدته كثيراً في مدريد. الآن انا أمشي معه. إنني امسك بذراعه.

"أنا ويليس."

"أوه، كيف حالك يا بارنستون؟"

"أين هي ماريا؟"

"لقد سمعت كلامي مراراً وتكراراً. إنها تعبة منه مثلما أنا تعب

منه. إنها في الطابق العلوي في شقتها في الفندق تنتظرني كي أنهي محاضرتي. سألتك في شيكاغو لماذا أستمرّ في القيام بهذا النوع من العمل. كما ترى، أنا مازلتُ أقوم به. هل تتذكّر في السيارة عندما كنت تتحدث لي ولم تكن تعير انتباهاً للطريق؟ كنتُ أعلم انك لم تكن تنظر إلى الطريق لأنك كنت تكلمني وتنظر إليّ طوال الوقت."

"أنت تعرفني."

"لا أستطيع أن أقول إنني أعرف نفسي لكنني أزعم أنني أصبحت ضليعاً بعض الشيء بهذا الشاعر الإغريقي من إنديانا."

اعترفتُ بشيء من الضيق قائلاً: "الأصدقاء يحذرونني أن لا أنظر إلى الناس وأنا أقود السيارة، خاصةً إذا كانوا يجلسون في المقعد الخلفي. ويصرخون في وجهي أن لا أنظر في القصائد التي أضعها على المقعد أو أمامي وراء زجاج الواجهة. هذا صحيح، كان أمراً هائلاً أننا لم نتسبّب بحادث."

"لوحدث ذلك لكان نوعاً من الحلّ."

"أنت ميتافيزيقي جداً فيما يتعلق بسلامتك. ولكن، كما دائماً، ينقذك واقع آخر."

"الواقع الآخر دائماً على الجانب الآخر. قريباً سأكون على الجانب الآخر." قالها بحزن ولكن بلمسة من الحذلقة والتهكّم.

"لن تستطيع أن تفعل ذلك على أية حال. لاتستطيع أن تصل إلى هناك لأن لديك الكثير من الكتب هنا، ولديك الكثير من القراء المنكبّين الذين لن يدعوها تختفي. هذه الكتب ثقيلة وسوف تجرك إلى الوراء. لن تهرب أبداً."

twitter @baghdad_library

"لكنني شخصياً كنت ومازلتُ أحاول الهروب من تلك القمامة طوال حياتي! قمامة! حسنُ- دعنا نقول تمارين. لايوجد كتاب من هذه الكتب كما تعلم في بيتي، ولم يسبق لي أن أعدتُ قراءة أيٍ منها."

"بالطبع. تمتلك ذائقة جيدة. لماذا تلطّخ حقيبتك بكتابات ذاك اليهودي البرتغالي المغمور الذي يقبع في أسفل العالم؟ هل يمكنك أن تتخيّل ماذا يمكن أن يفكر أي شخص إذا أتى على كتاب لبورخس موضوع قرب كتاب لصاموئيل جونسون؟ أشكرك على حصافتك."

"بدأتَ تتحدّث مثلي. وبدأتُ أضيع، أوربما صرت بلا سلاح. بالمناسبة كيف حال حوتك؟" سألني بابتسامة كبيرة.

"تقصد زهرتي؟"

"أجل، الزهرة، والتي أظنّ أنها ليست في الجحيم بل في مكان ما هنا، ربما في الجهة الأخرى من الشارع هناك، تتأرجح في أصيص صغير قبالة محلّ لبيع الزهور. ربما كان الجحيم بعد إشارة المرور، على بعد شارعين إلى اليسار."

"أعتقد أنك تخترعني، بورخس."

"لا، أنت الذي تخترعني، غير أن ذلك هدرٌ للوقت، إذ بما أنني اخترعتُ ذاتي، فأنا بالضرورة أعدتُ تفكيك ذلك الشخص الذي اخترعته والذي يدعى بورخس. إنها لطمأنينة أن أتحرر منه، ولكن لسوء الحظ أنا دائماً أنسى، وهكذا، ها أنا ذا ثانيةً، أعيد لعب بورخس في شيكاغو ونيويورك وبوينس آيرس."

"أنت رهين شخصية الكاتب الذي يحبّ أن يلقّن، وشخصية الحكيم الوقور الذي يحبّ التحدّث عن الدائرة وعن مركزها الموجود في كلّ مكان. كلاهما يحيل إلى الإسم بورخس. هذه البورخسات المتعددة

تفكك الماضي وتعدّل بشيء من الشذوذ المستقبل." قلتُ متحذلقاً.

"بشيء من الشذوذ أعدّل المستقبل؟ بارنستون، لماذا تحاول أن تضغط عليّ؟ أنت تصرّ على تناولي بشكل جدي، وأشكرك على ذلك، لكنني لا أستطيع أن أتماشى مع رغباتك. لن أخلّف أيَ شيء، أقول لك، حتى اسمي."

نطق جملته الأخيرة بكثير من المتعة التي يشوبها التردّد والكبرياء. لم أصدقه بالطبع على الأقل فيما يتعلق بالمعنى السطحي لكلماته، غير أنني فهمتُ بالضبط وقفته المتماسكة. بورخس يرفض أن يقع في فخّ بورخس الكاتب.

وتابع قائلاً: "ربما استطاعت عبارة كتبتها والتي لاتحمل اسمي أن تدخل وتستمرّ لبعض الوقت في اللغة الإسبانية."

"آمل أن تستطيع على الأقل إدخال عبارة واحدة إلى مكتبة المستقبل، مثل تلك العبارة في طفولتك عندما تتحدث عن نفسك في الجنّة وأنت في مكتبة والدك."

"لو أنني فقط أستحقّ مكتبة والدي."

"من يعلم، بورخس؟ ربما بعض الناس الأغبياء في المستقبل يمكن أن ينخدعوا بك، ولن يعرفوك على الإطلاق، فتتسلّ بشكل أو بآخر كغريب، من أجل عبارة أو اثنتين."

"عندها لابدّ أن أشعر بالخجل لإفساد مكتبة أبي العظيمة."

"سوف أستخدم كلمة أنكلو-ساكسونية جيدة، كلمة استخدمتها مؤخراً لتصف فعل الكتابة، إنّ تواضعك يجعلني أغضب."

"ولكن لماذا تدافع عني دائماً؟"

twitter @baghdad_library

"إنها غلطتك. أنت تحرّضني."

"أنت مخطئ. تعرف ذلك. دعني أقول إنها ذائقتك الفضولية. أنت مخطئ في الدفاع عني مثل جميع الآخرين الذين انخدعوا بمظهر الرّصانة والتعقيد الباروكي في كتاباتي الأولى التي تسبب لي الإحراج. أود أن أذهب إلى كل المكتبات التي تحتفظ بنسخ من هذه الكتب وأشتري جميع النسخ التي يمكن أن تكون متوفرة على الرفوف، وأتبرع بها إلى إحدى مشاريع الحفظ والتعليب. أقصد إعادة صنعها. أجل- إعادة صنعها، من يعلم كيف سأبدو عندئذ؟ ربما كان ذلك مجرد إضافة بعض التحسينات."

"من فضلك وفّر بعض القصائد. بعض القصائد فقط."

"إذا أردت الحقيقة، أعترف بأنك تهتمّ لأمر القصائد والتي كما تعلم لايأخذها أصدقائي المقربون في الإرجنتين على محمل الجدّ ويعتقدون بأنها هدرٌ للوقت وعبث. على أية حال، أعتقد بأنه يجب أن أشكرك على رغبتك بأن تستمرَ صفحاتي الرديئة على قيد الحياة. ولكن أبي في أحسن حالاته لن يقبل بذلك. كان رجلاً حصيفاً بجيد التمييز."

"أنا أستسلم يا بورخس."

"تقصد أني انتصرتُ عليك؟ هل رأيت الضوء؟ وأنا داخله أبدو شاحباً جداً، هرماً وشفافاً تماماً."

"أجل هذا صحيح. أنت تمثّل فشلاً ذريعاً. هذا واضح من من جمهرة القراء المنخدعين الذين يتركون كتبك دون قراءة، والذين يقذفونك بالشتائم وأنت تسير في الشارع، ومن كلماتك الغامضة التي تلفظها

حول الاختفاء الوشيك لكتابات خورخي لويس بورخس."

"آمين. أنا مطمئن ومتصالح مع نفسي."

في تلك الآونة كنا قد وصلنا إلى نهاية مشوارنا القصير والأخير.

"هل هناك أي شيء تريده أو تريدني أن أقوم به قبل أن تغادر البلدة؟"

"يجب أن نقدم ديكاً لأسكليبس."

"وداعاً بورخس. آسف لأنني لم أستطع أن أرى ماريا اليوم. وداعاً وشكراً لربطة العنق الجميلة التي قدمتها لي عندما التقينا آخر مرة."

"كانت من اختيار ماريا. وداعاً ويليس."

وتعانقنا.

وكنا قد اتفقنا أن أتحدّث إليه في السنة التالية عبر الهاتف من الصين. ولكن هذه ستكون المرّة الأخيرة التي أراه فيها، والمرة الأخيرة التي أمسكه من ذراعه، وأشعر به يمسكني من ذراعي على هذا الكوكب، سواء أكان المكان يدعى الجحيم، الوردة، أم شقته في لاكول دي مايبو."

twitter @baghdad_library

في الصين

twitter @baghdad_library

مع بورخس في الجبل الجنوبي العميق

"بالطبع أريد أن آتي إلى الصين :" قال بورخس بحماس على الهاتف . "هل تظنّ أنني لا أريد الذهاب إلى الصين؟ هل تظنني مجنوناً؟ هل تظنّ أنني لم أقرأ آي تشنغ وتاو تي تيشنغ و (حلم الحجرة الحمراء)؟ هل تظنّ أنني لا أعرف الكتب التاوية والبوذية المقدّسة أو (سور الصين العظيم) لكافكا ، أو أفعال ابن السماء شيه هوانغ تي ، حارق الكتب؟ هل تتخيل أنني لم أدرس المتاهة اللامتناهية لقصر الإمبراطور الأصفر؟"

آخر محادثةٍ بيننا كانت من الصين إلى بوينس آيرس. كانت محادثة مباشرة، مثقفة ومعقدة، يتخلّلها خيط من الرموز الإرتكاسية. كنتُ أتصل به إلى شقته في شارع مايبو من غرفتي في فندق الصّداقة.

تكلمتُ أولاً إلى فاني خادمته الهندية التي كانت تطبخ له وتسوّي له ربطة عنقه وتمشّط شعره لعدة عقود. كان بورخس فخوراً بحكمة فاني الطبيعية كونها نسخة شعرية عن الظواهر الطبيعية.كان يلتقط عبارات وحكماً من سائقي التاكسي والخدم والموظفين العاديين بنفس الطريقة التي كان يغرف فيها من صامونيل جونسون وأوسكار وايلد. وعلى الرغم من أن فاني كانت تتحدث الغورانية بطلاقة مع أطفالها وأحفادها

twitter @baghdad_library

إلا أنها لم تكن أبداً تترجم من لغة إلى لغة. بالنسبة لها الترجمة لا وجود لها، قال بورخس. هناك القمر والشمس في الغورانية ومثلها في الإسبانية وهذه جميعها جزء من لغة موسّعة واحدة.

ذات يوم كان بورخس يمتلئ غبطةً حيال آخر استبصارات فاني اللاهوتية. في ذلك الصباح سألته فيما إذا كان اليابانيون قد اخترعوا الله.

"ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟" قال بورخس.

"اعتقدتُ أن اليابانيين يمكن أن يكونوا قد اخترعوا الله بما أنني أعرف انهم قد اخترعوا الزهور." كان جوابها.

كانت فاني حميمية معي دائماً وكأنني أحد أقرباء بورخس. الصين ليست اليابان لكنني قلت لها، "أنا ويليس، وأنا في الصين. الصين. هذا صحيح. نعم الصين. هل بورخس موجود؟"

بعد تبادل التحيات والحديث عن صحة بورخس ونظامه الغذائي وعادات نومه، قالت: "لابد أنك تتحدث من مكان بعيد. سأعطيك إياه قبل أن نفقدك." ووضعته على الهاتف.

"مرحبا،" قال بورخس، صوته المرنان يعلو نموذجياً متحولاً إلى سؤال.

"بورخس، أنا ويليس، إنني أتكلم من الصين."

كنتُ دائماً أنادي نفسي ويليس، غير أن بورخس كان معتاداً على مناداتي ومناداة جميع الأصدقاء بأسمائهم الأخيرة، في حين كان يتوقع منا أن نناديه ببساطة بورخس. "ليس السينيور بورخس- هذا معقّد وانكليزي جداً، مثل السيد بورخس" كان يقول. عندما كان يتحدث عني

للآخرين، وفي حضوري على أية حال، كان يستخدم اسمي الأول. كانت اشارة مشيرة من المحبة، واضحة في صوته، ولكن بالطبع عندما كنا نخاطب بعضنا البعض وجهاً لوجه كان يجب أن نستخدم بارنستون وبورخس. كلماته الأخيرة لي في نيويورك كانت "وداعاً، بارنستون."

كان بورخس مسحوراً بتاريخ الكلمات والأسماء. كان يزعم بأن خورخي لويس بورخس اسماً مستحيلاً، اسماً بالكاد يستطيع هو نفسه لفظه، وكان يجوِّد اسمه بطريقة ازدرائية قائلاً: "خورخ لويس بورخس." في اللغة الإسبانية الكلمة الوحيدة التي كانت تناسب قافية (Borges) هي (Forges) وهي اسم الفاعل الثاني من كلمة (forjar) وتعني "أن تزيِّف".

"كلاّ،" قلتُ له يوماً، "اسمك يتضمَّن قافية مخبوءة في خورخي وبورخس. وإذا أضفنا خورخي مع شبيهك، بورخس الآخر، سنخرج ببورخسين، وبقافية تامة، خورخس وبورخس. بل لنضعها بشكل أفضل، إذا أخذناك إلى كوبا أو الأندلس حيث يبلعون حرف (s) من أواخر الكلمات، ستكون القافية تامة أيضاً: خورخي لوي بورخي. ولكنني أعتقد أن اسمك مستحيل لأن له وقع قصيدة قصيرة رديئة."

"اسمي خروجٌ سافر عن الوزن الشعري، يمكنك أن تقول." قال ذلك بضحكة خفيفة سرعان ما ارتفعتْ بحزم إلى قهقهة وإلى لوثة من ازدراء الذات.

كان لنا نقاشات عديدة حول القافية. في إحدى المساءات قال لي بصوت مبطَّن بالسخرية، بأنه يريد أن يطلعني على سرّ: "عندما أكون قلقاً أبحث عن قافية لقصيدة، كنتُ أتسكّع باتجاه الحمّام. وحالما أقف

twitter @baghdad_library

هناك وأهزّ يد "الأسقف" تأتي القافية لوحدها. غريب، أليس كذلك؟"

قاطعنا عامل السنترال الصيني ليتأكّد من سلامة الإتصال.

"هذا ويليس،" ردَدتُ.

"بارنستون، (وردةٌ في الجحيم)،" قال متعرّفاً على الصوت.

كان بورخس يحبّ أن يضيف نعوتاً لأسماء الأشخاص. وهكذا، كان قد اعتاد بشكل قطعي أن يقول هيراقليطس الغامض، سبينوزا طاحن العدسات، إزرا باوند الخدعة، وإليوت الشاعر الجيد والناقد المليء بالحشو، وروبرت فروست الشاعر الممتاز والمزارع المرعب، وويليام بتلر ييتس البحر الباروكي الممزّق بالألم. كنتُ سعيداً بخصوص النعت الذي ابتكره لي "وردة في الجحيم" بما أن له قصّة أدبية معقّدة.

في عام ١٩٧٧ كنت أقرأ قصائد جديدة لبورخس. في إحدى السوناتات وجدت عبارة (ملاكٌ في الجحيم). وهذا ما أوحى لي بفكرة لسوناتة بعنوان "وردة في الجحيم" والتي أرسلتها إليه في بوينس آيرس من إنديانا، وقد ذكرتُ بأنني استلهمت العنوان من قصيدته. بعد اسبوع اتصلت به وقال لي ببعض المديح المعتاد أن لا أقلق بشأن الإقتباس بما أن "وردة في الجحيم" أفضل بكثير من "ملاك في الجحيم" وهي عبارته الخاصة التي تصف إبليس. إضافة إلى ذلك، قال إنّ "وردتي" أوحت له بفكرة قصيدة جديدة.

لاحقاً (وقبل أن أبدّل رأيي) "وردة في الجحيم" أصبحت عنواناً لكتاب كتب له بورخس تقديماً مبالغاً به حين قال :" ثلاثة من أفضل الأشياء في أمريكا هي حوت ملفيل، سوناتات بارنستون، وشذرات الذرة." وبما أنني كنت أعرف أن بورخس كان يتناول أثناء الفطور

شذرات الذرة كل صباح بدون حليب وكان حقاً يحبها، مثلما كان يحب نورث ثامبرلاند ونجوم سبينوزا أو مقطعاً من الإنكليزية القديمة، أبديتُ تحفظاً حيال إدراج مشتقات الحبوب مع ذلك التثليث غير المتوقع. وعلى إثر ذلك قال متفاصحاً "هل أضيف شعر إمرسون الذهني؟ أجل، سوف أضيف إمرسون." بعد ذلك، وبحماس متزايد، راح يضيف عمالقة أوائل إلى قائمة أفضل الأشياء في أمريكا: ديكنسون، هوثورن، وثورو.

"كلاّ، الحوت، وإمرسون، وشذرات الذرة، أشياء أكثر من كافية." أجبتُ يائساً.

القصيدة الجديدة الوحيدة التي أعرفها لبورخس والتي تشكّلت من وحي محادثة بيننا بدأت على متن الطائرة التي كانت تقلنا من قرطبة إلى بوينس آيرس. كنتُ أقرأ على مسامعه قصائد بالإنكليزية- لجون دن، وهوبكينز، وفروست. كان هذا يبدو الشيء الأكثر طبيعيةً في العالم وأنت مع بورخس على متن طائرة. ثمة لحظات قليلة في حياتي تعادل من حيث كونها مركزية وجوهرية هذه اللحظات بحيث يبدو كل شيء آخر بالمقارنة معها تافهاً. على متن طائرة مع شاعر ارجنتيني أعمى. بعد الإنتهاء من قراءة قصيدة "البتولا" قلت إن ذاكرة فروست التي تتأرجح وتميل فوق شجر البتولا في نيو انكلاند هي ذاكرة غير حقيقية، هذا إذا لم تكن مستحيلة، كذبة أو اختلاق. فروست ولد وقضى طفولته في كاليفورنيا، عندما انتقل إلى نيو انكلاند وهو صبي في العاشرة، لم يكن انتقال إلى مزرعة في فيرمونت أو نيو هامبشير ولكن إلى لورانس، وهي مدينة طواحين في مساتشوست. وكأنه كان يهزّ البتولا ويحني أغصانها عندما كان مراهقاً ("وهكذا كنت أنا نفسي هزّازاً

twitter @baghdad_library

للبتولا") ولم يكن مثل صبي المزرعة الذي يحني أغصانها ("بينما يخرج ويدخل ليحضر الأبقار")، أو صبي من الريف في بيئته المناسبة كما توحي القصيدة، بل كان مثل صبي من المدينة يزور الرّيف. يمكن أن أكون قد ضللت بورخس فيما يتعلق بفروست، وإذا كان الأمر كذلك فهذا أفضل بكثير، إذ ما إن سمع بتلك الفجوة الواضحة بين سيرة فروست وبين خياله حتى أشرقت عينا بورخس الميتتان وبرقت أسنانه المبتسمة وقال إن لديه فكرة عن قصيدة جديدة.

"هل تملك عنواناً لها؟"

"ذاكرة مستحيلة."

"أي نوع من القصائد هي؟ موزونة أم شعر حر؟"

"شعر حرّ. إحدى تنويعاتي على ويتمان."

"كم طولها؟"

"حوالي الأربعين بيتاً."

بعد مرور أسابيع قليلة كان بورخس قد نشر في مجلة (La Na-cion) قصيدة بعنوان (رثاء لذاكرة مستحيلة)، وهي مؤلفة من اثنين وأربعين بيتاً مطعّمة بدفق وإيقاعٍ ويتماني. في تلك السنة ذاتها أي عام ١٩٧٧ صارت القصيدة النص الأول في مجموعته الجديدة (العملة الحديدية) يسأل الشاعر عن الذاكرة المستحيلة متوجّهاً إلى أمّه وهي تحدق متأملةً الصباح في مزرعة سانتا إيرين (هي لادراية لها بأن اسمها سيصبح بورخس) ويسأل عن الدانماركيين المبحرين من هينجيست باحثين عن جزيرة لم تكن بعد قد صارت انكلترا، وعن كونه سمع سقراط في ظهيرة شربه كأس السم يحلل بهدوء مشكلة الخلود فيما الموت يصعد

أزرق من ساقيه الباردتين للتو، وعن ذاكرة "أنك قد قلت أنك أحببتني ولم تنم حتى الفجر، ممزقاً وسعيداً." جميع هذه الإستقصاءات المستحيلة مستلهمة من اكتشافه بأن فروست كان قد اخترع ذاكرة غير متوقّعه عن الإنحناء، والتأرجح فوق البتولا.

"أنا أتصل من الصين."

"لابدَ ان هذه المكالمة ستكون مكلفة."

"هل ترغب بزيارة الصين؟" رتّبتُ دعوةً لك من اتحاد الكتاب الصينيين والسفير الإرجنتيني سوف يؤمن عبورك مع ماريا. هل ترغب بالمجيء؟"

"والحق، من خلال كتاباته وأحاديثه الكثيرة كانت الصين، مثلها مثل اليابان، مسرحاً لحلم كان يريد أن يجرّبه. كان قد زار اليابان قبل عدة سنوات بعد عملية أجراها لإزالة البرستات. وكان يشتكي ويتحدث بألم عن تلك العملية. كان قد قال لي، وللآخرين على ما أظنّ، :"لقد سلبوني رجولتي."

كانت ماريا كوداما قد أخذت حصتها الكافية من آلام المعدة، وبعد أيام من وصول الدعوة إلى اليابان وجهت إلى بورخس تحذيراً: إما أن يشفى ويكون جاهزاً للذهاب خلال اسبوع أو أنها لن ترافقه أبداً إلى الشرق الأقصى.كان قد زار بورخس الشافي- المعجزة يانيس كوفرناتوس من جزيرة كريت الوسيطة او الفرانسيسكي من عصر النهضة الأخ هرمانو بيدرو، الذي عالج الآلاف في أنتيغوا في غواتيمالا. مع نهاية الإسبوع كان قد تحسَن بورخس وصار كالطفل أكثر حماساً لزيارة اليابان. كانت واحدة من اكثر رحلاته سعادةً. وكان قد أحبّ بشكل خاص كهنة زين

twitter @baghdad_library

اليابانيين. قال إنه خلال كل مراحل الرحلة كان الجميع يتحدث عن أشياء جوهرية، ولم يسبق لمحادثة أن انحدرت إلى حديث أدبي.

"بالطبع أريد أن أذهب إلى الصين،" قال بورخس بحماس عبر الهاتف. "هل تظنّ أنني لا أريد الذهاب إلى الصين؟ هل تظنني مجنوناً؟ هل تظنّ أنني لم أقرأ آي تشنغ وتاو تي تيشنغ و (حلم الغرفة الحمراء)؟ هل تظنّ أنني لا أعرف الكتب البوذية والتاوية المقدسة أو (سور الصين العظيم) لكافكا؟ أو أفعال ابن السماء شيه هوانغ تي حارق الكتب؟ هل تتخيّل أنني لم أدرس المتاهة اللامتناهية لقصر الإمبراطور الأصفر؟"

تأمل إشارات بورخس العديدة إلى الصين في عمله:

قرأت منذ بضعة أيام أنّ الرجل الذي أمر ببناء سور الصين العظيم كان الإمبراطور الأول شيه هوانغ تي والذي أمر في الوقت ذاته بإحراق جميع الكتب التي جاءت قبله. هذان الحدثان العظيمان- الخمس أو الست مائة فرسخ من الحجارة التي شيدت ضد البرابرة والمحو الفعال للتاريخ، أقصد، الماضي- اللذان بدأهما الشخص ذاته ليصير لاحقاً إرثه أمتعني بطريقة غامضة وفي نفس الوقت أقلقني. غاية هذه الملاحظة هي البحث عن أسباب تلك العاطفة. ("الجدار والكتب")

بالنسبة لبورخس كانت الصين تمثّل أشياء عدة- الإمبراطور الأصفر، رائحة وعطر الإختلافات الطبقية، الأكاديمي والمجرم، التأمل التاوي في الوجود والباحث الكافكاوي في القسوة الجزائية، والبحث عن كلمة سرية للكون يخسرُ على إثرها الشاعر الصيني رأسه في قصر الإمبراطور- وهو على حافة البوح- لأنه اكتشف المعرفة المطلقة. ولكن فوق كل شيء

كانت الصين تمثل موقفاً تجاه الحقيقة المجهولة، وحدثاً هو دائماً على وشك الوقوع، في الوقت الذي يبقى حدوثه عصياًعلى الفهم.

"أنت دائماً كنت في الصين،" قلت له.

"بالطبع سبق لي وكنت في الصين. هل تظن أنني أمّي؟"

"كلا، على الإطلاق. ربما تعاني من بعض عاهات التعلّم، أليس كذلك؟"

"إنك كريم جداً."

"أبداً. يذهب بي الشك إلى اعتبارأنك في أعماق صيني، وتلميذ قديم للاو- تسو، وربما كنت كاتبه. بل إنني أخمّن بأنك كنت تسرق من لاو-تسو بنفس الطريقة التي سرقت فيها علانيةً فراشات شوانغ-تسو. على أية حال، دعني أوقف المزاح الآن لأخبرك بأن السفير الإرجنتيني سوبيزا سوف يؤمن لك دعوة رسمية. كيف حال ماريا؟ هل مازالت تعيش عزلة القمر؟"

"إذن، أنت تتذكّر رباعيتي الشعرية لها. كتبتُ بضع أبيات فقط موجّهة لماريا. أنيليس توبّخني لإنني لم أكتب المزيد. كانت تقول]لأكثر من عشرين عاماً ماريا وأنا اشتغلنا معاً وفي النهاية أربعة أبيات فقط لها"أقول لصديقتي الألمانية أنا خجل من نفسي غير أنها تجيب بأنني بخيل في شعري."

"أنيليس امرأة تتمتّع بشخصية صارمة كما يليق بقارئ لشوبنهور أن يكون. وهي تعرفك قلباً وقالباً. ولكن كيف حال ماريا؟"

"أنا أحبّ ماريا وهي تتحمّل الكثير من أجلي."

كان الإتصال بيننا واضحاً بشكل استثنائي، أفضل بكثير من

twitter @baghdad_library

الإتصـالات المحليـة داخل بكين. سـاعـدنا ذلك على نسـيـان المسـافـة والوقت. وكنا قد ابتدأنا بتبادل الضربات.

"ولكن قل لماريا أن لا ترهق نفسها من أجلك. على أية حال، لست سوى كاتب ثانوي. هذا ماتقوله عن نفسك."

"أعـرف كل هذا بشكل جيـد. كـاتب ثانوي. لو أنني مـثل بلزاك كتبتُ عن مناجم الفحم، كنت سمَّيتُ نفسي كـاتب "عـمال الفحم". إن مناجم الفحم، على أية حال، أكثر تعقيداً من المتاهات. كما تعلم، أنا لا أحتفظ بكتاب واحد لهذا المؤلف الثانوي في بيتي."

"اجل، أنت تمثّل رعباً لأعمال بورخس. ويجب أن أقول بأنك تحتفظ بلا شك بتواضعك. وهذا له فعالية كبيرة ضدّ إغراء التكبّر. أعتقد أنك قطعت على نفسك مواثيق لاهوتية تلتزم بها دونما تردّد."

"لماذا. أنا رجل متدين جداً. وأحترم المواثيق. أنا فقط لا أحترم الله- أو، عليّ أن اقول، هو مجرد وجود لغوي في عقلي وأدبي، غير أنني لا أكترث له إذا لم يكن موجوداً، وإذا كان موجوداً فسيكون هذا غير مريح على الإطلاق. أنا أتطلع إلى سلام خالد. سلام صافٍ. ولا أريد أن تشاطرني به تلك الصّحبة الإلهية. بالطبع، إذا كان الآخرون يرغبون بذلك فأنا أهنئهم. الله ليس موجوداً من أجلي."

"أنا أيضاً لا أكترث لتلك الحماقات،" قلت. "ولكنني لا أتطلع إلى الفناء بنفس التصميم الذي تبديه."

"ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل تملك نهاية أفضل للأشياء؟ أو بداية إذا شئت؟" قال بشيء من الإستسلام.

"لو كان الله أحداً آخر، أو شيئاً آخر، وبشخصية أفضل، لكان

الأمر مختلفاً. لكنني أخشى أن يكون مجرد كلام، بما أنني لا أملك أدنى اعتقاد أو خوف من هذه الشخصية الماورائية. إنني لا أستطيع أن أتكيَف حتى مع فكرة هذا الوجود الذي هبط عليّ. ناهيك عن كيف يبدو وجه الله. أما بالنسبة للخوف، فأنا لدي مايكفي في هذه اللحظات، وهي ليست متكررة، خاصة عندما أفكر بالفناء الذي لا أستعذبه. قلت لي مرةً أنه يجب عليك أن تصحو كل يوم على حقيقة كونك بورخس ثانيةً. أصحو معظم الوقت، وفي أي وقت من اليوم، مندهشاً أنني مازلت نفسي، وبأن الكينونة فيّ."

"ويليس، عليك أن تحتفظ ببعض حبوب الأسبرين قريبةً منك تحسّباً للحظات خطيرة كتلك. أنا نفسي أصبحت معتاداً على انتظارات طويلة وحيداً عندما أكون غير قادر حقاً على القيام بأي شيء. فأجد نفسي مجبراً على التفكير، وعلى تذكّر الأصدقاء، وحلّ الكلمات المتقاطعة- كنتُ مدمناً على برادلي وعلى فلاسفة جيلي- وقد وجدت نفسي أستمتع بتلك الأمزجة. إنني أرحّب بالعزلة، ولم يكن الأمر هكذا عندما كنت شاباً. ولكن عندما أشعر بالضجر أسأل أحد الأصدقاء ليقرأ لي. إنه لأمر حسنٌ أن تضيع في صوتٍ آخر."

"لماذا لا تصدم نفسك بأن تجعل أحدهم يقرأ لك واحدة من قصصك؟ يمكن أن تندهش كثيراً."

"حسنٌ، أجل، أخشى أن أصاب بالدهشة وأنا أحترس من ذلك. لايمكنك أن تلومني لأنني أحمي نفسي من بورخس."

"تذكّرني بالإمبراطور الصيني شيه هوانغ تي، حارق الكتب العظيم،، بطلك في (الجدار والكتب.) أنت أيضاً إنسان عام، بورخس.

twitter @baghdad_library

وربما إنسان خاص أيضاً." مع ذلك، ورغم كلّ هذا، تبدو أقل خوفاً وكأنك تكتسب المزيد من الثقة للدخول إلى فترة واعدة."

"الآن، انظر هنا. إذن هناك بعض الأمل لي، أليس كذلك؟"

"ثمة أمل، ولكن لاتهرع إلى الطباعة."

"أنا لم أهرع،" قال محتجاً. "أخشى أن أقول بأنني ذهبتُ خبباً إلى الطباعة."

"لقد ضعت إذن. وضعنا معك. عليك أن تعيش مع كلّ هذه القمامة الأكاديمية التي تكتبها. لكننا ننتظر جمعياً بشوق أن يأتي أحدهم وينشر (بيير مينارد، مؤلف الأعمال الثانوية الكاملة لخورخي لويس بورخس.) نحن نتطلع إلى فرنسي متحضّر لكي يهذّب أعمال البربريّ الإرجنتيني الأعمى. اعتنِ بنفسك. وآمل أن لا تسمح لك ماريا بالخروج عن سيطرتها. إنها ذاتك الأفضل، وبورخس الحقيقي."

"بارنستون، أنت كريم جداً معي، مع البربري الإرجنتيني الأعمى،" قال وسط المماحكة التي كنا قد سقطنا فيها.

عندما كان بورخس يبدأ "بتصنيع تواضعه مثل نادٍ،" لنستخدم إحدى اتهامات ألستر ريد طيبة النية، كنت أتمسّك بذلك، موافقاً ومضيفاً على تأنيب الذات لديه، وعند تلك النقطة كنا نتبادل الضربات والمبالغات ونشعر بالإرتياح.

"أنت شاعر يفضّل بغرابة أنطونيو،" تابع قائلاً.

"بالطبع. كان لذاك الإسباني الكثير لكي يشعر بالتواضع حياله مثلك. بالمناسبة، هل غفرت لي لأنني ضحكت منك في وجهك ذاك المساء، في شقتك عندما قلت أنت: أراك لاحقاً، أيها المتّهِم؟"

"جميع ذنوبك مغفورة،" قال بشيء من الرزانة.

"القسيس بورخس، لا أتمالك شنّ الهجوم عليك. تبدو وأنك تنبش الجانب غير المتوقّع- يمكن أن أقول- والسيء من طبيعتي. غير أن الصداقة المقدسة كما كنت تقول تستمرّ. إنها دائماً الأيام الخوالي ولقد جعلتني عاطفياً."

"أوه، ليس بهذا الشكل. تمسّك واصبر. لاتنحدر إلى هذا الدرك الأسفل. سوف ينتهي بك المطاف مثل لير الباكي كالطفل يتسكّع حالماً وابنته الميتة بين ذراعيه متوهماً أنهما طائران في قفص."

"هل الأمر سيء إلى هذا الحدّ؟"

"إنني أجرّكَ إلى شيء ما ياويليس."

"اعتقني." وفجأةً تذكّرت أننا على الهاتف. "انظر، من الأفضل أن لا أقول المزيد. إنني على وشك الإفلاس نتيجة هذه الثرثرة الممتعة التي تطير عبر المحيطات والقارات وتهبط عندك في بوينس آيرس. سيكون الأمر رائعاً لو أنك تأتي إلى الصين. كلاّ؟ تعال إلى الصين. وداعاً بورخس."

"وداعاً بارنستون. وردة في الجحيم. وداعاً، ويليس."

أقفل بورخس الخطّ. وقبل أن أقفل مثله جاءتني غمغمة الكترونية وصوت السنترال الصيني يسأل فيما إذا كنت قد انتهيت من الإتصال.

"كلاّ،" قلت.

كانت تلك آخر الكلمات التي تبادلتها مع بورخس. انتهينا بمفارقة مثلما ابتدأنا قبل عقدين تقريباً من الزمن حيث بورخس المتهكّم الواسع الإطلاع مسلحاً بمنطقهِ الديكارتي وعمقه العاطفي. تائهاً على الهاتف

twitter @baghdad_library

شعرت أنني قريب منه أكثر من أي وقت مضى. الله، الوجود، الأدب. كنا نركّز على هذه الطلاسم الناقصة التي لاتكتمل. هذا الصباح كنا قريبين أكثر قليلاً. غير أن الكلمة الحقيقية، إذا كان ثمة من فرصة للحقيقة، يجب أن لاتقال أبداً، بل يجب أن لاتُدرك أيضاً.

بالرغم من كلّ أقنعته، لم يكن العديد يدركون تلقائية وصراحة الذكاء العاطفي لبورخس. لم أعرف في حياتي شخصاً أكثر منه مباشرةً تجاه الأشياء الجوهرية- مخاوفه، عشقه، شكّه، ومثاليته. في ذات الوقت، لايجعل الوصول إلى الجوهريات رخيصاً أو مبتذلاً. وحيث أن صراحته مباشرة يمكن أن يشعر المستمع بالحاجة إلى تفكيك لغته المدروزة بالمفارقة، والتهكّم، والضدّية، وجميع أسلحته المضادة للسنتمنتالية (sentimental).

عندما التقينا لأول مرة في نيويورك عام ١٩٦٨ عبرت عن إعجابي بالشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو، ماتشادو الطيب كما كان يُدعى أحياناً. شقيق ماتشادو، مانويل، وهو شاعر ثانوي، كان يُشار إليه أحياناً ب إل مالو (الرديء) في مقارنة غير عادلة.

وبلباقة طيبة قال بورخس ماهو غير متوقع: ""إذا كنت تتحدث عن إل بينو، فأنت تقصد بالطبع مانويل."

"كلاّ، أقصد أنطونيو،" قلتُ محتجاً.

"ولكن مانويل هو الشاعر الأعظم والأكثر استمراريةً،" قال بورخس. ولكي يثبت وجهة نظره راح يرتّل أبياتاً، ليس من مانويل، كلاّ، بل من أنطونيو. كان مغرماً بشكل خاص بالمقطع الأول من قصيدة انطونيو ماتشادو المعروفة (صورة ذاتية) بسبب الإحالة الواردة في بيتها الرابع إلى البيت الأول من (دون كيخوته):

طفولتي ذكرياتٌ عن باحة في سيفيل،
وحديقة مضيئة حيث أشجار الليمون تنضج،
شبابي، عشرون سنة في أرض كاستيل،
حياتي، بضع أحداثٍ أودّ نسيانها.

السفير الإرجنتيني في الصين هيكتور سوبيزا أخّر عودته إلى الإرجنتين. وفي غضون الوقت الذي ذهب فيه سوبيزا لرؤية الشاعر لم يكن طبيب بورخس يسمح له بأكثر من رحلة واحدة في السنة وكان قد التزم لتوه للذهاب إلى النمسا.في ربيع عام ١٩٨٥ وبعدما أطلعني سوبيزا على هذا الوضع شعرت بخيبة أمل كبيرة. وافترضت أن للطبيب أسبابه، والحقّ أن اتحاد الكتاب في الصين عبّر عن قلقه حيال صحته، وحيال العناية بالشاعر ذي الخامسة والثمانين عاماً خلال شهر قاس من التنقلات والمؤتمرات. كانوا يخشون، كما قالوا لي، أن يموت عندهم. غير أنني كنتُ أعرف العكس.

لم يصل بورخس أبداً إلى الصين، مكان الحلم. سرطان الكبد قتله في السنة التالية. مع ذلك وفي عامه الأخير كتب تلك القصائد ذات العمق العاطفي بما في ذلك قصيدة تأملية ظهرت في ترجمتها الإنكليزية في مجلة (New Yorker) قبل اسبوع من وفاته. في هذه القصيدة يتخيّل بورخس شكل المدينة التي سيموت فيها في العالم. وحتى النهاية ظلت جذوره إرجنتينية تتغذى على حارات ريو دي لا بلاتا في أدروغ وباليرمو مع أنها أيضاً اكتسبت، مثل كتاباته، صفة العالمية. لو أنه أتيح لبورخس أن يأتي إلى الصين لكان شهد انتعاشاً جديداً ولكان

أنعش الصينيين الذين معه. كان سيبتكر عباراته الإنكليزية والإسبانية المجهولة ويمزجها بطريقة ما- من خلال المحادثة، الثرثرة، الإشاعات، أو الترجمة- مع روح مليار صيني. وكان مليار صيني بدورهم سيصطفون في بورخس تفتّحاً جديداً.

كتابات بورخس الأولى عن الصين هي بمثابة أحلام من الثقافة العميقة، مثل رومانسياته عن حديقة ابن رشد العربية أو القابالة أو مكتبة بابل أو الغابة العذراء قبل كولومبوس. إنّ القرصان الأرمل تشينغ في كتاب (التاريخ الكوني للعار) يكشف عن استغلاله الخاص للحقائق التاريخية أو الثرثرة. ولكن في رؤية الصين الحقيقية كنت أظن أن بورخس سيستخدم نفس عدسات الواقعية السحرية التي رأى من خلالها لاعب السكين خوان مورانا أثناء تسكعه في حارات بوينس آيرس القاسية، ولوصف قطيع من الملفوف الأبيض خارج المداخل الإسمنتية القاسية، أوحشود من البشر في قمصانهم الداخلية يقفون وسط شوارع بكين المسكرة، وحول هضاب الربيع في تشينغ دي حيث المعابد التاوية الصفراء. لو قدر لبورخس الذهاب لكانت الصين حدثاً مفصلياً في حياته.

هذه الأفكار وهذه الأحلام عن الصين خلال نصف السنة الأخيرة تلك في آسيا جعلتني أخترع بورخس في الصين. كنتُ أفكّر بلويس خورخي بورخس وأنا أركب دراجتي الهوائية الطائرة كالحمامة عبر الشوارع المظلمة لبكين وعبر الساحات الصدئة والكثيفة التي جلدتها الرياح وهي تحمل غبار الربيع وأبخرته ورمال غوبي إلى عينيّ. بورخس الذي أعرف الآن أنني لن أراه في الصين. مع ذلك خُيّل لي أنني رأيته هناك.

تخيلت أنني أتجول معه برفقة ماريا في تلك البلاد. صبرُ ماريا اللامتناهي كان يمكن أن يكون القاعدة في الصين. في مقالة بعنوان (الغنوصيون) كتب بورخس يقول: "لو أنَ الإسكندرية انتصرت وليست روما فإن القصص المربكة والمثيرة التي لخَصتها هنا كان يمكن أن تكون أكثر تجانساً ونبلاً وواقعيةً." في الصين، حكمة ماريا النفاذة وعباراتها الموحية وفهمها الشفيف، إضافة إلى ضحكتها، كانت كلها ستكون اعتيادية. بورخس المغرم بالأطلال القديمة المتناثرة في الصحارى وبالأعالي السحيقة، بالغروب والغرائبي كان يمكنه أن يجرب ذلك صيفاً وربيعاً في المدن الواطئة مثل غوبي في تركستان الصينية ومباشرة إلى الجنوب في الزرقة الصافية العديمة تقريباً من الهواء والغنية بمناظرها الأخاذة في التيبت المرتفعة.

الآن، لقد اخترعت بورخس في أكثر من مكان. كنتُ أعرف أنه سيأسر الصينين- هم لم يفقدوا أبداً تبجيلهم للحكيم. من بحق السماء يمكن أن تتطابق صورته مع لاوتسو أو شوانغ تسو أو كونفوشيوس أكثر من هذا الرجل الأعمى، البطيء المشية، القادم من الإرجنتين؟

كان لبورخس موعداً مع الغيوم البيضاء. رأيته يتحدث في الجبل الجنوبي العميق مع حطاب هرم، رجل في سنه باستثناء أن بصر هذا الأخير أفضل. اندمجا معاً في حديث طويل وكانا يتضاحكان، متناسين الوقت، متناسين العودة حتى انبلج الفجر وهبط عليهما قرب الأسيجة المعزولة المبنية من القصب في القرية المجاورة. الجبال التي كانت متعرجة وخضراء، سرقت الغبش الذي كان بورخس دائماً يشعر بأنه محاطٌ به نتيجةً لبصره الغائم. الآن، الأفق برمته كان يمثّل رؤيته للغبش الأزرق

twitter @baghdad_library

والأصفر وبالتناغم مع المبادئ البوذية التي كان قد شرحها للقراء الغربيين أصبح بورخس جزءاً من "الجبل فوق المياه" (وهي الكلمة الصينية التي تعني الأفق) قرب تشانغان الكلاسيكية، المدينة العاصمة لشعراء التانغ. لم يعد ينظر إلى المرآة من خلال الأرض لكي يرى نفسه. بل لقد أصبح جزءاً من المرآة الكونية البوذية المصنوعة من الأرض برمتها والتي كان نفسه يمثل وجهها الآخر الذي يعكس الخارج- إذ أصبح نفسه واحدةً من بين آلاف السواقي والأشجار العاكسة كالمرايا.

في غرفته ليلاً كان يملي قصائد جديدة على ماريا كما كان يفعل في اليابان. وسرعان ما أصبحت الصين، كاليابان، جزيرة أخرى للشاعر الإرجنتيني، ومكاناً للسقوف المعقوفة والآجرّ الأصفر والأحاديث التي لاتنتهي.

من قعر الكوكب كان بورخس قد ذهب إلى المركز اللابربري للأرض. ربما كانت الصين اختراعاً آخر بين (الجحيم) و (الفردوس) للشاعر الفلورينتني دانتي أو حلماً من كوكب باسكال الذي يكون مركزه في كل مكان. هناك أمضى اسبوعه الأخير يتنقل من حجرة إلى حجرة، ومن بوابة معبد إلى معبد آخر في تجليات منغوليا ومانشو وهان التي أصبحت تمثل المدينة المحظورة، لكنها المرسومة في عقله بدقة كابوسية عندما اخترع بالكلمات والفكر متاهاته الخاصة به التي كانت تمثّل أطلسَه الخاص للجحيم والأرض والسماء.

ذات ليلة في عام ١٩٣٧ اجتمع ثلاثة أصدقاء، هم خورخي لويس بورخس و أدوولفو بيو كاساريس وزوجته سيلفيا أوكامبو وسرعان ماوجدوا أنفسهم منغمسين في الحديث عن الفانتازيات وقصص الأشباح.

وضعوا أفكارهم في دفتر ملاحظات ومنه انبثق مخطوط (كتاب الفانتازيا). فيه وجد بورخس باو-يو، صديقه من الرواية الصينية في القرن الثامن عشر (حلم الغرفة الحمراء) ضائعاً في حلم لامتناه.

وعلى الرغم من أنهم ظلوا جالسين حول نفس الطاولة الثقيلة غير أن بورخس غادر رفاقه الإرجنتينيين وراح يهيم في جغرافياته الفانتازية. شعر بالحيرة، وما إن ركّز على باو-يو (الأخضر الثمين) في حديقة مزهرة محاطة ومسكونة بنساء جميلات حتى رأى نفسه الناظر على نفس الحديقة- خورخي لويس بورخس آخر يحدّق بباو-يو آخر يستلقي فاقد الوعي على سرير في حديقة مجاورة. هذا البورخس كان قد خرج لتوه من استراحة الغرفة الحمراء وبينما كان يحدق بشبيه باو-يو شعر بالإرباك والذهول. أجل، لقد فهم بورخس ماكان قد حدث. إن الشخصية الحقيقية باو-يو في الرواية تاهَ عن مساره. في حلمه رأى شاباً يافعاً يرقد على سريره في الحديقة وراح يعانق شبيهَه.ولكنه كان باو-يو الحقيقي يغمغم ويستعير وجهاً مضحكاً. ولم يتوقف إلاّ عندما أصدرت خادمته الأوامر لكي يذهب فوراً إلى حجرة والده. وحتى عندما فعل ذلك ظلّ مرتبكاً دائخاً، ومتهماً بأنه مايزال يحلم، لأنه وجد نفسه ينادي شخصية باو-يو التي كان يحلم بها وتوقف فقط عندما أشارت له خادمته بأن لاينظر إلى حديقة الزهور بل إلى انعكاس صورته في المرآة.

الآن بورخس، مشاهد حلم باو-يو، كان مرتبكاً بشكل خارق بل ومنزعجاً. كيف يمكنني أنا أيضاً أن أرى شبيهاً لبورخس في الصين؟ إنني أشاهد حلم شخص آخر، ورأيته يخرج منه. ما الذي يحدث؟ من الذي اكتشف كل هذه الأخيولة؟ أي من الأشخاص أنا، وأين أنا؟

twitter @baghdad_library

فرك بورخس جفنيه.ناظراً بحرصٍ أكبر من خلال عينيه اللتين لم تكونا قد اصيبتا بالعمى بعد لكنه لايرى أي شيء. لكنه اصطدم بجسم ما على بعد أقدامٍ قليلة أمام وجهه. لمس السطح بارداً وناعماً كسكين. وحالما حرك يديه أدرك أنه كان يحدق بالإنعكاس المنذهل لأعماقه اللامرئية في مرآة فولاذية. خلف الإنعكاس تقبع معابد أرجوانية مصطفة بتناسق باتجاه السماء ومصمّمة على شكل غرف التأمل وسط الحقول في الصين.

فجأة سمع أصدقاءه من بوينس آيرس. وعلى الرغم من أنهم مايزالون يجلسون قربه على الطاولة بدوا وكأنهم ينادونه من مكان قصيّ.

"بورخس، أنت ماتزال تحلم."

"إنني أرى شبيهاً،" احتجّ بورخس. لم يكن مشوش البال، بل عنيداً وسعيداً. "الصين وحدائقها تتكاثر. أرجوك لا تزعجني. لقد انتظرتُ حياةً بكاملها لكي آتي إلى هنا. لقد استثمرت كل غبش وكل كابوس لكي أصل إلى هنا وأمشي إلى معابد تشينغ إيد في حقول الربيع حيث حصادوها الصامتون. هذه خوان دو، سبع ساعات بالقطار مباشرةً إلى شمال بكين، حيث أبرمتُ موعداً مع الجبال الفارغة، وأنت تقلق رؤيتي."

في بوينس آيرس ، ميلان ، روما ، وجينيف

twitter @baghdad_library

اسمي "كان يمكن أن يكون"

عندما دخل بورخس المتاهة الحقيقية ، الحجر الأصلي في كنوسوس ، والذي لم يفارق الأرض أو الوقت ، دخل برفقة ماريا وضاع . في المتاهة يضيع المرء ، تلك هي غايتها . ولكنه دخل الآن في الصباح مع ماريا ولم يضع وحيداً . لقد التقطت ماريا صورة لبورخس جالساً مع عكازه على درج المتاهة . أربعة من أصابعه تظهر بوصلة عديمة النفع ، وتشير إلى اللامكان . غير أن عينيه العمياوين كانتا مفتوحتين بشكل واسع . ، تنظران إلى ماريا وإلى عدساتها .

لم أحصل على خبر يقيني عن بورخس حتى عودتي من الصين. في ظهيرة متأخرة من عام ١٩٨٦ كنتُ أقود سيارتي برفقة ابني روبرت على طريق بنسلفانيا، وأجرَ شاحنة محمّلة بالأثاث الصيني العتيق وكنا نستمع إلى الأخبار وسط عاصفة مطرية عنيفة. خورخي لويس بورخس، الكاتب الإرجنتيني، توفي اليوم في جينيف. كانت الإشارة ضعيفة ووجدت صعوبة بسماع الكلمات، لكنني كنت أعرف أن فحواها لن يتغيّر لو كانت أكثر وضوحاً من ذلك.

لطالما فكرت بأنني سوف أذهب إلى بوينس آيرس عندما يتوفى بورخس. تحدّثَ مراراً عن الموت- كان دائماً يقول إنه يرحب به وأنه

twitter @baghdad_library

يشعر بالأرق من المهمة المكفهرة في العيش ليوم آخر بوصفه بورخس، وغير ذلك من التصريحات غير الصحيحة بشكل مفهوم. أكثر كتابات بورخس عمقاً تتعلق بلحظة الموت، وسر تلك اللحظة بعد الموت، وبالكلمة في هذا العالم التي تنوط نفسها بتأويل النصّ الغامض للكون. وبما أنه كافر صريح بخلود الجسد والروح أو الذاكرة الشخصية فإنه يقود القارئ دائماً إلى التصريح بكلمة اعترافية واحدة، ولكن دائماً على لسان إحدى الشخصيات التي تختفي أو تموت قبل أن تصرّح بها.

في النص المذكور سالفاً (أمثولة القصر) يعثر الشاعر، عبد الإمبراطور، على كلمة تساوي قصر الإمبراطور الأصفر، وتعادل في قيمتها كل تفصيل عبر كل زخرفة وضوء في كل قطعة من البورسلان. يأمر الإمبراطور السياف بتناول السيف الفولاذي ويقطع رأس الشاعر، ذلك أنه عبر تلك الكلمة استطاع الشاعر أن يسرق القصر من الإمبراطور. أحفاد الشاعرمايزالون يبحثون عن الكلمة التي ستربحهم الكون، لكنهم لن يجدوها.

نفس الكلمة المخادعة التي تكشف الكون، الكون عند الموت، هي موضوع قصيدة بورخس الشهيرة (قصيدة حدسية). فرانسيسكو لابريدا، أحد أقرباء بورخس من جهة والدته، يتأمل بالكون قبيل وفاته. كان على وشك ان يرى ويعرف كلّ شيء:

في نهاية المطاف اكتشفتُ
المفتاح المخبوء لسنواتي،
مصير فرانسيسكو لابريدا،

الحرف المفقود ، النسق التام
الذي يعرفه الله منذ البداية.
في مرآة هذا الليل أتعرّف
على وجهي الخالد الذي لاشك فيه.
الدائرة على وشك أن تكتمل.
وها أنا أنتظرها كي تكتمل.

ولكن وبينما كان لابريدا على وشك أن يعرف، يحرم موته القارئ مما يمكن أن ينطق به، وعبر استخدامه لضمير المتكلم يختفي بورخس وراء لابريدا ، موحياً بشكل أبعد بأن الشاعر ينشد في مرآة الليل وجهَه البريء الخالد، لكنه يُحرم من ذلك حتى تلك اللحظة عندما تأخذه السكين إلى النسيان. إن عنف الموت يمثّل بحد ذاته الحرمان المطلق من المعرفة الحيوية التي تصبح من خلاله الحياة الأرضية أكثر وضوحاً:

الآن الضربة الأولى،
الحديد القاسي يمزّق صدري،
السكين الحنونة تخترق حنجرتي.

أو في قصيدة "في مديح ظلّ،" عندما يتم كشف النقاب عن معرفة الذات:

الآن أستطيع أن أنساهم. أصلُ مركزي،
جبري ومفتاحي،

twitter @baghdad_library

مرآتي.
قريباً سوف أعرف من أنا.

المتكلم في القصيدة سوف يعرف، ولكن لا بورخس ولا المتكلم سوف يفصح عن تلك المعرفة. عندما ماتَ بورخس بالطبع لم يترك لنا كلمات سرّ. بورخس لن يخون، لا بالكلمة ولا بالفعل، ثقتنا عبر إعطائنا عملة مزيفة. ومهما يكن معناها سوف نردد مراراً وتكراراً من قصائده بيتاً من مثل "قريباً سوف أعرف من أنا." هذا ما سيعرفه حتماً، على الرغم من أن اللاشيء المتوقع للفناء قريب قرب بورخس من رغبته بالإعتراف.

ممسوساً كما هو الحال- وخائباً- حيال لغز الموت، كان بورخس يسعى لمعرفة معناه، يدعوه إليه، وغالباً ما كان يعبر عن ذلك حوارياً من خلال أمثولاته. مرة قال لي أنه عندما هاجمه لص قائلاً له (جزدانك أو حياتك) أجابه بورخس: "حياتي"- وعلى إثر ذلك استدار اللص وفر هارباً. بورخس قال: "شعرت بخيبة أمل. كان يمكن أن يكون ذلك نوعاً من الحلّ.

هذه المحادثة جرت في مطار محلي في بوينس آيرس عام ١٩٧٥ بينما كنا ننتظر الطائرة التي لم تغادر إلا بعد تسع ساعات إضافية. فكرتُ بكل الأوقات التي اصطحبت بها بورخس إلى المطارات وجلستُ قربه على متن الطائرات واستمعتُ إلى رجل نادراً ماكان يجلس قربك دون أن ينخرط دون مقابل بقضايا الأدب. فكرت بمطعم ماكسيم في بوينس آيرس، وهو مكان متواضع، وبمقهى القديس جيمس، المكان

الأكثر أناقة، حيث كان ملاذنا المتأخر. وبعد مساء من المناقشات والقراءة والعمل والنكات والفلسفة كان بورخس يقول بعد منتصف الليل أو بعده بقليل: "لماذا لانذهب ونرى كيف تسير الأمور في مقهى القديس جيمس؟" وكنا نمشي قاطعين خمس أو ست شوارع إلى ملجئنا الرائع ونواصل هرطقاتنا الأدبية وانشغالاتنا الإنسانية.

غالباً ماكنت أقرأ له ولاس ستيفنس أو كفافي في مقهى القديس جيمس، وخلال إحدى صباحات الأحد الطويلة هناك تحدثنا لساعات عن ميلتون ودانتي فقط. كنا نتحدث بسرعة أكبر من المعتاد ولم تكن هناك لحظة توقف واحدة. ميلتون ودانتي دخلا صباح العالم في ذلك اليوم، يومهما الأول، وكنا قد اكتشفناهما. كانت ملاحظاته خارقة للعادة: عفوية وساحرة، مع ذلك كانت وكأنها مكتوبة في كتاب بعناية فائقة. كانت هناك كهرباء في الجو تحيط بالصور المتعددة لبورخس في مرايا الزاوية التي كنا نجلس قربها. بالتأكيد كان بورخس قد أحب ميلتون وتعلم منه أكثر من محبته وتعلمه من دانتي، وسوناتاته في إشاراتها المحددة إلى ميلتون تبرهن على ذلك. وكما هو متوقع، كان دانتي يبدو الشاعر الأفضل في العالم برأي بورخس، الشاعر الذي لم يؤمن، وعلى نقيض ميلتون، بأيٍ من تلك الخرافات الدينية السخيفة والجميلة.

"إن ذلك كذلك لأن دانتي لم يكن يؤمن بجحيمه المرعب والباذخ وبالتالي كان، على غرار قصيدته، قابلاً للتصديق،" كان بورخس يجادل.

نادراً ماكنت أراه أكثر تحمساً حيال موضوع أكثر من هذا- على الرغم من أنه يجب أن أضيف بأنني كنت أرى بورخس متعباً ومرهقاً

twitter @baghdad_library

لكنني لا أتذكر مطلقاً كسلاً ينتابه أو يصيب حديثه. إنه الآن طاقة فصيحة صرف.

عندما كان يخيم المساء كنت أشعر بكآبة طريفة تخيم علي. كنا قد عدنا إلى شقته لتناول الغداء، وكنا قد عملنا معاً، وكنا على وشك الخروج من المبنى والذهاب إلى مطعم ماكسيم لتناول العشاء. في الردهة في الطابق الأرضي وقبيل أن نخرج إلى الرصيف المحطم في الخارج اعترفت لبورخس بأنني مكتئب.

"مالذي يجعلك تقول هذا يا بارنستون؟"

شرحت له أنه في هذا الصباح في مقهى القديس جيمس كنت سعيداً على غير العادة. شعرتُ بالغنى عندئذ، ولكنني الآن مسلوب. وبينما ظلت أفكار حديثنا في عقلي فإن معظم العبارات الآن محاطة بهالة من الغموض، وبعد أسابيع أو شهور فإن العبارات المفتاحية ومواضيع الجدل سوف تتلاشى هي أيضاً. وبعد مضي عدة سنوات سوف أتذكر فقط أننا انخرطنا في نقاش فائق عن ميلتون ودانتي.

"سوف أتذكّر دقتك المتحمسة، وربما بعض التمييزات بين الشعراء الكاثوليك والشعراء البروتستانت،" قلت، "وربما كانت ردودي انفعالية- ولكنني لا أقصد أياً من تلك الكلمات."

أعتقد أنني كنت طمّاعاً. لقد قيل عن العديد من المفكرين الدينيين والحكماء، بما في ذلك الإغريق والهنود الشرقيين، انهم كانوا يؤمنون بأن الكلمات المطبوعة على صفحة تفقد روحها- وهذه فكرة كان يعتقد بها كل الحكماء من سقراط ويسوع وبوذا إلى لاوتسو. غير أن أفكاراً نبيلة كتلك كان من الصعب أن تتوارى، على الأقل بالنسبة لي. عدم دقة

ذاكرتي والضياع الناتج للعديد من الكلمات آلمني بعمق. كانت حواراتنا حقيقية كالمسرح، كانت ثمة قمم وقفنا عندها لساعات، والآن كل شيء انتهى. هبطنا الآن وصار المنظر مغبراً وربما غائباً. (في عام ١٩٩٠ وبينما أسجل هذه المحادثة التي جرت في عام ١٩٧٥ أبقى مقتنعاً بشكل مطلق بأهمية استبصاراتنا في تلك الحوارات على الرغم من كلمتين فقط بقيتا في ذاكرتي: دانتي وميلتون.)

وضع بورخس يده حول كتفي وبعزاء فيه الكثير من المفارقة قال "تذكَر ما قاله سويدنبرغ -بأن الله خلق لنا العقل لكي نمتلك القدرة على النسيان."

بعد مضي عدة أيام، وفي ليلة عيد الميلاد، في مناخ من التوتر المدني، شاركته عشاء عيد الميلاد في بيت سيدة انكليزية. كان بورخس كئيباً جداً. تناولنا طعاماً لذيذاً واحتسينا خمراً جيداً، وتحادثنا طويلاً، غير أن الكآبة الوطنية المبطنة ظلت مخيمة على عقولنا.

كانت العيادات والمشافي تغص بجثث الشباب والشابات الإرجنتينيين، ومعظمهم من الطلبة الذين شاركوا في هجوم ضخم على محطة مركزية للشرطة. تسربت معلومات إلى الشرطة وانتهى الأمر بمذبحة. في مقاطعة توكومان جرت مواجهات مفتوحة. غير أن العنف من قبل المعارضة كان تقريباً قد انتهى. وبعد عدة أشهر يمسك العسكر بزمام الأمور تماماً وكانت موجة الإعتقالات عارمة فيما سيسمى فيما بعد بالحرب القذرة.

وبعد انتهاء العشاء والنبيذ أزف موعد الذهاب. وبما أنه كان يوجد إضراب للباصات وسيارات الإجرة، كان علينا أن نعود مشياً على

twitter @baghdad_library

الأقدام. بورخس الذي كان ملتزماً بالكياسة دائماً أصر أن نرافق ماريا كوداما أولاً إلى بيتها على الرغم من أنها كانت تقطن في الطرف الآخر من المدينة الكبيرة. غير أن ذلك لم يكن عبئاً على الشاعر في عامه السادس والسبعين لأنه كان يحب أن يمشي، وخاصة في الليل، إضافة إلى أن ذلك كان يمنحه عذراً للبدء بحديث ما. في نصف الليل المتوثب والعاصف ذاك قطعنا المدينة ببطء. وبينما كانت الساعات تمرّ بدا بورخس أكثر تيقظاً لكل شاردة وواردة في الشوارع، ولفن العمارة التي كانت عيناه العمياوان تعرفها بشكل أو بآخر، وللمارة القليلين. فجأة ظهر الباص، صعدت ماريا، وعدنا أدراجنا إلى غرفة بورخس.

الآن وبعدما تأكدنا أن ماريا بخير في طريقها إلى البيت، لم يعد بورخس في عجلة من أمره. في البدء ظننت أنه لا يعرف طريقه لأنه كان يتوقف مراراً في كل مرة كان يريد أن يؤكد على نقطة ويدور حول عصاه وكأننا ضللنا طريقنا. ولكن، لا، كان يريد أن يتحدث عن شقيقته نورا وطفولتهما معاً وعن الأخرق الذي رآه يُقتل على الحدود البرازيلية الأرغوانية قبل أربعين عاماً، وعن أجداده العسكريين الذين حاربوا في الحروب الأهلية للقرن التاسع عشر.

"من الذي أطلق النار على الأخرق؟"

"أخرق آخر، رجل أسود. كان بينهما نوع من الخلاف الثانوي. حدث ذلك أمام عيني. كانا يقفان قريبين من بعضهما قربي منك. ولكن الذي ترك انطباعاً قوياً في نفسي هو أنه قتل الرجل بشكل تلقائي وكأن ذلك لايعني شيئاً على الإطلاق. وكأنه كان يفك أزرار قميصه."

عندما كان بورخس يتحدث عن الحروب الأهلية كان يعني الصراع

بين الإتحاديين الليبراليين الذين قاتل أجداده في صفوفهم وبين الفدراليين تحت أمرة الديكتاتور روساس. جده من جانب والدته الكولونيل أزيدور سواريس كان البطل في معركة جونين الشهيرة في مرتفعات البيرو. ولكن الشخصية الوحيدة في ميثولوجياه الشخصية كان الكولونيل فرانسيسكو بورخس، جده من طرف والده، الذي قابل سيدة انكليزية أثناء احتفاله بانتصار للميليشيات ووقع في غرامها وكان اسمها فرانسيس هاسلام. كان ذلك في عام ١٨٧٠ أو ١٨٧١. في ظهيرة ذلك اليوم ومن سقف منزلها رأت فاني زوج المستقبل يركب على رأس كتيبته ليدافع عن مدينة بارانا.

من فاني هاسلام، جدته من نورثامبرلاند، مدَّ بورخس خطاً إلى اللغة الإنكليزية كما تلقّى جينات وراثية مشتركة ستصيبه وتصيبها مع والده بالعمى في العقود الأخيرة من حياتهم. على أية حال، كانت دراما الظهيرة الأخيرة الخارقة للكولونيل الشاب بورخس في ميدان القتال حكاية عائلة وتاريخاً من الشرف والموت استحوذت طويلاً على عقل بورخس.

كتب عن ذلك في قصيدتين على الأقل، وفي مقال عن سيرته الذاتية. وكان يشير إلى ذلك أحياناً في محاضراته العامة. سرد لي القصة في المطار، وفي شقته، ومرة في المطعم بعدما أمضينا بعد الظهر مع مالك الجريدة السيد ميتر. كان السيد ميتر سليلاً للجنرال بارتولمي ميتر الذي كان قد أمر بالإنسحاب من معركة لافيردي، وهو انسحاب احتج عليه الكولونيل بورخس بموته. الآن، وبتفصيل أكبر، وكأن ذلك يحدث للمرة الأولى، كان بورخس يعيد سرد الحادثة بعاطفة غريبة ، في

twitter @baghdad_library

نزل مجهول صغير في بوينس آيرس قبل ساعة من مطلع الفجر.

المعركة في لافيردي كانت تسير بشكل سيء مع ذلك كان الكولونيل بورخس مقتنعاً بأن العدو على وشك أن تنفذ ذخيرته النارية. الجنرال ميتر أمر القوات بالإنسحاب. كان ذلك في تشرين الثاني من عام ١٨٧٤ . عندما انتهت المعركة فرانسيسكو بورخس اعتلى صهوة حصانه وراح يخبّ ببطء، مرتدياً معطفاً أبيض حيث لحق به ثلة قليلة من رجاله. كانت ذراعاه مبسوطتين أمام صدره. عندما اقتربوا من خطوط العدو باغتهم وابل من نيران البنادق. سقط الكولونيل: رصاصتان من نوع رمنغتون استقرتا في معدته. توفي بعد يومين لاحقين.

"كان نوعاً من الإنتحار، كما تعلم؟" قال بورخس.

أتركُه على حصانه في نصف ضوء
ذلك الغسق الذي كان يبحث فيه عن موته؛
من بين جميع ساعات القدر، لتستمرّ تلك البرهة
مريرة وطاغية.
بياض حصانه ومعطفه
يعبر فوق المنحدر. الموت الصبور
ينتظر كامناً مع بنادقه. حزيناً
يعبر فرانسيسكو بورخس السهلَ.

"كان لابد له أن يفعل ذلك. كان فعله بمثابة بيان هزيمة واحتجاج. كلماته الحقيقية بعد مضي يومين كانت خطابية بشكل واضح ولا تخدم

غرضها: (لقد سقطتُ مؤمناً بأنني قمتُ بواجبي وحققت قناعاتي، وفي سبيل نفس المبادئ التي قاتلت من أجلها طوال حياتي.) إنه الإعتراف الشفهي الإجباري. كل فارس من سبارطة مات في ثيرموبيلي كان يعرف تلك الصيغة. أما بالنسبة للإنتحار: إنه فعل شخص شاب أو إشارة رجل عجوز عن الإعياء. إذن هناك العسكري الذي يُعتبر الموت بالنسبة له قراراً سهلاً وحتمياً وأحمقاً."

وبما أن عائلتي كانت مصابة بالإنتحار مثلما كانت عائلته مصابة بالعمى كنا غالباً ننجر للحديث عن أولئك الذين يفتحون الباب المزيف للموت المفروض ذاتياً. كان بورخس يحتج بأنه محكوم بالوقت المندفع إلى الأمام، ومحكوم بكونه بورخس، ومحكوم بأن يستمرّ في واجب العيش إلى يوم يمكن أن يشهد العقوبة الجسدية المفروضة على والدته في سنها المتقدم. مع ذلك كانت تلك الإحتجاجات مضللة. ذلك لأن الحكمة لم تجعل منه أبداً شخصاً صلباً، ولم يحدث أن جاء وقت لم يكن فيه طفلاً تنتظره قرون من الحياة، وينتظره وقت قادم كان ينتظره والذي انخرط فيه باكراً. وبالرغم من العزلة والشعور بالوحدة الكامن في العمى إلا أن بورخس كان قد ارتقى حقاً إلى مستوى مايسميه الفيلسوف برادلي بالمستقبل المندفع إلى الأمام. وحيث أنه ضمّن كتاباته أكاديمية حقيقية ومخترعة في آن، وبعداً تاريخياً، فقد كان ظاهرياً راضياً، بل لنقل مصمماً، على التقليل من أهمية كتبه وأيامه الأولى مالئاً عقله بتلك الكتب التي كان يخطط لها، وبتلك الأمكنة التي أراد زيارتها، وبأولئك الأصدقاء الذين كان يرغب برؤيتهم ثانيةً. وإذا استثنينا شوبنهور كانت قناعاته حول الظلام الميتافيزيقي قد تصدعت بشكل

twitter @baghdad_library

يحمل الكثير من المفارقة عبر زخمه المبدع وحيوية مشاريعه وأعماله.

وهكذا كنا نتحدث لكي نطرد الظلام.

غالباً ماكان عكازه يصطدم بحفرة أو شق صغير على الرصيف المتهدم. كل حادثة صغيرة كانت تعطيه فرصة للتوقف وبسط عكازه، وبسط ذراعيه وقدميه على هيئة ممثل قبل أن يختار ممراً آخر ويمضي. وخارج السياق، كان يتحدث عن ولعه بالسباحة، وعن نساء أحبهن في شبابه، وكيف تعلمت أمه الطبخ في أوستن، تكساس، وعن نزهات تعود القيام بها تحت ذلك "القمر المكهرب" الذي يرفرف عالياً على الأبراج فوق مركز المدينة في ولاية تكساس. وكنا نعود أبعد إلى ماضيه وإلى سنوات المراهقة عندما كان ممتلئاً بالترقب وهو يتسكع في شوارع مدينة باليرمو القديمة.

"المهاجرون الطليان في تلك الأيام كانوا من أوائل الناس الذين رأيتهم يرقصون التانغو. تلك الرقصة الجديدة بكلمات بذيئة ممتعة، ولم أرهم في قاعات الرقص أو على خشبات المسارح ولكن في عرض الشوارع أمام بيوت البغاء في حارات باليرمو. لم يكونوا أزواجاً مختلطين بل جميعهم من الرجال يرقصون مع بعضهم. كانوا يتمرنون على قارعة الشارع لكي يعطوا لأنفسهم الشجاعة قبل أن يلجوا إلى الداخل ويرقصوا مع النساء."

بدأت أتلمس أقنية الحليب الأولى. وكما دائماً، شعرت بأن شخصية وحوارات بورخس كانت على الأقل عميقة وأنيقة مثل كتاباته بل وبسبب كتاباته المكرسة نفسها. وفي الفجر كنا نصل شقته. كان يخرج علاقة مفاتيحه، يفتش بينها بكثير من العناية، وأخيراً بتنهدة من

واجب قسري يعثر على المفتاح الصحيح. ليل طويل آخر من الثرثرة انقضى.

كيف يمكنني العودة إلى الإرجنتين بما أن البلاد فارغة الآن من بورخس؟

لسنوات عدة كنت قد مارست ضغطاً على بورخس وعلى ناشره كارلوس فرياس بأن يدفعوا لماريا راتباً متواضعاً وذلك لكي لاتستيقظ في الخامسة والنصف من كل صباح لإعطاء الدروس الإسبانية إلى رجال الأعمال اليابانيين من أجل أن تكرس ماتبقى من وقتها وعطلها الإسبوعية تكتب لبورخس مايمليه عليها وترافقه في رحلاته. غير أن فرياس كان ببساطة يفتقر للرؤية، وكان بورخس على غراره أعمى. كان يقول بأنه يرغب بأن يدفع لماريا راتباً متواضعاً لقاء عملها ولكنها "فخورة جداً مثل لكمةٍ ولن تقبل إطلاقاً." ماريا من جهتها كانت ستقبل بكل سرور وتهجر رجال الأعمال اليابانيين، ولكن، أجل، كانت "فخورة مثل لكمةٍ" ولم تكن لتقول شيئاً لبورخس.

ماريا ولدت في الإرجنتين لأم ألمانية وأب ياباني يعمل كيمائياً ماهراً، وكان والدها حريصاً على أن لايدعها تذرف دمعة منذ طفولتها الأولى. مرة عندما كانت في الثالثة أو الرابعة من عمرها بكت بحرقة. احتضنها أبوها وهزّها ووبخها بقسوة قائلاً لها مامن شخص محترم تذرف الدموع. منذ ذلك الحين لم تفعلها ثانية، قالت لي بشيء من الندم. كنت دائماً أنظر نظرة ثقافية- ليست نظرة بشعة- على حالة ماريا. كنت أعتقد أنه مامن أرجنتينية إيطالية اسبانية تستطيع أن تتحمل قسوة الخدمة لدى بورخس والوقوف على حاجاته الأدبية والعينية

twitter @baghdad_library

الكثيرة. فقط يابانية أو امرأة مشبعة بقيم استثنائية من الولاء والصبر مستعدة لكي تفعل ذلك.

في الحقيقة، البعض منا ممن كانوا ينظمون رحلات بورخس كانوا يصرون على إعطاء ماريا على الأقل ثلث الشرف لكونها موجودة هناك. وغالباً مانظمنا لها لتشارك في إلقاء محاضرات. وعلى الرغم من أن ماريا تحمل الدكتوراه في الأدب واللغة الإنكليزية القديمة من جامعة بوينس آيرس لم تكن قادرة على التدريس لأنّ برنامجها كان يعتمد على رحلات بورخس في الإرجنتين والخارج. كانت على الأقل قادرة على أن تكتب وتنشر مجموعة من سردياتها المتميزة، وقصصاً أصيلة لاتحمل أي أثر واضح ليد بورخس.

ذات مرة قالت لي ماريا الرائعة بأنها أحياناً تشعر بالإرهاق لدرجة أنها لاتستطيع أن تتنفس. وبسبب العروض الكثيرة التي كانت تأتيها من جامعات يابانية أعلنت مرة لبورخس بأنها ستذهب لمدة عامين إلى اليابان لتشغل منصباً في إحدى الجامعات. ابتسم بورخس وأجاب على الفور، "هذا يعني أن شاعراً ارجنتينياً ولد في عام ١٨٩٩ سيذهب ليعيش ويموت في اليابان." على إثر ذلك كانت تعرف ماريا بأنها لاتملك مخرجاً. وبعد وقت قصير سُرقت أمتعتها من بهو فندق في نيويورك. كانت تحتوي على دفتر عناوينها وجميع مراسلاتها مع اليابان.

عندما كان بورخس وماريا يذهبان معاً إلى مناسبة رسمية كانا يبدوان زوجين نادرين. كان بورخس الداخل إلى غرفة أو بهو أو مدرج متأبطاً ذراع ماريا يترك حضوراً أخاذاً على الجو المحيط برمته. ماريا الهادئة المتيقظة التي تكشف عن عناية فائقة. بورخس الناظر إلى

الأعلى بعينيه الميتتين باحثاً عن مكان جلوسه ومستعداً للرد على أية ملاحظة يمكن أن يوجهها شخص مجهول في الشفق الأبدي لرؤيته.

في بوينس آيرس يمكن لأي شخص أن يستوقفه ويقول :"بورخس، أنت خالد."

"سيدي، لاتكن متشائماً إلى هذه الدرجة."

بعد كل محاضرة أو حديث كان بورخس يتعرض لحصار فوري. كان على ماريا أن تقف جانباً، صبورة ومتوقدة الذهن دون أن يظهر عليها أي أثر للإكتئاب فيما كانت الهيستريا تستمرّ. في حقيقة الأمر كان بورخس يستمتع جداً بشدّ انتباه الآخرين وتوقيع كتبه. في إحدى صباحات الأحد وبعد مشوار قصير في بوينس آيرس طلب مني أن اصطحبه إلى بضع محلات لبيع الكتب وأن لا أذكر لصاحب المحلّ بأننا كنا لتونا عند غيره. كنا في شارع كورينتيس، وكان بورخس يحادثني عن إحدى اللهجات المحلية في بوينس آيرس (لهجة غنية ممتعة من قعر الواقع تتخللها الكثير من المفردات الإيطالية المستعارة، وأحياناً كلمات من أغاني التانغو) وعن أكاديمية دي لانفاردو التي كانت تمثل لبورخس واحدة من الأكاديميات الرائعة المعادية للمسيح، وعن اللغة المحلية التي يستخدمها السكان في حوض نهر ريودي بلاتا. امرأة غجرية اقتربت منا وطلبت نقوداً. أعطيتها قطعة نقدية واحدة، والوحيدة التي كانت بحوزتي. راحت المرأة تتذمر حول قيمتها القليلة. ادعى بورخس الغضب الشديد قائلاً "على أية حال يجب أن لاتنظر بفمها إلى قطعة نقدية هي بمثابة هدية."

في إحدى أكشاك الكتب راح بورخس يتحدث عن يسوع على الصليب. "لم يكن موتاً فيه الكثير من النبل. تخيَّل أنك تسأل الله

twitter @baghdad_library

المساعدة في اللحظة الأخيرة. صحبه، اللصوص- كانوا على الأقل صامتين. ربما كان مؤلف الكتاب المقدس قد فضّلهم على يسوع، لأنه لم يجعلهم يتوسلون إلى أحد. ولكن سقراط: فقط قارن يسوع العاطفي بسقراط الذي لقي أجمل حتفٍ في التاريخ."

"فقط قارن يسوع العاطفي بسقراط الذي لقي أجمل حتفٍ في التاريخ"- لطالما استحوذت تلك الجملة على خيالي. لاحقاً بتّ أفكر بذلك اليهودي المنشقّ، الحاخام يسوع. في الإغريقية تشير مريم إلى ولدها بالحاخام من أجل أن تخفي حقيقة أن الرجل الذي مات على الصليب كان يهودياً. ولكن، ولأنه بالضبط تصرف بكل ضعف على الصليب وبكل يأس شعرتُ أكثر بإنسانيته. أود لوأستطيع أن أناقش هذه النقطة مع بورخس اليوم. وعلى الرغم من إظهاره المؤقت لمازوخيته، وولعه بالسكاكين ولاعبي السكاكين والمتسكعين في الشوارع كان بورخس أيضاً رجلاً ضعيفاً ينقر بعصاه، شجاعاً في روحه و يمتلك تعاطفاً طبيعياً مع الضعف- وليس فقط مع أولئك الذين يخافون الألم. قدرته على التعاطف كانت تأخذ هيئة ضعفٍ أمام المطلق بعدما انقشعت الغشاوة، ضعف امرئ يعرف محدودية الكلمات والمعرفة، ويعرف عقم الفهم وهشاشة مخزونه لفكّ الصمت الكامن خلف اللغة. وعلى الرغم من أن الآخرين يمكن أن يعتقدوا خطأً بأن مخزونه رفيع ومتدفق لكنه ترك لغيره الحوار مع الله والأبدية. كلمات التجاوز والماورائية لم تكن كلماته. إرثه ذكاءٌ متأمّلٌ مشروطٌ بحدوده الدنيوية ومقدرة على التصالح مع الأشياء كما هي عليه، حتى في الأحلام. أمّا ما يتعلق بحيل الوجود، فكان بإمكان بورخس أن يسخر منها، ولقد فعل ذلك طوال حياته. لم يكن بالتأكيد الكولونيل بورخس الموجود في قصائده.

وعندما تقدم به السن اكتسبت قصائده عمقاً عاطفياً رهيباً سببه بالضبط أنّ المتكلم، بورخس، هو نفسه الرجل الضعيف الذي يتكلم، هو الحالم واليائس غير خجل من كونه الأعمى المذعور، الوحيد في العالم، يقيس الوقت بالكوابيس والأشعار الميتافيزيقية.

أما بالنسبة ليسوع المسيح فإن بورخس لم يكن يشاطره الرأي حيال هذه اللحظات الأخيرة إذا قارناه بسقراط، عندما انهار وتألم وطلب حتى المساعدة. كان ذاك بالضبط هو يسوع الذي كتب عنه بورخس واهتم به- المتألم الذي يستدر الشفقة، الإنسان الضعيف على الصليب. مع تلك الرؤيا تتناغم قصيدته "المسيح على الصَّليب" وهي من أواخر القصائد التي كتبها حيث يصف فيها اليهودي ذي اللحية السوداء التي تعبث فيها الحشرات، يقف محطماً ومتألماً تماماً كإنسان، وليس كإله. إنه على وشك أن يموت، مثل آخرين لايُحصون بعده، بما في ذلك بورخس، وسيتألم ويموت، كل ذلك دون غاية معروفة أو دون أي أمل بشيء سوى الفناء. الواقعية الصرفة لتلك الشهادة الدموية التي يصفها كأيقونة محكومة بتكرار غامض حسب سياق تاريخي عريض كما في "يوحنا: ١:١٤":

التواريخ الشرقية تسرد
قصة ملك ملول في العهود القديمة، مدجج
بالملل والبهاء، فرّ هارباً وراح يتجول سراً
في بلدة مجاورة مبحراً
بين حشودها وفاقداً نفسه

twitter @baghdad_library

بين أياديهم الفلاحية الخشنة،
وأسمائهم الغامضة المتواضعة.
اليوم، مثل هارون الرشيد، أمير المؤمنين، يقرر الله
استعادة مكانه على الأرض مولوداً من نسل
سوف يتلاشى في العظام،
والعالم كله سيجد أصله معه:
الهواء، الماء، الخبز، الصباحات، الحجارة،
وقوس قزح. ولكن قريباً سيكون دم الشهادة،
اللعنة، المسامير الثقيلة، الشعاعات.
بعدئذ الخدَر.

"بورخس، ها أنت تجلس الآن بقربي، تحتسي القهوة أمام حانوت الكتب. في كل مكان- في الحياة، والتاريخ والأدب- الناس يولدون ويموتون ..."

"لا، لا، لا تتابع. عليك أن لاتستخدم كلمات الإهانة هذه: الحياة، التاريخ، الأدب، الناس. لاأعتقد أنني أستيطع أن أتمثّلها، كونها صعبة ومخادعة كما هو الحال. ولا أستطيع أن أتصور ما هو"كل مكان" و"كل شخص". هذه مجرد كلمات، فقط كلمات. كلمات، كلمات تملك مدلولات قليلة بالنسبة لعقلي. أستيطع أن أؤمن بشعب واحد ولكن ليس بتلك الحشود الإحصائية الغامضة. (كنت على وشك أن أقول الغيوم.) أستطيع أن أؤمن بيسوع، يهودي ربما كان موجوداً، والذي أُعدم بشكل بائس (كما كانت عادة زمانه، وعادة زماننا) والذي نُسجت

حوله فيما بعد آلاف القصص الخرافية. هذا يحدث مع معظم أبطالنا الخرافيين، لكننا في العادة لانرى سياق العملية بوضوح. ما إن يدخلوا الأدب يصبح ذلك عالمهم ويبطلوا أن يكونوا تاريخاً حقيقياً. هل نعرف ماذا درس هاملت في ألمانيا أو هولاندا؟ هذه مهمةُ بعض الأكاديميين، لكنها لاتهمّ القراء، طالما أن الشخصيات الأدبية لاتملك حقاً زمناً تاريخياً خارج خطابهم اللفظي. وأياً كانت أصولهم خارج الكتب، فهم موجودون فقط لمرة واحدة على الورق، ويستمرون بعدئذ ربما إلى الأبد، ولكن لايوجد حدّ وسط بين هذين المستويين. بما أنهم رهينو الكلمات، رهينو الأدب فهم لايموتون."

"منذ فترة وجيزة شهدتُ موتاً شخصياً، رجل أدب، وكل ذلك كان حقيقياً،" قلتُ له. "ثمة ميتات فردية. كان من أصدقائي المقربين. كانوا يعطونه جرعات قوية من المورفين، لكنها لم تهدّئ لسانه. علمني كثيراً في أيامه الأخيرة. لم تكن الدروس مرعبة. حتى أثناء فترة احتضاره أنا مدين لهذا الإيرلندي."

"الإيرلنديون يستخدمون لسانهم بنفس الطريقة التي يستخدم فيها أهل الأسكيمو مجاذيفهم."

"كان معلقاً بشعرة واهية في المستشفى وعندما مدّ الكاهن يده- لم يكن يكترث به- أخذها بحنوّ بالغ وقال له: أنا أمتحن قبضَتك فحسب. قال الكاهن: أنت سعيد هذا الصباح. قال الإيرلندي: وأنت أيضاً. إنه مزاحنا المشترك على المقصلة. ثم استدار إلى الممرضة وقال: إنني أثقل عليك، لكنني أفترض أنه عملك. هل يمكن أن تعطيني بعض كريم الشوكولا المثلّج؟ كان ذلك كل ما يمكنه تناوله، واستلذّ به بشكل مهووس."

twitter @baghdad_library

"هل أعرف ذاك الإيرلندي؟"

"يجب أن تكون على معرفة به. لابدّ أنه أفلت منك. كان قصيدة تمشي، وكان يحمل عكازاً تركياً، ومن أظرف الناس الذين عرفتهم، بحّة صوته الأجشَ الخارجة من مطابخ الجحيم. في تلك الأيام الأخيرة كان صراعاً حقيقياً أن يقدر على الكلام. كنتُ أجري اتصالاً هاتفياً مع غرفته في المستشفى، وقلت: "ثوماس، كيف حالك؟ قال لي، "أنا مستلقٍ باستقامة على ظهري ومشوّه." كان ذلك أقرب شيء إلى الشكوى مما سمعته منه. "هل يوجد ضرورة لزيارتك؟" "دع أنوارك تقودك،" قال. ذهبت إليه في بداية المساء. كان نائماً، مخدّراً، لكن الممرضة أيقظته لتناول دوائه. عندها تماماً غمغم شيئاً حول الله والرحمة. ومن ثمّ ابتهج قليلاً وقال يجب أن نذهب معاً إلى باريس. ومضى متألماً ضاحكاً ولقي أجمل حتفٍ في التاريخ."

"أجل، لقد حدث ذلك بنفس الطريقة من قبل. موتي سيكون الأسعد."

"أنت محظوظ. محظوظ يا بورخس."

"أنا محظوظ لأنني سوف أنقرض. أخيراً لن أكون بورخس."

"هذا نوع من الإنتحار المقنّع بشكل منحرف،" قلتُ محتجاً. "ولكن أشكر الله أنني تعلمتُ أن لا أصدّقك."

في رحلاته مع ماريا إلى الخارج كان بورخس ينتعش بالأماكن الجديدة، وبالأصدقاء الجدد، بالمفاجآت ولغة السؤال والجواب، وبالترحيب. كان يغذي كتاباته بما كان "يراه" في تجوالاته- "أنا أعمى لكنني أرى،" كان يقول- وفي تلك الرحلات إلى جزر انكلترا ومانهاتن

واليابان وآيسلاندة. في بوينس آيرس حيث أنجز معظم كتاباته كان غالباً يشكو إليَّ الملل والإفتقار للمحرِّضات، وعدم استخدامه للإنكليزية التي أصبحت لديه سلبية وتعليمية. غير أن احتجاجات بورخس كانت تطال تلك الأشياء التي كان يحبها أكثر من أي شيء آخر، بما في ذلك بوينس آيرس. أكثر احتجاجاته تميزاً كانت ضد جيمس جويس، و (دون كيخوته) في الإسبانية. (أعلن مرة، من أجل إثارة الصدمة والمفارقة، أنه كان قد قرأ دون كيخوته لأول مرة في الترجمة الإنكليزية وكان يشعر دائماً منذ ذلك الحين أن دون كيخوته في أصلها الإسباني هي ترجمة غير موفقة عن الإنكليزية- وهي فكرة يتردد صداها في "بيير مينارد" الذي يُعتبر عملاً رائداً في حقل النظرية الأدبية.) وأخيراً كانت هناك تذمّراته حول اللغة الإسبانية نفسها.

هذه الإعترافات تحديداً لم تكشف سوى عن حلقة من الرفض الدفاعي لعناصر كان يجلّها بورخس. مشاعره الهامة تجاه جويس كانت تنعكس ليس فقط من خلال تصريحاته للأصدقاء، والتي ربما كانت صحيحة مؤقتاً، بل من خلال كتاباته النقدية نفسها عن جويس، أو من خلال قصيدة مذهلة يقبض فيها ببضع كلمات قليلة جوهر الكاتب الإيرلندي. أما بالنسبة لدون كيخوته فقد أسرَّ لي يوماً أنه كان قد قرأها في الواقع في الإسبانية وهو في سن المراهقة. أنا متأكد أن هذا صحيح. وربما لم يخيم شبح كاتب على قصائده الأخيرة مثلما فعل ألونسو كويجانو، النبيل الريفي المفلس الذي أصبح فارس الأحلام، كاباليرو الملامح الحزينة، والكاتب الأكثر فشلاً بين هؤلاء، ميخيل دي سرفانتس الذي تمثّله بورخس بشكل أكثر وضوحاً. كان بورخس يتحدث عن

twitter @baghdad_library

الأبطال لكنه كان يفضل المهمشين والمتسكعين والمطرودين، والكتاب الفاشلين وكان يعتبر نفسه بكل فخر واحداً منهم. هذه الإزدواجية بين كويجانو وكيخوته، حيث يحلم كل منهما الآخر، ويحلم بورخس كليهما، تلازم نصّه في تصاعد بورخيسي، حيث في النهاية يحلم كيخوته صانعَه المطلق، سرفانتس، وهو يقاتل ويُجرح في ليباندو.

وهكذا لدينا بورخس يستحضر سرفانتس الذي اخترع كويجانو الذي اخترع بدوره كيخوته الذي اخترع ثانيةً سيده الأدبي سرفانتس، ليس ككاتب بل كضابط بحري قاتل بشجاعة في معركة قبالة الساحل البحري لمدينة ليبانتو (نافوبونتس) في اليونان حيث تلقى جراحاً خطيرة وفقد (مدى الحياة) استخدام ذراعه اليسرى، وأصرّ على أن يُحمل على متن السفينة ليتابع مبارزاته الدونكيخوتية. هكذا يكون لدينا المزيج البورخيسي المألوف من المجنون والكاتب والخاسر والحالم والبطل، و"رجل الزجاج" الفصيح الذي عُزل عن فراشه المصنوع من القش ووقف على قارعة الطريق ليتلو رموز الحكمة والحلم إلى جمهرة من الناس من خلال إطار هشّ على وشك التفتّت:

ألونسو كويجانو يحلم

يستيقظ الرجل من الفراش المزعج
لحلمٍ من السيوف والأرض الساحلية.
بيده يحكّ لحيتَه وجبهتَه متسائلاً
فيما إذا كان قد جُرح أو مات.
هل سيظل كل هؤلاء العرافين الذين خلعوا

عليه اللعنة- تحت ضوء القمر- يلاحقونه؟
لاشيء. تقريباً لابرد. مجرد حزن غامض
من سنوات غابرة كانت منحوسة.
الفارس الذي حلم به سرفانتس أو
دون كيخوته الذي كان الفارس الحالم.
الحلم المزدوج يربكهما: منظر
شيء يحدث منذ أمد طويل.
كويجانو ينام ويحلم. يحلم بمعركة،
يحلم بالبحار، وليبانتو، والشظايا.

كان بورخس بحبور مضِللاً ومتناقضاً مع نفسه على طريقة شاعره المفضل ولت ويتمان وتصريح هذا الأخير المليء بالعنفوان عن التناقض الذاتي واحتواء التعدديات. وكان تناقضه المطلق، ربما، يكمن في تذمّره من اللغة الإسبانية التي أحبها، واخترعها، واستخدمها كما فعلت حفنة قليلة- في نفس اللحظة التي كان يحتقرها.

"في الإنكليزية أستطيع أن أقول (أبذل حياتي حالماً) (I dream my life away) إن مجرد إضافة أداة الجر (away) يمنح بعداً آخر لانجد له معادلاً في الإسبانية."

في بداية مسيرته اتُهم بورخس بأنه لايكتب كأرجنتيني، وبأنه يكتب الإسبانية كمن يفرض نسقاً أجنبياً. ومثل فنان كارتيه ماهر كان بورخس يقفز مع الضربة، موافقاً تماماً على الإتهام، ومستخدماً الضربة ليطيح بخصمه.

twitter @baghdad_library

"محكوماً بالإسبانية، كما هو واقع الحال، أحاول دائماً أن أنهض بها،" كان يقول بشيء من المكر.

في الواقع كان بورخس سيد الإسبانية الحديثة؛ ومثل كويفيدو، كان ماهراً باكتشاف الجذور اللاتينية للكلمات، متورطاً بتاريخها، وبابتكار قاموسٍ شخصي له. إنّ اسلوبه بدّل بشكل عميق جيلاً كاملاً من كتاب الواقعية السحرية وكتاب الفانتازيا بدءاً من خوليو كورتازار إلى غابرييل غارسيا ماركيز، إلى جانب طائفة من الكتاب الأجانب بدءاً من جون بارث إلى دونلاند بارثليم ومارك ستراند. وسواء استمدَّ طرقه من الإنكليزية القديمة، كافكا، ويتمان، أو إمرسون (هذا الأخير كان واحداً من أبطاله المثقفين، الذي لم يأخذ حقه برأيه، وبالتالي لم يتعرض أبداً لعملية الحب-الرفض التي طالت أبطاله الآخرين) فإن بورخس يظل بورخس- ليس كافكا، أو جويس أو سرفانتس أو حتى ستيفنسون. لقد ابتكر نفسه وابتكر خطابه الخاص المتبدل أبداً.

ومثل باسترناك وييتس ومؤلفين آخرين حذرين، كان بورخس ممسوساً بمشكلة تقليد الذات، ونمذجة نفسه. كان يرفض أن يحتفظ بنسخ من كتبه، أو أن يعيد قراءة قصصه أو قصائده. وفي سنواته الأخيرة لم يكن قد أعاد قراءة أي من قصصه الشهيرة خلال أربعين عاماً. وغالباً ما كان يرفض كتاباته الأولى البارزة ويعتبرها باروكية بفجاجة ومدّعية مقارنة بكتاباته الأخيرة التي كانت تصفها ماريا كوداما بقولها "ليست بساطةً لامعنى لها، بل صعوبة سريّة وخجولة." بالمقابل كان باسترناك يتنصّل من شعره التجريبي المبكّر- بالتأكيد أفضل ماكتب- في سعيه إلى خطاب شعري أكثر هدوءاً ووضوحاً ومباشرةً. لو أن بورخس كان قد

أعاد قراءة أعماله أكثر، لكان قد كرر نفسه بشكل أقل، ولكن مثل أية ذاكرة خاصة جداً، والتي كان قد نصحه والده بعدم نسخها إذا أراد أن يبقيها حية ونقية، أبقى بورخس على كتاباته الأولى حرّةً.

ولكن يمكننا أن نستثني مجموعته الشعرية الأولى بعنوان (توهّج بوينس آيرس) التي تعرضت لعدة تنقيحات والتي كان يقول أحياناً عنها بأنها مصدر وأساس معظم كتاباته اللاحقة.

يمكن أن يكون بورخس دراميــاً بخصوص رأيه المتأرجح حيــال كتاباته. في البداية كان قد ترك عمله الشعري الأول الذي نشره على نفقته في جيوب المعاطف المعلقة في البهو التابع لنادي كتاب بوينس آيرس. لاحقاً راح يمشّط محلات الكتب، مشترياً أية نسخة متبقية من نفس الكتاب خشية العار الشعبي الذي يمكن أن يلحقه جراء تصنيفه مع هؤلاء الكتاب. هذه الإشارات الشابة ولاحقاً مواقف الرفض المتكررة، كانت تخفي إيمانه الكامل بقيمة عمله. ومثل قسطنطين كفافي الذي كنتُ أقرأ قصائده لبورخس ليلة بعد ليلة في بوينس آيرس، في الإغريقية والأنكليزية، كان بورخس يعرف من هو وماذا تستحق كتاباته. مرة، وفي حضوري اعترف بأهميته ككاتب. كان ذلك في صيف عام ١٩٧٦ . ورداً على إهانة من منظمة بيرونية اعترف غاضباً أنه في نهاية المطاف الكاتب الرائد في أمريكا اللاتينية. هذه الكلمات قالها لي كمن يفشي سراً، وكأنه يريد أن يوحي بأن ذلك لايعني شيئاً للعالم. بالرغم من ذلك، لم يكن ذلك يشبه شيئاً من بورخس أن يقدم أي تقييم لذاته، وإن كان التقييم صحيحاً بالطبع. كان صمته يخفي عادةً انعدام الضرورة بقول ماهو مفهوم بشكل سرّي.

twitter @baghdad_library

في النهاية لم يكن أي شيء كتبه أو قاله بورخس عن نفسه ككاتب سيترك تأثيراً على عمله. الشكوك، التواضع، التكبّر- كلّ هذا لم يكن يعني شيئاً. كان بورخس ببساطة ملتزماً بالكتابة، وبصناعة الكتب؛ وتوسيع الذاكرة والخيال كان تعريفه الخاص للكتاب. مامن شيء كان يثنيه عن البحث عن الحقائق المجربة بواسطة الكلمات. لم يتوقف أبداً. قصائده المكتوبة في سنّ الثامنة والسبعين هي من بين أكثر النصوص مهارةً، وعمقاً وتأثيراً. صارت رؤيته أكثر حدّةً، ويده أكثر ثقةً. بدأ بالشعر وانتهى بالشعر. ومثل الحكماء ماقبل السقراطيين، وخاصة "إل غريكو"، التسمية التي نحتها لهيراقليطس الغامض، كتب بورخس الفلسفة شعراً وأمثالاً، وكانت أغنيته مستمرة.

وإذا كانت المفارقة والتناقض يطغيان على العديد من تصريحاته واعتقاداته، كان بورخس أول من يقبل بذاك الجدل. في محاضرة عن (الكتاب) ألقيت في جامعة بيلغرانو، نصح بورخس القراء أن لايقرأوا الكتب الثانوية، (أي النقد) بل العودة مباشرة إلى المؤلفين الأصليين. وعندما أدرك أنه في سياق تقديم البرهان على دعوته كان يستشهد بناقديه المفضلين، مونتان وإمرسون، ساق شعاراً ويتمانياً صرفاً :"سوف أناقض نفسي، ومالذي يضير إذا ناقضتُ نفسي؟"

لنرجع في الذاكرة إلى مشاهد الجمهرة عندما كان بورخس يوقع كتبه في مدينة ولادته، يصافح الأيدي ويتبادل المجاملات الحكيمة. بالنسبة لماريا كانت تلك الأحداث أحياناً ممتعة، لكنها في الغالب مملة، مع ذلك كانت دائماً تتصرف بحدس مرهف وأريحية واضحة. و وسط جمهرة المعجبين ببورخس كان ثمة قلة ممن كانوا يتصرفون بطرق هستيرية ومؤلمة بشكل غير متوقع، بحيث لايخلو ذلك من عداء مكشوف تجاهها. كانت

ماريا بمثابة الشخص الذي يمكن مداعبته كمعبرٍ إلى بورخس. مع ذلك من هذا الظلَّ المحتقر الذي يقف حاجزاً في طريقهم؟ كانت تلعب دور لازاريللو الغامض والحريص بشكل كبير على بورخس- ولكن قلة كانت تتصرف بشكل سوي في حضرتها.

عندما كان الجزء العام ينتهي كنا نتجه إلى تناول العشاء، وعادةً في وقت متأخر جداً. بعدئذٍ كانت ماريا تفتح باب الحديث مع بورخس في غرفته لمدة ساعة أو أكثر حول نشاطات نهاره. وعندما كان الشاعر يذهب إلى فراشه كنت أنا وماريا نكمل الحديث لساعات أخرى على الرغم من أنها كانت ستستيقظُ باكراً في اليوم التالي للذهاب إلى مناسبة أخرى. أحياناً كانت تتحدث عن مشاعر الغبن، والضغوطات والأعباء، وغياب أية حياة خاصة بها. في تلك اللحظات كانت هذه المرأة الناضجة طفل ومخلص بورخس معاً.

ذات مساء وبعد الذهاب معاً إلى حضور فيلم في بوينس آيرس، حكت لي ماريا كيف حدث والتقت بورخس. كان ذلك بحضور بعض أصدقاء الطفولة. ذات يوم كانت قد سجلت في صف يدرس فيه بورخس اللغة الأنكلو-ساكسونية في جامعة بوينس آيرس. بعد اللقاء الأول وجدت نفسها منزعجة بغرابة وقالت لأصدقائها بأنها ستترك الصف. لماذا؟ سألوها. لأن بورخس كان شخصاً عظيماً جداً بالنسبة لها، ماريا كوداما، لتدرس على يده. حاول أصدقاؤها أن يقنعوها بغباء أفكارها، ونجحوا بإقناعها بأنه أمر فظ أن تترك الصف دون ان تتحدث أولاً إلى البروفسور بورخس. ونجحت الخدعة. وبعد عطلة نهاية الإسبوع ذهبت إلى الدرس التالي وأعلمت بورخس لماذا كانت تريد أن تترك الصفّ.

twitter @baghdad_library

بالطبع، لم يكن بورخس ليسمع أي شيء من هذا وظلت عالقة في السنارة لأكثر من عشرين سنة أخرى.

كان بورخس فضولياً يريد أن يعرف ملامح ماريا. وقد قالت له مراراً بأنها بشعة جداً. كانت أصغر سناً وأقل طمأنينةً من بورخس، وكانت لعبة التواضع والتكبّر أكثر قسوة عليها، من هنا كلماتها المتهكمة عن ملامحها العاطلة. كانت في تلك الفترة أكثر تحفظاً ولكن أقل خجلاً من صديقها لكنني لم أرها يوماً قط تفقد اتزانها.

وكان بورخس قد سألني في أكثر مناسبة عن ماريا وكيف تبدو وكنت أجيب دائماً بالطريقة ذاتها: "ماريا جميلة بكل المعايير. وأنت محظوظ أنها راضية بالنظر إليك."

وقد شعر بغبطة عارمة.

ذات مساء، في شقتي في شارع باراغوي كان بورخس وماريا خلف الباب. كانت كتبي مبعثرة فوق أرض الحجرة. كنت قد أمضيت الليلة السابقة أقرأ وأكتب ولم أكن قد رتبت الغرفة الفوضوية. قبيل الظهر كنت قد تصفحت مع بورخس قائمة من المواضيع التي كان يرغب بالتحدث عنها في محاضرة له في جامعة ميتشيغان حيث كان يتأهب لقضاء فترة غير سعيدة هناك. طلب مني أن أتصل بالجامعة لكي أنقص عدد المحاضرات من عشر إلى خمس. كان ذلك يبدو أكثر عقلانيةً، ورحنا نتصفح قائمة مواضيع جديدة. حين وقفنا في البهو وراح حديثنا الأخير يتهادى ونحن نهبط الدرج، بدى بورخس سعيداً وماريا أنيقة ومتفائلة.

قلت، "ماريا، كم تبدو جميلة هذه الليلة!"

ولأنه جنتلمان حقيقي عارض بورخس على الفور قائلاً، "ماريا لاتبدو جميلة. إنها جميلة!"

من بين الأماسي الكثيرة في فصل الصيف التي أمضيناها معاً نقرأ ونتحدث في شقة بورخس، أتذكر مساءً بعينه بحنينٍ غريب. وقد كان مفتاحاً لأحداث لاحقة مع بورخس. بعد العشاء عدنا أدراجنا لنلقي نظرة على كيبلينغ. لم أكن تحديداً واحداً من المعجبين بقصائد كيبلينغ- باستثناء بعض غنائيات الغرفة الثكنة- أو أغاني سوينبرن التي كان بورخس يلحّنها في كل مناسبة. كان عاشقاً عنيداً لحفنة من الشعراء وكتاب النثر ولدوا في منتصف وأواخر القرن التاسع عشر وفي مقدمتهم سوينبرن، ستيفنسون، كيبلينغ، توين، تشيسترتون وويلز. ولم يكن هؤلاء من قممه الأولى على غرار هوثورن وميلفل، ويتمان، بو، وديكنسون، غير أن كيبلينغ وويلز كانا بشكل خاص بمثابة أستاذيه المباشرين وتقريباً معاصريه. كان يحتفظ لهما بحب واحترام خاصين. وكان بورخس أيضاً يظهر دعماً لاهوادة فيه للفيكتوريين، مدركاً تماماً بأن الحداثة، التي كان نفسه محورياً في التأسيس لها، أهملت بشكل عريض، بل وبعدوانية، جمالياتهم.

طلب مني بورخس أن أتناول كتاباً عن الرف. كان يعرف موقع معظم كتبه المفضلة على الرف ويستطيع الإبحار في مكتبته عبر تلمّسه للرفوف حتى يلتقي بكتابه المرغوب فيه ويستجيب للمسة أصابعه. قرأت قصائد لشعرائه المفضلين لمدة تسعين دقيقة. ويجب أن أقول بأننا قرأناها معاً على شكل كورس إذ كان يردد بسعادة كل قصيدة أقرؤها بابتسامة تظهر أسنانه البراقة. كان يعرفُ القصائد جميعها عن ظهر قلب.

twitter @baghdad_library

كانت كتبُ بورخس، والتي هي كتب الآخرين، تمثل حياته ومرآته. المرآة، أكثر الأشياء المفضلة لديه وإن كانت أكثرها رعباً، تفصح عن الحقيقة حتى عندما ينظر إليها كأعمى ولايرى شيئاً، إذ إنها عندئذٍ ستكون تفصح عن حقيقة عماه. بالمقارنة، لم تكن كتبه (ليست تلك التي كتبها) مرتبطة بالحاضر المباشر، بل كانت تشكّل بحق مرآةً أزلية ليست مشروطة بلحظة نظرته. كان يكفي فقط أن ينظر إلى تلك الكتب لكي يحرض ذاكرته أو يجعل الآخرين يقرؤون له من أجل أن يجددها. عندئذ، ربما، ستظل تلك الأصوات الميتة تفصح له وتبحث له عن تلك الكلمات الجوهرية إذا استطاع أن يفهمها. هكذا في قصيدته "كتبي" نسمع:

كتبي (التي لاتعرف أنني موجود)
هي جزء مثل هذا الوجه وجهي
بصدغين شائبين وعينين شائبتين.
أبحث بلا أمل في المرآة
وفوقها أمرّرُ يدي الجوفاء.
ليس بدون منطق المرارة
أظنّ أن الكلمات الجوهرية
التي تعبر عني هي في هذه الأوراق
التي لاتعرف من أنا، ليس في الأوراق التي كتبتها.
الأمر أفضل بهذه الطريقة. أصوات الموتى
سوف تستمرّ دائماً تفصحُ لي.

كنتُ قد أشرتُ سابقاً إلى ذاكرة بورخس المتاهية. في مساء آخر من ربيع عام ١٩٧٦ وفي شقتي في بلومينغتون. كان يتحدث إلى صديق هو ماتي كالينسكو. عندما اكتشف بورخس أن ماتي رومانياً ذكر أنه قرأ عملاً لروائية رومانية مغمورة منذ فترة وجيزة في جينيف. في عام ١٩١٦ . كتبت بالفرنسية. في واحدة من قصائدها المكتوبة بإسلوب شبه فلكلوري أدخلت إلى النص الفرنسي بعض الكلمات الرومانية غير المترجمة والتي لم يفهمها. هل يتفضل ماتي بأن يشرح له معاني هذه المفردات؟ سأل كالينسكو. بعد ذلك، وكأنه يقرأ من كتاب، راح يتلو القصيدة الطويلة المقفاة التي لامعنى لها والتي كان قد قرأها خلال أيام الصبا.

لم يكن بورخس جاهلاً بذاكرته القوية. في مناسبة أخرى في جامعة كولومبيا سأله أحد الطلبة إذا كان قد ابتكر حقاً أية شخصيات أصيلة في نثره.

"كلاّ."

"ماذا عن فيونس، المتذكّر؟" ردّ الطالب.

"نعم، فيونس. حسنٌ. إنه أنا، وجميع الآخرين بأسماء مختلفة هم ربما شخص واحد، أو تنويعات على شخص واحد. أنا رجل ذو خيال محدود. لقد ابتكرت شخصية واحدة، كما ترى، هو ذلك المخلوق الكابوسي البائس فيونس الذي لايستطيع النوم أو التفكير بوضوح، أو إيجاد الطمأنينة. لأنه لايستطيع أن ينسى أي شيء."

عندما أعدتُ كيبلينغ إلى الرف قال لي بورخس، "انظر في الصفحة الأخيرة من الكتاب التي تسبق الغلاف."

twitter @baghdad_library

نظرت ورأيت رقم هاتفي.

"سجلتُ رقمك في كتابي المفضل. الآن دعنا نخرج لنتمشّى."

وسلكنا الدرج لأنه لم تكن توجد كهرباء في الممشى.

"هل تعلم، "علّق بخبث، "بأن بوينس آيرس هي المدينة الوحيدة في العالم التي اخترعوا فيها المصعد قبل أن يكتشفوا الدرج؟ غير أن المصاعد تشتغل هنا فقط عندما تكون معطّلة. وبما أن هذا المصعد ليس معطلاً دعنا نمشي."

كانت ماريا قد وصلت لتوها لتمضي بضع دقائق، وحين هبطنا الدرج الحلزوني بسرعه رحت أنا وهي نتعثّر يمنةً ويسرةً. أما بورخس المعتاد على الظلمة فكان يمشي براحة تامة هابطاً إلى مستوى الشارع مثل أمير شبحي شاب. في الطابق الأرضي، وبعد تجاوز سبع طوابق إلى الأسفل، انقطعت أنفاسنا. اتهمتُ بورخس بأنه مارد من لحم ودم لأنه مايزال يتنفّس بكل هدوء وصفاء.

"سامحني. أخشى أنني تجاوزتُ سنّ اللهاث."

في الشارع درنا حول شارع بلازا سان مارتين في الأمام، ودعنا ماريا، وصعدنا شارع باراغوي باتجاه مقهى القديس جيمس. قرأت له، كما هي العادة، بضع قصائد لولاس ستيفنس. عندما قرأت له قصيدة ستيفنس القصيرة بعنوان "القارئ" أصيب بالدهشة وقال بتواضع جمّ: "لو أنني استطعت طوال حياتي أن أكتب قصيدة مثل هذه."

بعد ذلك رحت أقرأ قصيدة ستيفنس "صفحة بحر مزدحمة بالغيوم." أوقفني على حين غرة وأنا في السطر العاشر أو الثاني عشر، وبشيء من الإحتقار الظالم وربما الغيرة التي كان يحتفظ بها فقط

لفريدريكو غارسيا لوركا الذي كان يعرف أعماله بشكل ضعيف، قال، "مجرد لون،" رافضاً شعر الشاعر الذي كان قبل هنيهة فقط يعبّر له عن كلّ إجلال.

عند تلك النقطة بدأت أمطره بوابل من الأسئلة "الجوهرية".

"تتحدث عن كونك سعيداً ومكتئباً أيضاً. في كتاباتك تكون الرؤية التراجيدية دائماً مغلفة بإطار من المحاكاة والمفارقة، ولكن عندما تتحدث لي فإن اكتئابك يعبر عن نفسه دون مفارقة. أولاً، أريد أن أسألك، مالذي يجعلك حقاً سعيداً؟"

"لماذا، كنتُ حقاً سعيداً عندما كنتَ تقرأ لي قصائد كيبلينغ،" قال بشيء من الصّراحة. ورسم ابتسامة صغيرة كأنه راح يستمتع ثانية بتلك الغبطة.

"وماهي بعض تلك الأشياء المرعبة التي تقول إنك اقترفتها وتجعلك قلقاً- أو حتى بائساً؟"

توقعتُ منه تعليقاً متعلقاً بكوابيسه الأساسية المتكررة والتي كانت، مثل مرايا طفولته، مصدراً للرعب.

"حسنٌ. لأنني تزوجتُ."

لم يكن هناك أثر للتهكّم في جوابه المبتور. فكرت بكل زيجاته، ولكن بعيداً عن زواجه الرسمي الكارثي في أوائل السبعينات. وهذه الزيجات لم تكن لزوجات ولكن لنسوة ورجال حاولوا خلال ثلاثين سنة من عماه أن يعتنوا به، يحافظوا عليه ويضعوه في الأسر. ولأنه جبان (لنستخدم كلمته) ومؤدب بالفطرة والقناعة (رغم نوبات قليلة من المزاج الحادّ) كان يجد نفسه مراراً مُنقَذاً ومستغَلاً ومحاصراً بشكل مطلق

twitter @baghdad_library

بالأصدقاء المحبين- إلى أن يفرّ هارباً ويبتعد عن محبيه. كان ينتقل من اللطف والشهامة إلى القسوة. وعلى إثر ذلك يستمتع بحريته رغم الشكوى من العزلة.

وبعد مضي عشر سنوات على هذا الحوار رحت أتأمّل ردّ بورخس حين قال "لأنني تزوجت." على الجانب الآخر من الشبكة العائلية كان بورخس محبّاً بكليته لوالده الذي توفي في عام ١٩٣٨ وكان أيضاً متعلقاً بوالدته بنفس القوة التي وافتها المنية في سن التاسعة والتسعين، مريضة ومعاقبة من الله كما قالت له لأنها أجبرت على العيش طوال هذه المدة. والدته، التي كانت تقوم بدور الزوجة والخصم لزوجته الرسمية التي بقيت معه لفترة قصيرة، ماتت في عام ١٩٧٥. كان موتاً مرعباً. بورخس أخبر مونيغال أنها "رجت الخادمة أن تأتي وترميها في حاوية الزبالة. في سنتيها الأخيرتين كان يمكن سماع أنينها وشكواها حتى على الهاتف. وعندما أتت النهاية كانت قد انكمشت إلى مجرد عظام عارية، تماسكت مع بعضها البعض فقط بواسطة طبقة من الجلد المجعّد مثل صورة المومياء التي ستكونها." في الصيف الذي تلى موتها كتب بورخس قصيدة مشحونة بالعاطفة وخيبة الأمل تحت عنوان "ندم":

لقد اقترفتُ أسوأ أنواع الذنوب
التي يمكن لشخص أن يقترفها.
لم أكن سعيداً. دع أنهار النسيان المتجمّدة
تجرّني، وبلارحمة دعني أهوي.
أهلي أنجبوني وحملوني إلى مراتب أعلى

من الإيمان باللعبة الإنسانية لليالي والنهارات؛
بالأرض، بالهواء، بالماء، وبالنار.
خذلتُ أهلي. لم أكن سعيداً. دروبي
لم تلبِّ آمالهم بي في الشباب. لقد كرَستُ
عقلي للعناد المنظّم للفنّ،
ولكلّ شبكاته الوضيعة.
شاؤوا لي الشجاعة. لم أكن شجاعاً.
ولم يتركني أبداً مذ بدأت:
هذا الظلّ لشخصٍ يبقى شارداً.

ولطالما تأملت بتلك العلائق من الحب الأسروي لدى بورخس، وبمقته للروابط التي تنصب شراكاً، ورأيت أخيراً أن منظومته الأكثر احتراماً للتواصل الإنساني، الأرض الأكثر ديمومةً: هي الصداقة. وفي دائرته كان ثمة الكثير من الأصدقاء- رافائييل كاسينوس آسينس، ألفونسو رييس، ماسيدونيو فرناندز، باول غرساك، فيكتوريا أوكومبو، أمير رودريغز مونيغال، أليشيا جورادو، أناليس فون دير ليبن، أدولوف بيو كاساريس، من بين آخرين. أما أكثر المقرّبين بينهم فكانت بالطبع ماريا كوداما.

كانت ماريا هي الصديق الذي أعطى بورخس حياةً لأكثر من عشرين عاماً. صداقتهما الفريدة نمت وترعرعت مثل بذارٍ رُشت في تربة ذات خصوبة مدهشة. ماريا كانت الصديق الوحيد الذي أصبح بورخس معتمداً عليها بكليته. لكنها، أي ماريا، خلال تلك العقود من الإتكالية لم تضعه في قفص. كانت تقرأ له، تنسخ له قصائده، قصصه، ومقالاته،

twitter @baghdad_library

تحضرَ له اجراءات السفر، ترافقه، وتأمر له وجبات طعامه وتقطّع له الخضروات واللحم دون تذمّر، كل ذلك وهي تدير حديثاً ممتعاً. كانت إلى جانبه في محاضراته ومقابلاته. كانت تفعل كل شيء باستثناء التفكير أو التحدث بدلاً منه- كما كان قد حاول بعضهم أن يفعل. في كلّ فعل كانت تقوم به كان ثمة حكمة وريادة، مهارة ونوايا طيبة. وعلى العكس، كانت ماريا هي التي شعرت خلال فترات من الإيثار التام بأنها محاصرة. مع ذلك في السنوات الأخيرة حدثت أمور جعلتها تتجاوز هذه القيود وتعوضها عن الآثار السلبية التي يمكن أن يفرزها الإلتزام. وكان واضحاً أن ترتيباتهما المشتركة في العمل، وحرفيتهما، إضافة إلى واجبات أخرى، ساعدت كثيراً صداقتهما الشخصية، وبدأت علاقتهما الحميمة تكتسب حناناً غير عادي.

في سنواته الأخيرة أهدى بورخس قصائد حب عدة إلى ماريا إضافة إلى منشورات أخرى.كانا يسافران بشكل دائم. ذات مرة في مطلع الفجر استقلا معاً منطاداً هوائياً وحلقا فوق وادي نابا. عن هذه الرحلة تحدث بورخس عن "هناءته" التي لاتوصَف. كان يتحدث إلي الآن عن حبه لماريا وليس عن خطأ زواجه المبكر. كتب بورخس :" ماريا وأنا تشاطرنا معاً متعة ودهشة العثور على أصوات ولغات وصباحات ومدن وحدائق وناس، جميعها كانت مختلفة وفريدة." كان يقرأ كل شيء للقمر، لما سمّاه الفرس بمرآة الأبدية. في قصائده الغنائية كانت ماريا هي القمر. وعندما تزوجا في نهاية المطاف كان العالم وحده يفسّر هذا الفعل على أنه مفارقة بورخسية، وكإشارة لشيء خارق. لم يكن يحمل أية مفاجاءة. وكان بالطبع يحمل أهمية قانونية، ولكن في تلك الآونة لم يكن قد

حدث شيء خارج إطار ماهو إعتيادي. زواجهما- لنستخدم عبارة يوافق عليها كاتب بورخس المفضل سوينبرن، كان قد تشكّل لتوه ووصل ذروته في السماء.

عندما دخل بورخس المتاهة الحقيقية، الحجر الأصلي في كنوسوس، والذي لم يفارق الأرض أو الوقت، دخل برفقة ماريا وضاع. في المتاهة يضيع المرء، تلك هي غايتها. لكنه دخل الآن في الصباح مع ماريا ولم يضع وحيداً. لقد التقطت ماريا صورةً لبورخس جالساً مع عكازه على درج المتاهة. أربعة من أصابعه تظهر بوصلةً عديمة النفع تشير إلى اللامكان. غير أن عينيه العمياوين كانتا مفتوحتين بشكل واسع وتنظران إلى ماريا وإلى عدساتها. لقد سجل بورخس يوماً أنه ضائع جداً معها وفي الزمن: "هذه هي متاهة كريت حيث مركزها هو المينوتور (Minotaur) الذي تخيله دانتي على شكل ثور برأس إنسان وفي شبكته الحجرية أجيال عديدة ضاعت مثلما ضعت أنا وماريا كوداما في ذلك الصباح، وبقينا ضائعين في الزمن، تلك المتاهة الأخرى."

لاحقاً، ومن صديقي ثوماس أنطوني كريغان، المترجم والمحرر الأول (والأخير) لقصائد وقصص بورخس، سمعت بعض التفاصيل عن الأشهر القليلة التي سبقت موته. كان طوني مع بورخس وماريا في الصيف الأخير في ميلان وفي شهر كانون في روما، قبل أن يذهبوا إلى سويسرا.

في ميلان ذهب بورخس وماريا إلى افتتاح الفصل في لاسكالا وهو حدث اجتماعي جدي. كانت بطاقات الدخول الصعبة المنال قد أُعطيت لهما من قبل أميرة ثرية وصفها طوني بيهودية كاثوليكية من شمال إيطاليا. عندما دخل الزوجان بهو المسرح تعرّف الجمهور على بورخس. وقوبل بتصفيق عفوي. بعد ذلك جاء الرئيس السابق للجمهورية وعانق

twitter @baghdad_library

بورخس وتبعه الرئيس الحالي. كان ذلك هو الشيء الطبيعي الذي تفعله في إيطاليا. وفيما كان طوني يسرد الحادثة اغرورقت عيناي. لكنه أعادني إلى رشدي سريعاً بالقول إن بورخس شعر بالملل الشديد وهو يستمع إلى أوبرا (عايدة).

في الأيام الأخيرة في روما، ورغم أنه كان مريضاً، لم يقدم بورخس أي تلميح عن خطورة مرضه. الشهامة المتحدية، والسلوك المكابر استمرا كما كانا في السابق، وربما تعززا أكثر نتيجة إدراكه لدنو الفعل الأخير والحتمي.وانكشف زعمه القديم بالجبن الجسدي في تلك الآونة على ماهو عليه حيث لم يكن سوى قناع ساخر يتخفّى وراءه صبر صوفي كان قد امتدحه لدى سقراط صاحب الكأس. وفي لحظات غريبة ودون أي سبب معروف كان يردد لطوني بيتين للشاعر دانتي غابرييل روزيتي تقول،

انظر إلى وجهي، اسمي "كان يمكن أن يكون"
وقد سُميت أيضاً "لا أحد" و"متأخر جداً" و "وداعاً"؛

وقد التقط كريغان لاحقاً فقط الفحوى الواضحة للوداع حيث أن بورخس، بوصفه نبيلاً ورجل أدب، يهمس قدره همساً وإن كان ذلك ببعض الإصرار:

وقد سميتُ "لا أحد" و "متأخر جداً" و "وداعاً".

بعد روما، وفي صيف ١٩٨٦ توجّه بورخس برفقة ماريا إلى جينيف. لن يتسكعا بعد ذلك. كان بورخس قد عاش هناك خلال سنواته

التأسيسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. هناك كان قد تعلم الألمانية والفرنسية، وهناك بدأ الكتابة بالإسبانية والفرنسية ونشر أول مقال له (بالفرنسية). كانت جينيف بالنسبة له مدينة العودة دائماً. بورخس يدرك الآن بأنه غادر الإرجنتين للمرة الأخيرة.

استمرّ الزوجان بتعاونهما الأدبي في جينيف. وكما يستذكر شبابه هناك، في المدينة حيث كان قد اكتشف رامبو والألمانية وأشعار هينه، كان بورخس يحنّ بشكل غير اعتيادي لمدينة بوينس آيرس. حتى وهو في الإرجنتين كان بورخس، مثله مثل أنطونيو ماتشادو، شاعر التذكّر. هكذا كانت كتاباته في آن واحد ذاكرة تاريخية لبحار أنكلو-ساكسوني متسكّع، ولإدغار بو وهو يقترف قصصه الدموية المثيرة، ولويتمان راكعاً على فراشه الأبيض في غرفة صديقه البائس، مكتبة عامة، فيكتوريا أوكامبو، الأصدقاء الكتاب، ومن ثمّ ذكرياته هو عن باليرمو ملعب طفولته، وباريو نوتر، وخاصة موسيقا الميلونغا (التانغو السريع الإرجنتيني)، وخاصة أولئك الناس الذين سكنوا الميلونغا، وأقصد، الغرباء واللصوص، وضيوف المباغي، ولاعبي السكاكين.

كان بورخس يعتنق الفكرة الغريبة المتجذرة بمازوخية جنسية وموت عضوي تقول بأن المبارزة بالمسدسات أو السيوف هي تنحٍ أجنبي عن الجرأة المباشرة، وبأن الملاكمة رياضة إغريقية، وليست نشاطاً بدائياً، وأن الشجار الإرجنتيني بالسكاكين بين عصابات لاتعرف الخوف خارج ملهى ليلي كانت تعكس الإغتراب الحقيقي الذي أُعجب به. وحتى بعدما تخلّى عن العسكر بسبب وطنيتهم السطحية وبربريتهم القومية، فإن لاعب السكين في شبابه، وفي الفترة الممتدة من عقد ١٨٩٠ قبيل

twitter @baghdad_library

ولادته بقليل، أصبح بطلاً مجرماً يعتاش على الشهرة والصيت، والذي يجب أن يبقى نصله متلالئاً وليس عاجاً محترماً. كان حريصاً على بعث ذلك الشبح. حتى في جلسات الأسئلة والأجوبة المزدحمة أمام جمهور هارفارد وجامعة بوسطن في ربيع ١٩٨٠ كان السؤال الأخير الذي تلقيته طلباً لبورخس لكي يقرأ قصيدة. واختار أن يلقي سوناتا تستحضر لاعب السكين خوان مورانا الذي كان في ريعان شهرته في فترة ١٨٩٠. بورخس قال إنه يشعر بأنه يعرفه شخصياً. كان شيئاً مدهشاً أن ترى الرجل اللطيف والحكيم، مفعماً بعاطفة نوستالجية، يحتفل بحياة القاتل خوان مورانا الذي كانت "حرفته هي الشجاعة." وتعيد ترجمة أنطوني كريغان ابتكار القصيدة في أصلها الإسباني:

إشارة إلى شبح من فترة ١٨٩٠

لاشيء. فقط سكين مورانا.
فقط القصة المبتورة ذات ظهيرة غبراء.
لاأعرف لماذا هذا القاتل الذي لم أره أبداً
يمشي معي في ضوء الشفق.
كانت باليرمو في الأسفل قليلاً. حائط
السجن الأصفر ينهض متوعداً فوق
الضواحي والحيّ. عبر ذلك
القسم المتوحش مشى مورانا. السكين الخسيسة.
السكين. كان وجهه ممحواً
وكل ما أستيطع تذكره عن ذلك المرتزق القاسي

الذي كانت حرفته الشجاعة
ظلاً ولمعاناً للفولاذ.
ليت الزمنَ الذي يغبّشُ الكريستالَ
يحفظُ ذلك الإسمَ حاداً كالنصل: خوان مورانا.

في جينيف كان بورخس قد طور صداقة ثقافية مدى الحياة مع سيمون جيشلينسكي وموريس أبراموفيتش. قبل سنوات قليلة التقى أبراموفيتش بعد خمسين عاماً من الغياب وتابعا حديثهما عن الرمزية الفرنسية، وعن الأصل اليهودي للإسم البرتغالي بورخس، وعن قضايا أخرى، وكأن الوقت لم يمر منذ أن ألتقيا لآخر مرة. كان أبراموفيتش يهودياً، وبورخس كما نعلم كان قد اتُهم بأنه يهودي خلال الحرب العالمية الثانية عندما كانت الإرجنتين من أنصار دول المحور. في ذلك الوقت كان مطلب حياته أن يكون من ثقافة غموليم والقابالا، وأن يكون مستحقاً للدم اليهودي في عروقه. في البدايات كتب بورخس قصصاً تدور أحداثها في جينيف تحتوي على شخصيات مزدوجة في الغالب وهذه ثيمة تحكم أعماله. كانت جينيف تمثّل بديلاً مزدوجاً لبوينس آيرس. وقبل سنة من وفاته كتب عن الموت وعن عودته إلى جينيف "أعلم أنني سأعود دائماً إلى جينيف، وربما بعد وفاة جسدي."

في عام ١٩٨٤ تلقى خبراً جاءه إلى بوينس آيرس بأن أبراموفيتش مات في جينيف وكتب قصيدة نثرية رثائية كانت خاتمتها بمثابة وصفة روحية لموته هو: "هذا الليل قلت لي دون كلمات يا أبراموفيتش بأن المرء يجب أن يدخل الموت كمن يدخل العيد." الفصول الأخيرة من دراما حياته كانت مقدراً لها أن تُوَدّى في هذه المدينة السويسرية.

في هذه الأثناء صار معروفاً لدى الجميع بأن بورخس يخطط للزواج

twitter @baghdad_library

من ماريا. كان على حافة الموت. بعد ذلك أحداث غير متوقعة حدثت. أخته نورا وولداها عارضوا الزواج. كان بورخس محباً لنورا التي كان يعتبرها فنانة ومحباً لأبنائها. ولكن العائلة الآن أثارت حملة بشعة ضد ماريا، بشكل سري وفي الصحف الإرجنتينية.

ماركوس ريكاردو بارناتان، الشاعر الإرجنتيني ومؤلف العديد من الكتب عن بورخس سرد لي في مدريد المعلومات التالية. هنا أكرر الحقائق، إذا كانت هي فعلاً كذلك، دونما تبديل أو تعليق.

الإساءة الأخيرة لبورخس أتت عندما اكتشف بأن حسابه في البنك، والذي تستخدمه عائلته، كان قد أفرغ تقريباً من كل رصيد تحسباً للزواج. عند تلك النقطة قرر بورخس أن يغيّر وصيته، تاركاً كل عقاراته باسم ماريا. للآخرين ترك "فسحةً واسعة من القبر في مقبرة لاريكوليتا."

بورخس وماريا تزوجا في جينف.

آنا كارا ووكر صديقة ارجنتينية له وبروفسور من كلية أوبرلين أمضت عدة أيام مع الزوجين في أوائل حزيران. وبالتعاون مع الشاعر والأكاديمي الأمريكي ديفيد يونغ كانت آنا ووكر منهمكة بترجمة (أناشيد) بورخس الستة. هذه القصائد الرعوية كانت تمثل انجازاً عزيزاً على قلب الشاعر، غير أن الترجمة كانت سرابية بشكل شيطاني. كانت كارا ووكر تستشير بورخس عن أغانيه البطولية حول الحياة السفلية. بورخس، لاحظت ووكر، كان يرتدي كالعادة بذة أنيقة لكنه وبسبب وهن جسده كان يرتدي شحاطاً بدل الحذاء. كانت روحه اللاذعة وثقافته الصارمة كما كانتا عليه دائماً. كانت ماريا قد وجدت لنفسها شقة جذابة في شارع فيبل فيللي، الشطر من المدينة الذي أحبه بورخس دائماً. كارا ووكر كانت قد ساعدتهما على الإنتقال وكان بورخس سعيداً جداً ببيته الجديد مع ماريا، سعيداً بخلوته الهادئه وبشرفته المشرفة على

الأبنية الباستيلية.

كانت آنا قد رأت بورخس ثانية ولكنه هذه المرة لم يكن قادراً على مغادرة فراشه. في تلك الظهيرة كانت ماريا تصف جدران غرفة النوم وتتحدث عن خشبها الجميل المائل إلى الألوان الرملية حيث بورخس محاط بالثراء المكتشف حديثاً. كارا ووكر تقدم لنا صورة لماريا والشاعر وهما يستريحان بسلام، يتذكران الغرفة حيث رفيقته المختارة أعطته عينيها: "قادت يد بورخس إلى الإفريز. ... راضياً عن وصف ماريا استلقى إلى الوراء واستسلم للصمت. هل أنت على مايرام يابورخس؟ سألت ماريا. نعم، أجاب بورخس. إنه أسعد يوم في حياتي." غادرت كارا ووكر. في الوقت الذي وصلت فيه طائرتها إلى نيويورك في ١٦ حزيران كان بورخس قد مات. كتبت لاحقاً تقول بأن "بورخس دخل الموت كأنه العيد، بشجاعة وشفافية وسعادة."

متحرراً من العادة، ومن ثقل الإستيقاظ ثانية إلى واجب كونه بورخس، صار الشاعر حراً. الحكمة، إن لم تكن الألوهة، خدمته حتى حدود الظلام. بالنسبة للكثير منا صار الكون أخفّ بشكل لايوصف بسبب رحيله الجسدي. كان ثمة خواء لحكاية حية، لفطنةٍ كالبرق، وحضور حنون. مع ذلك فإن تسليته المفضلة، الذاكرة، تتآمر معَ الآخرين لتعيد ليس فقط الشخص بل الحرف أيضاً. هل يعطينا الحرف حقيقته الحدسية؟ هل يخبرنا عن "المصير الأمريكي الجنوبي الأخير؟" في بعض الظهيرات المحطمة هل نجد في الحرف الضائع ومرآة الليل "السحنة غير المتوقعة للأبدية؟" في "قصيدته الحدسية" كما في كتابات أخرى، لن يفصح بورخس عن كلّ شيء لنا، وحتى عندما يراقب الرعد وقوس قزح فإن مثاله يكفي. وإذا كان سقراط قد عرف عند حدود الصمت شيئاً أو لاشيء فإن بورخس قد عرف الشيء ذاته. ولكن في طريقه إلى الصمت خلط بورخس الحكمة بالضحك وأضاف عبقريته وأناقة كلمته الفريدة إلى

twitter @baghdad_library

الكيمياء وعزّز اللغز.

الزواج على فراش الموت وموت بورخس بعد وقت قصير فيما بعد تركا ماريا منكوبة بشكل مضاعف: كابدت خسارة بورخس في الوقت الذي عانت منه من حملات الإفتراء ضدها التي استمرت في الصحافة الإرجنتينية لعدة أشهر، تبعها دعاوى قضائية فاشلة لتحطيم الوصية. مكثت في جينيف، ومن ثم ذهبت إلى باريس، وإلى نيويورك لقضاء بعض الأعمال، لكنها لم تكن في البداية راغبة في العودة إلى الأرجنتين. غير أنها عادت إلى بوينس آيرس ولكن بشكل مؤقت.

كان رومانس ماريا وبورخس آخر ابتكار في حياة بورخس. هذا الكاتب المعادي للبيرونية، الأرجنتيني المعادي للنازية خلال الحرب، وسبينوزا شارع مابو، مات دون جائزة نوبل، مع ذلك جانب جوهري من هذا المؤلف الميتافيزيقي بامتياز قد لُبّي. عزلة كينونته، والجهل المتأصل في اللغة العامة، وفي أي كلمة مطلقة، في اللحظة التي تبشر باللاوقت الروتيني بعد الموت- كل هذه المجاهيل، جنباً إلى جنب مع نهاراته ولياليه، يتشارك بها الآن في معاهدة رسمية للحب مع صوته الآخر، ماريا.

في العقد الأخير من حياته، أصبح بورخس حكيماً جوّالاً. كتاب (كيم) كان دائماً واحداً من كتبه المفضله، بل عادة من "عاداته"، كما كان يقول. كان يحفظ كلمات كيبلينغ عن ظهر قلب، مثلما كان يحفظ النصوص الإنكليزية القديمة. والآن صارت تربطه علاقة وشيجة ببطل كيبلينغ الجوّال. في كلّ تجوالاته، وعبر أحاديثه، طور بورخس أدباً شفوياً خاصاً. وبسبب عماه، ذاكرته، حكمته، فطنته، لسانه السليط، حبه لسرعة البديهة، وحضوره الساحر، تحول بورخس بشكل لامناص منه إلى شخصية سقراطية حديثة.

ثمة التقليد المعروف جيداً للحكيم الذي يكون عمله منطوقاً. بوذا، ويسوع، ولاوتسو، وسقراط، جميع هؤلاء حاولوا عدم سجن أفكارهم عبر

تثبيتها على صفحة بين دفتي كتاب، بل رغبوا بأن يتجنبوا خطر تحول كلماتهم إلى معتقدات. وسجلنا لهؤلاء الحكماء هو نتاج الآخرين الذين سجلوا عبر أدوات كل عصر: الذاكرة وما اقترفته أيادي الناسخين.

قيل إن التاوي الصيني لاوتسو، الذي يمكن أن يكون ثلاثة أشخاص في شخص واحد أو ببساطة تقليداً كاملاً من المعتقدات الشفوية، ركب على ظهر جاموس نهري متوجهاً إلى الصحراء، حيث راح يملي قصائده وأمثاله. بورخس استمرّ بإملاء قصائده وأمثاله ومقالاته وقصصه حتى النهاية، غير أن وساطته الجديدة كانت بازدياد لغة المشافهه، والجدل الحديث. في تلك الحوارات مع زملائه وجمهوره المتسائل، ابتكر كتاباً عاماً مقدساً لعصرنا. ولم يكن هذا الكتاب مختلفاً من حيث النوعية والعمق والرحابة عن حواراته الشخصية مع أصدقائه، والذي كان طوال سني النضج معادله الموضوعي للتاو الصيني، وطريقته في المشاركة في الكلمه غير المكتوبة. في النزهات والوجبات المشتركة، والأحاديث، كان ثمة دائماً صوت الأعمى. صداحاً، ضاحكاً، ومدهشاً. معارضاً، حميماً، عميقاً. مساوياً الكلمة بالكون، مفككاً أبجدية الوقت. يائساً ساخراً. الصوت الذي يعانق الآخر.

صوت الأعمى هو بورخس الجوهري. أولئك الذين سمعوه يعيشون تحت سطوته مدى الحياة.

twitter @baghdad_library

صدر للمترجم

في الشعر

- طواف الآفل بيروت /دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٨
- باتجاه متاه آخر بيروت /دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩
- لن أكلم العاصفة بيروت /دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠

في الترجمة :

- قلق التأثر

تأليف هارولد بلوم
بيروت، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٨

- نظرية لانقدية: مابعد الحداثة المثقفون وحرب الخليج

تأليف كريستوفر نوريس
بيروت، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩ .

- سبع ليال

تأليف خورخي لويس بورخس
دمشق، دار الينابيع ١٩٩٩ .

- خريطة للقراءة الضالة

تأليف هارولد بلوم
بيروت /دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠ .

في النقد:

- ولاس ستيفنس: تخيل صوفي أسمى

(اطروحة دكتوراه باللغة الإنكليزية من جامعة نيويورك) للعام ١٩٩٥.

twitter @baghdad_library

هذه المذكرات الغنية والشفافة عن الشاعر الأرجنتيني خورخي لويس بورخس في عقوده الأخيرة تضمّ حوارات فلسفية محتدمة، وأحداثاً وقصصاً عن سيرته الذاتية، وكثيراً من الاقتباسات الشعرية، بالإضافة إلى التحليل الأدبي العميق. الشاعر الأميركي ويليس بارنستون، أحد أهم مترجمي بورخس إلى اللغة الإنكليزية، وصديق مقرّب له لأكثر من عشرين عاماً، يقدّم حياة هذا الكاتب الكبير بوصفها رمزاً للتناقض والمفارقات. بارنستون يستعرض بلغة شعرية دافئة تلك المزايا الفريدة لبورخس من ذاكرة متقدة فيّاضة، وثقافة أدبية ثرة، ومواقف فكرية تجاه المشهد السياسي في الأرجنتين، بالإضافة إلى استبصارات بورخس عن حياته المديدة وعلاقته بكتب وقصائد وقع في غرامها تنتمي إلى أكثر من ثقافة ولغة. إن روح بورخس وكلماته تشعّ عبر هذه الصفحات على شكل مذكرات متلاحقة تكشف عن عبقرية أدبيّة كانت وما تزال تشكّل علامة فارقة في مشهد الحداثة الأدبي في القرن العشرين.

المترجم

تصميم الغلاف: رولا ماجد

ISBN 284305542-3

9 782843 055423